H U Z A M A   H A B A Y E B

رواية
NOVEL

مكتبة نوميديا 196

Telegram@Numidia_Library

حُزامة حبايب

مُخْمَل

مكتبة كلّ شيء

مُخْمَلْ

مخمل / رواية عربيّة
حزامة حبايب / مؤلّفة من فلسطين
الطبعة الأولى، 2016
حقوق الطبع محفوظة ©

info@kol-shee.com
www.kol-shee.com
مكتبة كلّ شيء / حيفا

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع ميشال ابي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU، بناية النجوم، مقابل ابراج بيروت
ص. ب 5460-11، الرمز البريديّ 2190-1107، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الاردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+
info@airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
خطوط الغلاف: زهير أبو شايب / عمّان
الصفّ الضوئيّ: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: ديمو برس / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب او ايّ جزء منه، او تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، او نقله بايّ شكل من الاشكال، دون إذن خطيّ مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-419-631-1

رواية
NOVEL

حزامة حبايب

مُخْمَل

مكتبة كل شيء

رِجْعت الشَّتْوِيِّة
ضَلّ افْتَكِرْ فِيِّي
ضَلّ افْتَكِرْ فِيِّي
رِجْعِت الشَّتْوِيِّة

لم يكن مزاج المطر سلساً ، ويقيناً لم يكن منسابـاً ، ليناً ، ولطيفاً . كما لم يكن رشيقاً ، خفيف الوطْء على الأرض .

ضربَ المطرُ الحياةَ العاريةَ بشراسة . تساقطت حبّاته حجارةً صلدةً شقّت قشرة الأرض القاسية . خناجرُ الماء اخترقت خواصرَ التراب ، في طعنات سريعةٍ متلاحقة ، كأنها مشحونة عاطفياً ، أو مسكونة بكآبة عتيقة ، أو مشبّعة بغلٍّ دفين .

ظلت شرايينُ الأرض تنزفُ مياهاً سوداء . أغرق الماءُ الهادرُ الشوارعِ ، ارتفع حتى غمرَ أعناقَ الأرصفة ، دَفَقَ في الأزقّة ، فتشكّلت جداول متثاقلة من الطين ، فيما دلقت شبكاتُ التصريف قذارات بطونها في الطرقات .

انهال الماءُ ، كوابلٍ من الرصاص ، على النوافذ الفزعة . تسلّلت بعضُ الرصاصات من حوافّ الشبابيك التي انزاحت أُطرُها ، مترخرِخةً جرّاء تقادم العيْش . شقّت البروقُ السماء ، وتداخلت بالرعود التي زجرت البشر المكشوفين في شوارع الليل ، فيما احتمى بشرُ البيوت ، غير المحصّنة تماماً من تبعات الطبيعة غير المتعقّلة ، بشاشات التلفزيون الخالية من الإثارة ، وأكواب الشاي المصبِّرة ، الماصّة النقمة المختمِرة ، العابقة بميرميّة الشتاء والأنفاس المحتقِنة لصوبّات الكاز .

مائية متجدِّدة . ظلّ نشيشُ المطر حقيقةً ثابتة ، متواصلة ، كأنه دهري .

وفي اليوم الثامن ، توقف المطر فجأة ، هكذا ، دون تباطؤ أو تناقص تدريجي يمهِّدان للتوقف . تصحّرت السماءُ من أدغال السحب دفعةً واحدة ، وطلعت شمسٌ كبيرةٌ وسط الكون ، وتحوّلت أنهارُ الطين إلى طرقات إسمنتية قاسية ، متكسِّرة ، كما لو أن بللاً لم يغشَها على مدى أيام طِوال عِراض ، تداخلت فيها مساحات الصباحات الواهنة بمسافات المساءات الممتدّة ، الموحِشة . لكن رائحة الماء الموصول ظلت لابثةً في الأجواء ، مترسِّبةً في كل الأماكن ، عالقةً في أبدان البشر ، الذين أنهكتهم أيامُ الماء تماماً ، كامنةً في شَعر القطط التي استلقت بكسل على مصطبات البيوت الملساء ، متمكّنةً في البيوت التي تكدّس فيها العرق والشخاخ والكاز وزيت القلي المُعاد استخدامه ، الذي تكوّم بخاره في فضاء البيوت المغلقة على اكتظاظ بشري خاصم لحمُه ، أو بعضه ، ماء الاستحمام الدافئ ، مستمكنةً في الحيطان التي تشقق لحاؤها ، نازّةً طلاءها المتآكل . لم تكن الرائحة طيبة ، إذ تعشقّت بالرطوبة والعفونة المبيَّتة ، وامتشقت الهواء الذي تتنفّسه الكائنات ؛ ما جعل مزاج الكون آسناً ، عكراً ، وظل أثرٌ لشيء يشبه الانحلال عالقاً في أطراف الماء كما الهواء .

كانت الشمس صفراء جداً ، وكانت دانيةً جداً من المخيّم والناس ، أقرب ما تكون إلى شمس صيفيّة لكنها لم تكن

لاهبة . كانت الشمس أقرب إلى اكتشاف ، فبان في نورها الفاضح كم أنّ البيوت متهالكة . تبدّى في النهارات التي سطعت الإعياءُ الذي أصاب الأحذية التي تماسك جلدها الرخيص بصعوبة ، والشالات الصوفية البائتة ، والمعاطف المنهَكة التي غفل بعض أصحابها عن حبّات نفتالين مندسّة في بطانات الجيوب الداخلية .

لكن ، ورغم الوهن الجليّ ، وحالة الاهتراء العامة التي طفت فوق الحياة خلال حقبة ماء الكون العنيفة ، وشبه الموات الذي زرعه المطر في أيامه القاتمات ، لم ترتفع شكوى إلى السماء أو تأفّف علني من ماء الله . دارى الناس نوبات الحمّى التي استوطنت كياناتهم ، وتحاملوا على تراخي مفاصلهم وتخلخل أطرافهم ، وأغلقوا أفواههم على رذاذ سعالهم العنيف والجاف .

في العموم ، ظلت مشاعر الناس مُضمرة .

لكن مشاعر حوّا ظلت متفتِّحةً في المطر ، الضارب ، العنيف ؛ توّاقةً للماء ، ولمزيدٍ من الماء . تحب حوّا الشمس ، لكنها تحبُّ الغيمَ أكثر . وبينما يروم الناس السماوات المشمِسات ، المشرقات ، الصافيات فإنها تنحاز لتلك الهائجات ، المتلبّدات ، المقطِّبات ، التي تسحّ سحّاً .

هذا صباحٌ جميل على أي حال ؛ تقول لنفسها من وراء نافذة بيتها التي فتحتها على أفق غير مبلول ، ونهار صحت فيه الشمسُ بعد غفوة طويلة . اليوم شمسٌ ووهمُ صيف وضياء ،

وغداً ماء وشتويّة أنيسة ، محمَّلة بالوعد . إذ تُنصت حوّا قليلاً ، تستطيع أن تسمع زقزقات مبتهجات ، وصخباً بشرياً في بيوت المخيّم التي تتثاءب فيها الحياة ، واصطكاك أرواح متململة ، وفيروز . «طيري يا طيّارة طيري ، يا وَرَق وخيطان ، بَدّي إرْجَعْ بِنْتِ صْغيرِة على سَطْحِ الجيران» . تصدح الأغنية في الراديو ، وقد توشّى صوت فيروز ببهجة نقية .

تبتسم حوّا في سرِّها . تحبُّ طيارة فيروز الورقيّة ، لكنها ، بكل تأكيد ، لا تريد أن ترجع بنتاً صغيرة .

(١)

الزقاق الجَعد يأخذ حوّا . وحوّا تستسلم له . لا تكاد تقطعه ، حتى تدخل زقاقاً ثانياً جَعداً ، أكثر انكماشاً ، فزقاقيْن آخريْن ليسا أقل تغضّناً . لكن حوّا لا تبدو محتاطةً في سيرها أو متحفِّظة . قدماها اللتان تنتعلان حذاءً أسود جلدياً ذا عنق غليظ مؤطَّر بشريط من الفرو البني الأشعث ، تنسابان في الطرقات بخفّة وآلية معتادتين .

تحفظ حوّا أزقّة مخيّم البقعة التي قلّما تنشقّ عنها مفاجآت . تصمّها عن ظهر قلب ؛ بجغرافيتها المتقشّفة ، الصّامدة ظاهرياً ؛ بأثلامها المكرَّسة ؛ ببثورها التي تخزِّن مياه الصرف القاتمة الّلزجة ؛ بدماملها الرمليّة التي لا تُنكأ إلا لتتشكّل ثانيةً ؛ بالحراشف الناشفة على أكفِّها المجرَّحة ؛ بالتهضُّبات الطينيّة الطريّة والمتيبِّسة ؛ ببقايا جبلات الإسمنت المُقسّاة عند حواشي البيوت ؛ بتجمُّعات الحصى والحصيم والحجارة العشوائية ؛ ببرك الماء المتجمِّعة من فضلات السماء والبيوت ؛ بالسيول الهزيلة التي تشقّ أخاديدَ ناحلة ؛ بفردة شبشب بلاستيك شبه مشطورة نائمة على بطنها ؛ بنعل صندل مقضوم الأصابع ؛ بأشلاء دمية نصف مدفونة ، يبين رأسها المزروع بخصلات شقراء خشنة وقد فُقِئت إحدى

عينيها ؛ بثمانية مربّعات لوحة حَجْلة مخطَّطة على بقعة صلعاء من الأرض ، أضلاعها المائلة وغير المستقيمة تماماً مرسومة بطلاء أزرق ثخين مهترئ . تقطع حوّا مربّعات الحجلة محاذرةً الدوس على الأضلاع ، مخلصةً لقواعد اللعبة . في خيالها ، الذي لا يزال نشطاً ، ترمي حجراً صابونيّ الشكل ، مصقول الوجهين ، فتوقعه برمية مدروسة في قلب أحد المربّعات ، دون أن يستقر فوق أيٍّ من الأضلاع الزرقاء الباهتة ، ودون أن يتجاوز الإطار الخارجي للحجلة .

هواء الصباح لاذع البرودة كان يصفق وجهها ، أو ما بان منه . غطّت أنفها المتجلّد بجزء من شالٍ ملفوف حول رقبتها ، محبوك من الصوف العسليّ بقرنفلات سكريّة منثورة عليه ، مشغولة بصنارة عريضة . استعاضت عن إيشارب الرأس القطني بشال آخر من الصوف الناعم ، مُطعَّم بالبوليستر ، ملوّن بأطياف متداخلة من البيج والقرميدي والكاكاوي ، أحكمت لفّه حول شعرها وأذنيها . ظل الهواء ، مع ذلك ، يهمس صقيعه عبر مسامات الإيشارب في أذنيها . ضيّقت كتفيها وضمّتهُما إلى صدرها . «برد يقصّ المسمار!» استعادت مقولة والدها البعيدة ، وهي تُحكِم إغلاق الزرّ العلوي من المعطف الأسود الذي عانق جسدها .

***

- أبو لطفي! يا أبو لطفي!

صوت أجشّ ينادي على والدها بعد الفجر، مقروناً بطرْق غليظ على باب بيتهم الحديديّ، تقشعرّ معه الحيطان، فيتحدَّبون في فُرُشهم، موارين رؤوسهم المترقِّبة، تحت بطانيّاتهم الثقيلة، التي تتصاعد منها رائحة الرطوبة والكاز والبرد المخزَّن في الأجساد المنكتِمة.

والدها موسى، الذي يعمل بنّاء، يكره أيّام الشتاء ويكره أيّام المطر. وأهل بيته أيضاً يكرهون الشتاء ويكرهون المطر ويكرهون الأب خلالهما، كما يكرهونه قبل الشتاء وبعده. في شتاءات كثيرة، كما في مواسم كثيرة، حين تنغز والدتها رابعة جانب ظهره الهائل بحذر، تهيج حواسه دفعةً واحدة مُحمحماً، فتتراجع إلى الوراء وجِلةً، فيما ينقلب على كامل ظهره فارشاً جسده فوق معظم مساحة السرير المعدني. تعود فتهزّ كتفه قليلاً براحة يدها المتقلِّصة، فيرفع ذراعه المستطيلة التي تنتهي بكفٍ عريضة متورِّمة ناحية وجهها، فتتحاشاه مبتعدة. ينهضُ، جامعاً بدنه المرَخرَخ، فيرتجّ إطار السرير المعدني بعنف، ممزقاً بصليله سكون العتمة. يجلس على طرف السرير، كتلةً من صهير، تبقبقُ داخل فوهة بركان. يبحث بباطن قدميه الخشنتين عن شبشبه بالقرب من السرير، فيدفع إحدى الفردتين، بطريق الخطأ أو نزقاً، أسفل السرير؛ «يِفْضح عرضِكْ على هالصُّبح!» يسدِّد نحو رابعة عينيه نصف المغلقتين بستارتي جفنيه الثقيلتَيْن، فتنبطح على الأرض، وتجهد في

حشْر نصف جسمها تحت السرير ، ماطّةً ذراعها الغليظة أقصى ما يمكن ، ملتقطةً فردة الشبشب المنزاحة ؛ قبل أن ترشدَ كعبي قدميه المتحجرتيْن ، بيديها ، إلى فردتي الشبشب . ينهض دائخاً ، بملامح وجهه مستنفِرة ، يسير إلى الحمام ، يسبقه سعاله المتواصل المشوب بخنخنة وغرغرة من أثر بلغم داكن مستوطن في حنجرته . بصاقه الطالع من بئر حنجرته الغميقة يشقّ بضجيجه فضاء الحمّام . من تحت عقب باب الحمام تخرج سحابة ثقيلة من رائحة الشخاخ المدكّن ، مصحوبة بصوت غليظ من خيط طويل ، سميك ، من البول يكاد يخرق أرضية جورة المرحاض .

تكسر شقيقتها الكبرى عفاف أربع بيضات في المقلاة الألومنيوم مسودّة القاع ، فتقبض حماوة زيت الزيتون على القوام اللزج للبيض ، لتلمع أربع شموس في قلب محيط أبيض مزبد ، فيما يهدج الماء في إبريق الشاي المعدني ، بطلاء المينا الأزرق الذي تقشّرت بعض جوانبه ، فتلقمه بملعقتي شاي ، وست ملاعق سكر . ما إن تنقشع صفرة البيض وتهدأ رغوة بياضه ، حتى تطفئ عين الغاز في الموقد الثلاثي العيون تحت المقلاة ، كما تطفئ عين الغاز الثانية تحت إبريق الشاي ، الذي تقلّب ماؤه المُثخَن بورق الشاي والسكّر مرات كثيرة ، وتتركه ليتخمّر . تلفّ يد المقلاة الساخنة بقطعة بشكير وتهرول بها مسرعة ، نازلةً درجة المطبخ المرتفعة نسبياً ، إلى غرفة المعيشة الصغيرة ، التي صاغها موسى بقضم جزء من مدخل البيت

وإحدى غرفتيه بعدما تضاعفت خِلْفته ، ليسخّرها لكل أغراض العيْش ، كغرفة نوم ، وغرفة للأكل ، وغرفة انطراح أمام التلفزيون . تضع عفاف المقلاة فوق منتصف الطبلية ، ثم تَلحقها حوّا بصينية عليها إبريق الشاي وقد لُفَّت ذراعه بخرقة مدعوكة من بقايا فانيلة قطنية مهترئة ، وكؤوس زجاجية مضلعة ، وصحن جبنة نابلسية ، وصحن زيتون أخضر ، وصحن فيه حبتا بندورة مشرَّحتان إلى حزوز ، وصحنا زيت وزعتر ، توزِّعها على الطبلية .

ساجدة ، شقيقتها الوسطى ، تطوي الفُرُش المفرودة في زوايا الغرفة التي تنام فيها البنات ، ما عدا فراش ضحى ، صغراهن . ترفع الطفلة ذات البنية المتضائلة ساقيها القصبيّتيْن إلى صفحة بطنها الممسوح ، متكوِّرةً تحت البطانية التي طُويت فوقها مرتين . جسدها ، كما روحها منكمشان ، يهجع فيهما أمان لا تشوبه زعزعة ، على الأقل في تلك اللحظة . لم تمتطّ غصون ضحى كفاية كي تنضم إلى مشقّة العيش اليومي . وعلى الأرجح ألا يورق لحمها الأنثوي على غرار شقيقاتها ، أو على أفضل تقدير لن تشبهها هي ، حوّا تحديداً .

كانت حوّا ، التي تصغر عفاف وساجدة ، الأضخم بنيةً بين البنات ، وبطريقة ما الأكثر امرأةً . كانوا مقتنعين بأنها تتضخّم كل يوم . ويوم بالت سيلاً من دماء داكنة ، رسمت خطاً عريضاً فوق فخذها البيضاء نزولاً إلى بطّتها المكتنزة فكاحلها المستدق ، ارتعبت والدتها . ساقتها إلى طبيب الوحدة

الصحية في المخيم . فأكد لها ما خشيته . لكنها صغيرة ، صغيرة جداً ؛ قالت للطبيب . «شو ها المصيبة يا ربّي!» ظلّت تردِّد لنفسها وهي تجرجر قلبها المتثاقل في الطريق . أوقفتها حوّا عند عربة لبيع البوظة المثلجة . «يمّه! اشْتريلي أَسْكِمو» ؛ تطلّعت رابعة فيها ، لثوان ، مشفقة . ثم انقلبت نظرات الإشفاق إلى غضب حام ، فورَّ الدم في أطرافها ، فكوَّرت يدها المرتجفة وضربتها في كُتفها بغلّ ، فاختلّ توازن حوّا حتى كادت تقع . وقبل أن تصلا البيت ، انتحت الأم بصغيرتها في جانب من زقاق خال إلا من بضع ذبابات تحوم فوق كيس قمامة مبْقور تدلّت منه كُتل رز وبندورة لزجة محمّضة وورق قرنبيط ذابل وكزبرة مصفرَّة وقشور بصل ، ثم انحنت فوق وجهها محذِّرة : «إياكِ حدا يِعْرفْ إنّو الدم نِزِل عليكِ . . فاهْمة!» كانت حوّا تبكي حبّة الأسْكِمو التي لم تتحقّق . شفتاها اللتان لم تتلطّخا بصبغة البوظة الدموية انتفختا من مزيج الدموع والمخاط . كانت ابنة الثامنة تعرف تماماً سبب بكائها الحار . لكنها لم تفهم لماذا كانت الدموع تسحّ من عيني أمّها بغزارة مصحوبة بشهيق مكبوت .

تبدو ضحى غاطّة في نوم عميق . طرف إبهامها المكرمش ، بظفره شبه الذائب ، من مصّها المتواصل له ، يرتاح عند طرف فمها . صوت تنفُّسها المنتظم يأخذ شكل نغمة مستقرّة ، منسابة ، يشعّ دفئاً عابراً في أوصال الغرفة . تشعل حوّا صوبة الكاز في المطبخ . تراقب طاسة اللهب تتعمَّر بالنار . تُقرِّب

يديها من جسم الصوبة المعدني، تحاول أن تخزِّن في جسمها بعض حماوة. لكن كل ما يدخل جسمها هو رائحة الكاز المتحشرِجة عند بحّة الاشتعال الأولى، وهي رائحة تظلّ تلازمها طوال النهار. تحمل الصوبة بالسائل المحترِق يرتجّ في بطنها نصف الممتلئ من ذراعها المعدنية النحيلة وتمشي بها نحو غرفة المعيشة بتوازن صعب، متفاديةً الميل بها إلى أحد الجانبين. شقيقاها لطفي وعايد ينامان على فرشتين متلاصقتين في إحدى الزوايا. تضع الصوبة بالقرب من الطبلية، فتتوهّج طاسة اللهب حُمرةً. «لطفي! يا لطفي!» تدفع شقيقها الأكبر من كتفه، فيفتح الصغير عايد عينيه بتوجُّس. تتبادل وإياه نظرة تواطؤ، فيواصل النوم أو ادعاءه، متكوِّماً في مكانه فيما ترفع البطانية تغطّي بها نصف رأسه الحليق بجرح أعلى جبينه مخيط حديثاً. «لطفي! قوم افطر!».

سعال والدها يرتفع بتواتر، إذ يشقّ المسافة القصيرة من الحمام إلى الطبليّة. يجلس على طرّاحة مخصّصة له في الأماسي الطويلة المتطلّبة، وفي نهارات البطالة أو التبطُّل المُقلِقة والمُجهِدة لأهل بيته، التي يقضيها في البيت. تجلس والدتها إلى جواره بمسافة فاصلة كافية تسمح له بنشر نزقه دون إعاقة. تُناوله رغيف خبز، يشطره إلى نصفين، قبل أن يصيح على لطفي بصوته البلغميّ: «فِزْ يا لطفي!» فيهبُّ لطفي واقفاً فيما يتقلّص عايد تحت بطانيته الثقيلة، ليتوارى رأسه إبريُّ الشعر تحت البطانية تماماً.

بقطعة خبز عريضة مطوية ، يبقر موسى إحدى شموس البيض الحُبلى في المقلاة ليجرف بيضةً كاملة ويزدردها . تصبّ عفاف الشاي له في كأس زجاجية سميكة ، ثم تدلقه في الإبريق ، لتعود فتسكبه ثانية ، وقد ثقل ماؤه وتغمّقت حُمرته . بخار الشاي المتخمّر يعلق في فضاء الغرفة ، فيطمس رائحة صنّة مبيّتة . تمدّ رابعة يدها إلى صحن البندورة تسحب حزّاً بسرعة كأنها تختلسه ، تتبعه بقطعة خبز صغيرة مغموسة بالزيت والزعتر ، تمضغها على مهل . يدير موسى بصره إلى حيث يجثو عايد . يسحب رشفةً طويلةً متحفّزة من الشاي . ينادي على حوّا التي تساعد ساجدة في طيّ فراش لطفي الثقيل . تحشر حوّا بطانيته الثقيلة في خزانة معدنية مخصصة للّحف والبطانيات . يعلو صوت والدها على صوت قرقعة بابي الخزانة ، فيما تضغط على البابين المتحدّبين بجسدها الفتيّ كي ينغلقا على الفُرش المكدّسة .

ـ يا حوّا! تْفقّدي عايد!

ترسل حوّا نظرة رجاء إلى ساجدة . تغطي ساجدة نصف وجهها بوسادتي لطفي ، وتسرع بهما إلى الغرفة الأخرى . تستسلم حوّا لاستحقاق الصباح البارد أكثر من المعتاد . لقمة خبز حاف تظل معلّقةً بين أصابع والدتها ، التي تعانقها من بعيد بنظرة من مزيج خشية وإشفاق . تنحني حوّا فوق عايد الذي يتّخذ وضعيّة جثّة ملقاة في موضعها صدفة . تدسّ يدها تحت بطانيته وتجس أجزاء من جسده بحركة توحي بتقصٍّ

متأنٍّ . تسحب يدها من تحت البطانية ، وتتطلّع نصف تطليعة في عيني والدها :

ـ ناشف!

ينهض موسى من على الأرض ، كزنبرك أفلت فجأة . تمدّ رابعة ذراعها القصيرة نحوه لتثنيه :

- كمّل فطورك!

ينفض ذراعها جانباً ، ويمشي إلى فرشة عايد . بطرف قدمه الحافية ، يزيح البطانية الثقيلة المفرودة فوق بدن فتاه المنكمش . يطوي عايد ساقيه ، فيما تتقلّص عيناه المغلقتان . يدسّ موسى باطن قدمه العريضة المتشققة بين ساقي صغيره ، مستشعراً الرطوبة الباردة أسفل بطنه ، معايناً بأطراف أصابعه بقعة الشخاخ التي تنتصف الفرشة . تشقّ صرخته صباح البيت المترقب :

- يا عفاف! القشاط!

تتكىء رابعة على نصف ركبة محاولة الوقوف . ينهاها بحزم :

- خلّيكِ مكانك!

تعود رابعة فتتربّع في مكانها ، تضغط بيديها المكوّرتين على ساقيها اللتين يسري فيهما خدر ووهن . رجفة هائلة تمرق في جسد عايد . يحاول أن يجمع أطراف جسده المشتّتة إليه ، علّه يقلل مساحة لحمه المفرودة أمام الألم ، رافعاً ذراعيه الناحلتين إلى وجهه . تهمّ حوّا بتغطية شقيقها بالبطانية ثانية ،

فيدفشها والدها من خاصرتها بقدمه الصخرية الثقيلة ويوقعها فوقه . ترجوه رابعة أن يفلتهما هذا الصباح ، لكن ضربات القشاط السريعة المتلاحقة تقع على حوّا وعايد بالتناوب أو معاً . تحاول حوّا أن تغمر جسد عايد المتقشِّف بجسدها اللحيم ، الذي تتبدّى لدونته تحت جلابية النوم ، فتنزل ضربات القشاط المتطايرة في الهواء على خاصرتيها وظهرها وأعلى ذراعيها ، لتطلع منها مع كل سلْخة آهةً طويلة كأنها تسحبها من وجع عميق ، تتقاطع مع صرخات عايد التي ترتطم بسقف الغرفة . يجحرها والدها قائلاً :

– هصْ! بديش أسمع صُوت .

تهمّ رابعة بالنهوض ثانية . يسدِّد موسى نظرةً تحذيريةً رادعة لها ، قبل أن يلفّ جزءاً من القشاط حول أربع من أصابع يده لينهال به مجدداً على بدنيهما الملتحميْن . تضع حوّا يدها المضمومة فوق فمها ، وتضغط بقوة ، لتُخمِد آهاتها وسط انتفاضة جسدها بعنف . يدفن عايد رأسه بين ذراعيه تماماً ، زامّاً فمه على صرخات مقموعة تأخذ هيئة أنين ممطوط عند كل ضربة تغافل حوّا لتصيب ساقيه وظهره ، فيما تمسح رابعة وجهها المحموم ، إذ يغشى الوجع جسدها ، مع كلّ لسعة من لسعات القشاط تلمع على لحمي صغيريها .

حين يكتفي موسى منهما أخيراً ، يعود إلى كأس الشاي المتخمِّرة التي تنتظره . يعبّ ما تبقّى منها وقوفاً . يتفقّد باكيت سجائره الفارغ . يجعِّده ويرميه على الطبلية . عيناه تتابعان

لطفي الذي يتعمّد الخروج من الحمام بعد انتهاء طقْس القشاط الصباحي ، ليقتعد طرف الطرّاحة ، يمسح ما تبقّى من البيض في المقلاة . يحاصر بِكْرَه ببصره إلى أن تلتقي نظراتهما . يسأله :

- هاتلك سيجارة!

ينقع لطفي قطعة خبز عريضة بالزيت ثم يغمسها بالزعتر ، ويأكلها على مهل ، يتبعها بحبّة زيتون ينزع لحمها الريان في فمه قبل أن يلقي نواتها على الطبلية . تسكب رابعة له ولنفسها الشاي الذي تستقرّ حمرته . يحاول أن يتفادى عيني والده وهو يمدّ يده إلى آخر حزّ بندورة ، قائلاً :

- مامعاييشْ!

تفرد حوّا البطانية فوق عايد ، الذي يتواصل أنينه المكتوم . تتكوّم إلى جواره ، تحتضن صدرها ، وتبكي ؛ فتلسع الدموع وجنتيها المتورّدتين . يستحثّ والدها بلغماً عالقاً في قعر حنجرته ، يستدعيه بشخرة وخرخرة صاخبتين ، ويبصقه في أصيص صغير يجلس على رفّ نافذة الغرفة المغلقة ؛ كانت به فيما مضي نبتة خضراء قزمة ، استحالت غصيناً خشبياً جافاً مغروساً وسط عجينة غامقة من الطين مزروعة فيها أعقاب سجائر . يدني رأسه قريباً من وجه لطفي ، الذي تتباطأ اللقمة في فمه ، ويقول له غامزاً :

- فتِّش في جراباتك . يمكن تلاقي سيجارة أو ثنْتينْ!

يفرد لطفي ساقه ، ويُخرج من عنق جوربه باكيت سجائره

الجولدستار المخبّأ في جانب قدمه ، فوق الكاحل بقليل . ينتزع موسى الباكيت ويسحب خمس سيجارات ، يصفُّها في باكيت سجائره الريم الفارغ ، ويرمي له باكيته ثانية ، ثم يسأله :

- والفلوس؟!

يكتم لطفي غيظه حين يستعيد باكيته ، عادّاً ما تبقّى فيه من سجائر . ينظر إلى والدته ، التي تفرد ياقة جلابيتها بأصابعها ، ثم ينزل بصره إلى الأرض . يسحب رشفة شاي ، يتبعها برشفة أخرى . ثم يجيبه دون أن يرفع عينيه فيه أو فيها :

- إمبارح أعطيت أمي خمس ليرات .

تزيح رابعة ياقة جلابيتها جانباً مستسلمة لنظرته الآمرة . تغرس يدها في صدرها ، وتنتزع الورقة المطوية التي لم تتشبّع كفاية برطوبة إحدى حشيتيها العامرتين . تشعر بفقد وبفراغ في قلبها . تسلّمه الفلوس وتقضم كسرة خبز ناشفة ، من بين الكسرات والفتافيت التي تجمعها من على الطبلية .

يحتاجون إلى وقت قبل أن يستوعبوا أنه غادر أخيراً ؛ وأن هواء البيت خلا من صوته ورائحته ، وأن الإحساس اللزج المترافق مع وجوده تبدّد أو على الأقل رقّ . يجثم الترقّب على أكتفاهم وهم يتابعون الدقائق الأخيرة من انتفائه من يومهم ، إذ ينتعل حذاءه الجلدي البني المحروق ذا النعل الجنزيريّ والعنق المبطن بالجوخ الموبّر ، ويرتدي جاكيته الفوتيك الثقيل مع قبعة جلدية سوداء مبطّنة بالفرو الصناعي بأذنين عريضتين تتدليان من الجانبين تغطيان أذنيه ، فيبدو في مشيته المتحفّزة ككلب

صيد . يفتح باب البيت ؛ يقف على العتبة التي تفصلها عن الزقاق ثلاث درجات جانبية ؛ يشعل سيجارة ؛ يستبطئ دخانها في رئته قبل أن يزفره ؛ يرفع ياقة الجاكيت فتغطي ذقنه ؛ ويمضي . حين يبتلعه الطريق ، يدبّ عيشٌ آخر في البيت ، عيش أكثر احتمالاً .

في المطبخ ، تضغط ساجدة ذراع البابور عدة مرات لدفع الهواء ، حتى إذا اشتعلت النار صمّ نعيبها آذان الصباح . تملأ حوّا دلو الألمنيوم الأسطواني الطويل بالماء من حنفية الحمام وتحمله إلى المطبخ ؛ تبذل جهداً بالغاً في مشيتها البطريركية المنفرجة كي لا يميل الدلو إلى أي من الجانبين . ذراعاها المعضّلتان تمسكان أذني الدلو بإحكام . سلخات القشاط التي علّمت على ظهرها وذراعيها تومض ألماً ، يخفّ ويشتدّ حسب حركة الماء الثقيلة في الدلو . ترفع الدلو المعدني بكل قوة تستدعيها في جسدها وتثبته فوق شبك البابور لتفترش دائرة اللهب الناعق قاعه . حين يغلي الماء ، تطفئ حوّا البابور ، وتلفّ قطعتي قماش حول أذني الدلو لتحمله ، ببطء وثقل أكبر هذه المرة ، إلى الحمام . تحاذر الميلان ، لكن بضع قطرات ماء ساخنة ، مع الخضخضة الخفيفة أثناء مشيها ، تلسع يديها ، فتبتلع وجع الاحتراق . يجلس عايد على مقعد الحمام الخشبي الواطئ محتضناً كيانه الراجف بذراعيه . تضع حوّا الدلو على أرضية الحمام الباردة . «بردان!» يقول لها عايد ، فتأخذه بين ذراعيها . يصرخ من حماوة سياط القشاط التي تلمع في

ذراعيه . تدلّك حوّا كتفيه وظهره ، حتى إذا دبّت بعض الحرارة في لحمه الرقيق شلّحته بيجامته المنقوعة بالشخاخ البارد . بخار الماء المتصاعد من الدلو يشكّل سحابة دخانية دافئة . تخلع حوّا جلابيتها التي ترتديها فوق بلوزة قطنية بيضاء نصف كم وبنطلون كحلي من قماش الكوردروي الرخيص المختلط بالبوليستر ، الذي يمتطّ على نحو يتيح لمؤخّرتها ذات الاستدارة البارزة وفخذيها اللاحميْن بالتمدّد براحة . تثني بنطلونها عدة طيات إلى ما دون الركبة بقليل . تملأ طشتاً حتى ثلاثة أرباعه بماء بارد من الحنفية ، ثم تضيف له من الدلو ما يكفي من الماء الساخن كي يكون محتملاً . تقيس درجة حرارة الماء بكوعها . تصب الماء الدافئ على كتفي عايد ، فيكشّ هيكله للحظات ، قبل أن يألف لحمه طراوة الماء والصابون . تفرك حوّا شعره الإبري بالصابونة النابلسية ، ثم تدعك ظهره وبطنه وذراعيه وساقيه القصبية بالليفة التي غمرتها رغوة الصابون . يئن في المطارح التي تهيّج فيها الليفة لسعات القشاط ، لكنه لا يلبث أن يستسلم لذاك الشعور بالرخاوة ، وشيء من الاطمئنان الذي يأتي بعد ألم كبير .

في الحادية عشرة من عمرها ، كانت حوّا امرأةً ناهضةً ، ملآنةً ، بجسدٍ مكتمل الإثمار ذي لحم بيِّن ، طيِّع ، منفلِش ولكن متماسكٍ في الوقت عينه . كانت تكبر عايد بثلاث سنوات فقط ، ومع ذلك كانت تبدو كأنها أمه . كان عايد ضامراً ، فأريّ القوام ، منكّس البنية ، بهيكلٍ متقوقع وأطراف

تميل إلى التحدُّب في النوم والجلوس ، ما جعله يبدو كأنه مذعور طوال الوقت . وليس من المعروف إنْ كان جسده تطبّع بخوفه أو أن خوفه صيغ في المنشأ من طبيعة جسده فأحنى روحه . أياً ما كان عليه الأمر ، فإن عايد كان يفزع من أي شيء ومن كل شيء ؛ من المطر العنيف المقترن برعدٍ وبرقٍ غاضبيْن ؛ من عتمة الليل في الشارع قابضاً على كفّ والدته بقوة ، معجِّلاً في خطوه ليهرب من أقدام متخيَّلة تلحق به ؛ من عتمة الليل في البيت حين كانت رابعة تنهض في الليالي الساكنات الداكنات تتلّمس طريقها في الظلمة ، تشبه الغولة التي تأكل الأولاد وتمصمص عظامهم كما في الحكايات التي كانت عفاف ترويها له ولضحى ؛ من هيئة أبيه عند عودته إلى البيت آخر النهار ؛ من وجه أبيه ملتفتاً نحوه ؛ من عيني أبيه تخرقان عينيه ، ومن صوت أبيه يناديه :

ـ يا ولد!

ينقز عايد في مكانه ، لكنه يحرص بأن يردّ :

– نعم يابا!

في الأيام التي يكون فيها البرد أشدّ والشخاخ أغزر ، مع انتقاع ملابسه على نحو شبه كامل بالبلل ، تحمله حوّا إلى الحمام ، فيستلقي بين ذراعيها كطفل رضيع ، يلصق وجهه بصدرها العارم ، فتغمره رائحة لحمها الصباحي ، ويستشعر سلاماً في حضنها .

كانت حوّا تكبر كل يوم وكل ساعة . كانت تسبق عفاف

وساجدة ، وكانت ضحى إلى جانبها كأنها تضؤل بتسارع ، وهو أمر جعل رابعة تجزع خاصة حين نبق ثديا حوّا بومليّتين في شهوة الشتاء الأولى ؛ فقصّت قماشة طولها متران وعرضها نصف متر ، أحكمت لفّها ، كقماط ، حول صدرها ، حتى كادت تسطّحه تماماً . قالت لها حوّا إنها لا تستطيع أن تتنفس ، فأخبرتها رابعة أنها تستطيع أن تفكّ القماط حين تنام . في الليل ، حين تستلقي على فراشها قرب شقيقاتها ، كانت حوّا تفرد جسدها دون حذر ، ودون أن تحتاط من العتمة واحتمالاتها ، فتورق كل ثنياتها المطوية بعضها في النهار ، وتصبح امرأة .

في النهار ، كان لحمُ حوّا «يشيل» ويتحمّل ما لا تتحمّله شقيقاتها أو حتى والدتها ؛ فاستُثمرت بنيتها القوية المتينة في كل أغراض السخرة . كانت حوّا تحمل فراش عايد الثقيل المنقوع بالشخاخ على كتفها ، وتطلع به إلى السطح عن طريق طبقتين من الدرجات الإسمنتية التي تشقّ إحدى خواصر المطبخ . كانت الدرجات غير مستوية وغير متساوية في حجمها ، كما تكسرت – مع الوقت – حواف بعضها ، ما جعلها تنطوي على خطر متربِّص . ذات يوم ، تعثّرت قدمها عند إحدى الدرجات العليا في الطبقة الأولى ، وكانت تحمل طشت غسيل ، فتدحدلت مع الطشت إلى الخلف على ظهرها ، حتى بلغت أسفل سلم الدَّرَج . للحظات ، لم تقوَ على النهوض . عيناها ظلتا تتأمّلان سقف المطبخ . تجمعت والدتها

وشقيقاتها حولها فزِعات . لكن حوّا دفعت جسدها الملقى إلى أعلى ونهضت واقفة ، كأنها لم تقع من الأساس ، لملمت قطع الغسيل المتناثرة ، وطلعت إلى السطح ثانية لتنشرها ، ثم نزلت وطوت فرشة عايد ولحافه ، وحملتهما على ظهرها ، وطلعت بهما إلى السطح .

بكى عايد يوم تزوجت حوّا . كان لا يزال يشخّ على نفسه في ليالي شتوية كثيرة ، كما في بعض الليالي الصيفية . أدرك أن جسد حوّا هائل الصلابة لن يكون حاضراً في الصباح ، ليغطّي معظم جسمه ، فيتلقّى عنه القسم الأكبر من لسعات القشاط .

***

تقطع حوّا طرقات المخيم الضيقة ، التي تتبادل وإيّاها معرفةً وثيقةً ، حميمية في أجزاء منها . حوائط البيوت الموقّعة بالبؤس والضنك والاكتظاظ وكتابات الزمن غير البليغة ، غير الحصيفة ، تنزّ رائحة حياة مغلوبة ، وبشر متعبين ، استسلموا لتصاريف أيامهم . تتجنّب حوّا قدر ما تستطيع السير في الأزقة الأضيق من غيرها ، التي تترنّح فيها روائح التعب والقهر وبخار زيت القلي المنهك من الاستخدام المتكرر . تحبّ تلك العريضة التي تستقبل الشمس والهواء والسماء ببحبوحة أكبر .

بصفين من الأزرار العريضة المتوازية من منطقة الصدر نزولاً

حتى منتصف منطقة الحوض ، يُبرز معطفها الطويل الذي يصل حتى أعلى كاحليها ، والذي ينساب من منطقة الردفين في تنورة عريضة ، تماسك قوامها وصنفرة خصرها واتساق توزيع اللحم والشحم في جسدها الأربعيني ضمن امتلاءات متوهِّجة في أماكن بعينها . من تحت المعطف تبين حاشية فستانها الرصاصيّ . وحين يلطش الهواء قامتها الفارعة ، تطير تنورة المعطف المشقوقة من الظهر محلِّقة على الجانبين فتشتعل الورود الحمراء الصغيرة الفاقعة المنثورة على فستانها ذي المسحة الفضية الخافتة . ترفع حوّا عينيها إلى الشمس اليانعة ، بالغة الصفرة ، المطبوعة في بطن السماء بالغة الزرقة . نور الشمس العميم الذي يفيض في جنبات المخيم تجمّدت الحرارة فيه . تبدو الشمس كأنها رسمة ساكنة ، صامتة تماماً ، فيما يعربد الهواء الثلجي في الطرقات ، يضرب الأبدان بعنف .

تدفن حوّا إحدى يديها المطرَّيتَيْن بالفازلين في جيب معطفها ، وتمسك بالأخرى حقيبة يد جلدية سوداء وكيس بلاستيك أخضر سميكاً محكم الإغلاق ، يحمل اسم أحد محال بيع الأحذية . تسمع صوت خبط قوي ومتتالٍ . ترفع رأسها إلى أعلى ، جهة مصدر الصوت ، فترى أم سعيد ، تضرب سجادة مزدحمة الألوان مدلاة من حائط سطح بيتها ، بعصاة طويلة تنتهي بقرص من الخيزران المشبَّك .

- يصبحك بالخير يا أم قيس!

- صباح الخير يا أم سعيد!

تلفّ أم سعيد رأسها بشال برتقالي من الصوف . تشكو لحوّا ، وهي تواصل نفض السجادة الرطبة ، أيام المطر الغزيرة الفائتة . تنشّعت السقوف والأرضيات وابتلت السجادات ، وفاضت المجاري ، وأتى العفن على أهل البيت .

- طلعت روحنا يا أم قيس!

ترفع حوّا رأسها إلى أعلى وتبتسم مثنيَةً على كلامها .

تتشكّى أم سعيد من أشياء كثيرة أخرى لا علاقة لها بأيام المطر ، ولكن تُحال عليها أو تضاف إليها ؛ فقد تعطّل باص أبو سعيد الذي ينقل به بضاعة للمقاصف المدرسية ، وخربت الغسالة في أحرج الأوقات ، وزوجة ابنها سعيد حردانة عند أهلها منذ شهر . ثم تخفّض رأسها كأنها تريد أن تهمس في أذن حوّا من فوق . تقول لها بصوت مغلّف بالغيظ وقلة الحيلة إن شقيقة زوجها في ضيافتهم منذ أكثر من أسبوع . جاءت من الضفة الغربية مع أربعة من أبنائها . تمطّ أم سعيد رقبتها إلى أعلى وتضغط عليها بكفّها في إشارة دالّة ، قائلة :

- الواحد يا خَيْتي رَحْ يِختنق!

تصبّرها حوّا :

- الله يكون في عون الجميع .

تمضي حوّا مستسلمةً للصباح الكانونيّ المؤمّل . في نقطة عميقة في داخلها تشعر بالغبطة ، كما تشعر أنها تحبّ هذا الصباح الشتوي دونما حاجة إلى سبب للحب . تمسح ببصرها أبواب البيوت الحديديّة المطلية بألوان فطرية رخيصة ، صاخبة ،

تكسر رتابةَ المحيط الأشيب للجدران والطرقات: أخضر بعنفوان الملوخية في أول قطفتها مع تكحيل كريمي، وأصفر خردلي بإطار أسود كبرواز، وأحمر صدئي بتشبيك مشمشي اللون لطاقتين صغيرتين أعلى الباب، وأزرق سماوي بنقش أرابيسكي فستقي، وعسلي بحواف مذهبة بفجاجة تليق بالقحط الجمالي في المكان. تتأمّل حوّا الشبابيك التي انشقت جزئياً بما يسمح لرحيق النهار بالتسلل إلى الحجرات التي لا تزال تنفض رخاوة النوم؛ يمرّ بصرها فوق خرائط فلسطين العشوائية المرسومة ببخاخ لوني أحمر كبقع دم مرشومة على الحوائط، وعبارات «عاشت فلسطين»، و«غزة تقاوم»، تجاور رسوم قلوب حبّ متفاوتة الأحجام والألوان بأسهم، بعضها مطعوج، تخترقها. تتردّد في رأسها فيروزية أثيرة، تسمعها بوضوح: «أنا لَحَبيبي وحبيبي إِلي.. يا عَصْفورة بَيْضا لا بْقَى تِسْألي، لا يِعْتب حَدا ولا يِزْعَل حدا، أنا لحبيبي وحبيبي إلي». تتبعها من خلفها خطوات سريعة. تقترب منها كثيراً. تجفل. تنظر جانبياً، يمرّ بمحاذاتها رجلٌ ستيني، خفيض الوجه والبصر، يحمل كيس نايلون أبيض نصف شفاف به خبز. تُسكِت الأغنية التي تدور في رأسها. حين يبتعد الستيني بخطواته مسافة كافية، تعود فتدير فيروزيتها؛ فتشتعل الأغنية في روحها من جديد. «حبيبي نَدَهْلي، قَلّي الشِتي راح، رِجْعِت اليمامة، زَهَّر التِّفاح...».

يتقاطع دفق الأغنية في رأسها مع رجّة موبايلها تعلن

وصول رسالة في صندوق بريدها . تتباطأ في مشيها . تضع يدها في جيب معطفها ، وتقبض على موبايلها بحرص . تعلو الحرارة وجهها . تتوقّف قليلاً لتحتوي الرجفة الخفيفة التي تسير في جسدها . وتيرة الرجفة دائماً هي ، هي . وهي ليست مزعجة . في الحقيقة ، تكون الرجفة مثيرة وممتعة ، وفي أحيان كثيرة يرافقها بعض التعرّق ، حتى إنها تتعمّد أن تتأخر في فضّ الرسالة ، مستبقيةً الرجفة وآثارها في جسدها أطول وقت ممكن .

«يسعد صباحك» . تقرأ حوّا الرسالة . تمسح شاشة الموبايل الملطخة ببصماتها . تعانق الكلمتين ثانية . تغلق صندوق الرسائل ، وتعيد موبايلها إلى دفء جيب معطفها . تمسح رقبتها المتعرِّقة ، من بقايا الرجفة ، من تحت الإيشارب ، فتلفحها نفحة هواء باردة . ترفع ياقة معطفها ، تغطي عنقها ، وتمشي .

«ونَدَهْلي حبيبي جِيت بْلا سؤال ، من نَوْمي سَرقْني ، من راحة البالْ ، وأنا على دَرْبو ، ودَرْبو عالـْجَمال ، يا شَمسِ المحبَّة ، حْكايِتْنا اغْزِلي . . .»

في الطريق ، تسطع في ذهنها خاطرة ، لا تعطّل انسيابية الأغنية في روحها ؛ خاطرة صافية ، صفاء الشمس والسماء الزرقاء وهذا الصباح النقي : كم هي الحياة جميلة! جميلة جداً أحياناً .

(٢)

تصعد حوّا الحافلة الصغيرة المتجهة من مخيم البقعة إلى صويلح . ترفع أطراف معطفها وفستانها عن أرضية الحافلة الموشومة بالقاذورات والتراب المترسّب من الأحذية ، وتحتلّ مقعداً مفرداً بجوار النافذة . ترصُّ ذيل معطفها وفستانها ما بين ساقيها ، وتضع الحقيبة والكيس على حضنها . تشقّ النافذة المغلقة كي تسمح بدخول بعض الهواء الطري لامتصاص بعض العطن المزمن ، الناجم عن تعاقب بشري بائس ، وشحّ ماء وصابون ، ومقاعد جلدية مخسَّفَة .

تتأخّر الحافلة قبل أن تمتلئ بالأبدان المرهرطة ، والمعشّقَة بالبرودة . بعض الوجوه معتمة من أثر إعتام السماء طول أيام المطر الفائتة ، يُضاف إليها الوجود النكد لأصحابها عموماً ، كسبب أكثر من كافٍ لعتمة الوجه والروح . يعتلي الركاب الحافلة بأجسادٍ مطأطِئة ، منحشرين ، بصعوبة في المقاعد الضيقة ، التي تزداد ضيقاً مع أجسادهم المتضخّمة من المعاطف الثقيلة والجاكيتات المبطّنة بلبادات وحشوات متكتِّلة . تنطلق الحافلة أخيراً ، بعد جدل عقيم بين «الكونترول» وستينية تجلس على الجهة الخارجية من مقعد مزدوجٍ يتسع لراكبين ، تُجلس بجانبها في ممشى الحافلة الضيق شوالاً أزرق من قماشة خيش

مـشـمَّـعـة . يطلب منهـا «الكونتـرول» أن تضع الشـوال على الكرسي بجـوارها ، لكن السـتـينيـة ترفض كي لا تدفع ثمن راكبين . ينتهي الجدال أخيراً لصالح الستينية . يمدّ شاب نحيل ساقيه من فوق الشوال الضخم للجلوس على الكرسي الداخلي من المقـعـد المزدوج . مـلابس الشـاب العـصـرية ، غيـر المكلفـة بالضرورة ، وشعـره المسحوب إلى الخلف والمثبَّت بالجِل ، ورائحة العطر النفّاذة ، وحقيبة الظهر من قماش الجينز التي تتدلى من كـتـفـه ، تشـيـر إلى أنه طالب جـامـعي . طول الطريق ، يتـقـافـز الركاب الخارجون من الحافلة والداخلون إليـها فوق الشوال ، أو قد يعتصرون سيقانهم جانبياً عند مرورهم منه ، غير متفادين الاصطدام به .

تفضِّل حوّا المقاعـد المفردة . لكنهـا كـثـيـراً مـا تضطرّ إلى الجلوس على مقعد مزدوج ، تتقاسمه أحياناً مع طالبات المدارس أو الكليـات الجامعية ، المحجّبات ، اللاتي يبالغن في الاعتناء بمكياجهن أو إضافة اكسسوارات لافتة وبراقة على هندامهن ، كأحزمة جلدية عريضة أو طبقات من سلاسل فضية أو ذهبية أو مـرصَّـعـة بالخـرز الرخـيص تغطي صـدورهن ، فـيظهـرن في هيئاتهن المُدندَشَة المؤطَّرة بحجابات إلزامية كالرسومات الفجة . وقد تتقاسم مكانها مع معلِّمات أو موظفات في منتصف حقبة زواجهن أو عنوسـتـهن ؛ وفي كلتـا الحـقـبـتين ، يمكن مـلاحظة الإنهاك المتقادم في حجاباتهن الباهتة ، وجلابيبهن الجنائزية ، وحقائب أيديهن المتورِّمة ، بجيوب برانية كثيرة . لكن في مرّات

كثيرة ، تعمد حوّا إلى ضبضبة جسدها وتقليص مساحة انتشاره ، إذ يتناوب على المقعد إلى جوارها رجال شرهون لكلّ أشكال التلامس والحَسْحَسْة ، وأحياناً النَّغْز والتقريص ، فتظل حوّا تنكمش على نفسها ، وتنكمش ، حتى إذا صعُب عليها طي لحمها أكثر ، تضطر أحياناً إلى النزول من الحافلة في أي موقف تبلغه ، لتأخذ حافلة أخرى أو تقطع ما تبقى من مسافة سيراً .

تنهب الحافلة الشارع بسرعة كبيرة . حشرجة العجلات على الإسفلت تقضم جزءاً من أفكار الركاب وأصواتهم . تمسك حوّا بيدها المسند المعدني على الكرسي المقابل كي تحدّ من خضخضة جسدها وتمايلها اللاإرادي على المقعد ، محاذرةً الاصطدام بفخذ هائلة لراكب ، دلّت هيئته على أنه عامل في كراج سيارات ، كان يقف لصق مقعدها المفرد ، متكئاً بيده على ظهر مقعدها . تقع عينها على ساعة يدها . الوقت يقارب العاشرة صباحاً .

***

كانت حوّا في الثالثة عشرة حين ركبت الحافلة من مخيم البقعة إلى صويلح وحدها أول مرة في طريقها إلى بيت ست قمر . سبقتها مرتان بصحبة والدتها ، التي عرّفتها على ست قمر ، ودلّتها على الطريق ومحاذيره . «تِتْكلّميشْ مع حَدْ ،

تتطلّعيشْ في وِجِهْ حَدْ ، تِضْحكيشْ» ، نبّهتها . عيناها يجب أن تظلا مغروستين في الأرض ، شدّدت عليها . أرشدتها كذلك إلى طُرق تقليص الجسد وزمّ الأعضاء المفروشة في أكثر المساحات ضيقاً . لكن حوّا لم تسلم من كل أشكال المحاسسة والاحتكاك والتفعيص والتفغيص لجندين وطلاب كليات وعمّال وحتى «الكونترولية» الصبية ، إذ يلامس أحدهم مؤخرتها بفخذه المرتجفة أثناء صعودها الحافلة ، أو يدّعي ارتطام ذراعه دون قصد بثديها عند نزولها . وإذا ما اهتزّت الحافلة في التجاوز والوقوف وتعاطي السائق مع مفاجآت الطريق بطيش ، فإن في ذلك فرصةً في الغالب لرجالات الحافلة لادّعاء اختلال التوازن والاحتكاك بما تيسّر من أطراف النسوة الظاهرة ، اللاتي يجاهدن ويجتهدن في جعلها ضامرة أو مطويّة .

كانت والدتها تذكِّرها دوماً بأن عليها ألا تسمح لأحد بأن يدفع عنها أجرة الحافلة . لكن في أحيان كثيرة ، كان «كونترول» الحافلة يُرجع لها الشِّلن غامزاً ، فتأخذه حوّا منه ، وتضعه في جيبها ، دون أن تتطلّع في وجهه ، لتشتري به حبتي ويفر بالشوكولاتة أو زجاجة بيبسي تشربها وقوفاً عند مدخل أحد الدكاكين ، وهو أمر ما كانت لتقرّ به لرابعة أبداً .

في الثالثة عشرة ، كانت حوّا امرأة ذات قوام باسق ، بتشكيلات جسدية كثيرة طيِّعة . ثدياها على وجه الخصوص كانا مَهولَيْن . لم تكبت ست قمر دهشتها حين وقع بصرها عليهما أول مرة ، خاصة حين شلحت حوّا جلبابها الرمادي

لتقف أمامها بتنورة كسرات سمّاقية عزّزت اتساع حوضها ورفاهية اللحم في فخذيها، وبلوزة زهرية ستريتش ضيقة أظهرت خصرها الدائري الصغير مقابل ثدييها مفرطي الضخامة. طلبت منها ست قمر أن تشلح البلوزة. تردّدت حوّا. نظرت إليها ست قمر آمرة. فخلعت حوّا بلوزتها ووقفت أمامها خجلى، محاولةً أن تستر صدرها وبطنها المكشوفين بذراعيها. كانت حوّا وحدها في البيت مع ست قمر. «افردي ظهرك!» قالت لها ست قمر، ثم تقدمت منها ودفعت كتفيها بلطف، فحررت حوّا ذراعيها إلى جانبيها وأرجعت ظهرها وكتفيها إلى الخلف. كانت حوّا ترتدي سوتياناً بيج من قماش قطني مرخيّ، ارتخى أكثر مع ثقل صدرها. وكان فنجانا السوتيان صغيرين، محدودي العمق، فغصّا بالثديين البركانيين، اللذين فاضا على جانبي الفنجانين الضحلَيْن، ليبدُوَا من تحت البلوزة الزهرية الضيقة كما لو كانا يتألفان من طبقتين متراصتين من اللحم اللدن. غابت ست قمر دقائق، ثم عادت تحمل سوتياناً أسود، وطلبت من حوّا أن ترتديه. تكوّرت حوّا على نفسها تماماً وهي تخلع سوتيانها، معطيةً ظهرها لست قمر، التي ساعدتها في إحكام إغلاق السوتيان الجديد من الخلف، كما ضبطت لها الحمالات. أرتها ست قمر صدرها الجديد في مرآة نصفية معلّقة عند مدخل شقّتها. كان السوتيان الجديد ذا حمالات عريضة، من نسيج سميك غير قابل للارتخاء بسهولة، صمّم ليرفع أثقالاً غير عادية. تجويفا

السوتيان كانا أقرب إلى طاستين يصل عمق كل منهما نحو شبر ، وربما أكثر ، فاحتوتا الثديين تماماً . وكانت الطاستان مصنوعتين من الدانتيل الأسود المقسّى ، لتُسهما مع الحمالات المتماسكة في رفع الثديين إلى أعلى . تأملت حوّا نفسها في المرآة . أذهلها المنظر . التفّت ضفيرتها الجذعية الصهباء حول عنقها الأبيض الصدفي ، الذي شفّ عن خيالات سماوية فاهية ، تحت الجلد الرقيق . أطّر سواد السوتيان بياض بشرتها الموشّحة بنمش وردي ، فبدا نصفها العلوي مضيئاً . كانت هذه أول مرة ترى فيها حوّا جسدها أو جزءاً منه على هذا النحو . وكانت هذه أول مرّة تتفرّس في قسمات وجهها الذاهلة . وكانت هذه أول مرة تعتقد فيها أنها يمكن أن تكون جميلة .

أخذت رابعة حوّا إلى ست قمر كي تتعلّم على يدها الخياطة ، ولتساعدها في أعمال البيت . كانت ست قمر تقيم في شقّة واسعة في عمارة مؤلّفة من ثلاثة طوابق تقع في حيٍّ أنيق ومنظم في صويلح ، وقفت عند بيوتها المشيَّدة بالحجر والقرميد الأحمر سيارات كثيرة ، حمل بعضها لوحات خليجية . بعض السيارات كانت من الكبر والفخامة بحيث إذا ما حاولت أن تمرُقَ في أحد أزقة المخيم فقد تُحشر فيه ، هذا إن دخلت أصلاً . كانت شقّة ست قمر «شِرْحة وبِرْحة» ، كما وصفتها رابعة لجاراتها لاحقاً . تألّفت الشقة من ثلاث غرف نوم وحمامين وصالة وصالون كبير قسّمته ست قمر إلى جزأين ، وضعت في الجزء الأكبر طقم كنب فرنسياً من قماش

الساتان الأزرق النيلي المُعشَّق بورود بيج مذهَّبة ، والمؤطَّر بخشب الزان البندقي المحفور . حفّت بالطقم من ثلاث زوايا طرابيزات بيضاوية صغيرة من خشب الكنب نفسه ، توزعت عليها تماثيل وتحف زجاجية كثيرة ، يصعب على العين احتواؤها من النظرة المستطلِعة الأولى . في المنتصف ، ربضت طرابيزة بيضاوية كبيرة ، بسيقان ذات بطّات ضخمة بزخارف باذخة ، تجلّل جزءً من سطحها بغطاء من الشيفون السكري المقصَّب ، غطى جانباً من الخشب ، كما كشف أجزاء منه ، في تشكيل فنّي جميل . تزيَّنت الطرابيزة نصف العارية بمزهريّة وحيدة ، أثيرة ، وشم سطحَها نقشٌ مترَف ، مسرف الألوان ، كثيف التذهيب . تفتّحت في المزهريّة التحفة وردة واحدة ، صيغت بَتَلاتُها العريضة من قماش الأورغنزا الذهبي ، فيما طُرِّز مبسمها بخرزات سكرية ببريق قوس قزحي . من حين لآخر كانت ست قمر تستبدلها بوردة جديدة ، من مزيج الأورغنزا والشيفون والحرير ، بتصميم ولونٍ مختلفين ، حسب مزاجها . تُجيب ست قمر عن نظرة حوًّا المتسائلة ، فتقول لها إن الوردة القديمة ذبلـــت!

المساحة الأصغر من الصالون خصصتها ست قمر لطاولة سفرة بيضاوية طويلة من خشب الجوز توزَّع حولها اثنا عشر كرسياً بظهور من الخشب المحفور المفرَّغ ومقاعد منفوخة من الإسفنج القاسي المنجَّد بالساتان الأزرق النيلي ، الذي التقى واللون الساتاني لطقم الكنب . زُيِّنت حواف الكراسي بمسامير

برونزية ، ذات أسطح دائرية عريضة ، خالتْها حوّا في البدء أزراراً معدنية . احتلّ جاط كبير فارغ ، من الزجاج المُبزَّر ، منتصف الطاولة . توافَقَ طقم السفرة مع بوفيه من نوع الخشب نفسه . من خلف درفاته الزجاجية اصطفت بترتيب مدروس فناجين شاي وقهوة من الخزف الصيني الأبيض مذهَّب الحواشي وكؤوس كريستال شفافة ذات كعوب مرتفعة وأطباق متنوعة الأشكال والأحجام .

في مطرح بارز من البوفيه ، وعلى مساحة ثلاثة رفوف عريضة منه ، ربض طقم خزفي بعدد لا نهائي من القطع ، شملت دزينة فناجين شاي بأطباقها الصغيرة وإبريق شاي مائلاً للاستطالة وسكّرية وإناء صغيراً له بوز للحليب ، رُتِّبت جميعها بجوار بعضها ، بالإضافة إلى دزينة صحون كبيرة الحجم ، ودزينة صحون متوسطة ، ودزينة صحون صغيرة للحلوى ، وثلاثة جاطات بيضاوية مسطحة ، ودزينة زبديات للشوربة ، وزبدية كبيرة لها غطاء ، وفي الغطاء فجوة جانبية تسمح بإدخال «كفكيرة» . بعض الأطباق وُضعت على مناصب لتبرز تفاصيل النقش عليها . فُتنت حوّا بتفاصيل الرسمة المنقوشة على قطع الطقم . كانت لفتاة جميلة ترتدي فستاناً ليليكاً عرائسياً ، وشابٌ تشبه هيئته الأمراء في القصص الخرافية ، يتمشّيان متشابكي الأيدي والعيون في حديقة غنّاء . لم تكن حوّا تملّ النظر في أجزاء الرسمة التي تتوسّط قلب الصحن أو الفنجان أو الإبريق ، والمضاءة تفاصيلها على خلفية بيضاء

صدفية للآنية الخزفية ، وهي خلفية أضفت فخامة على قطع الطقم . كما لم تملّ الاشتباك بعينيها مع نظرة الحبيبين المتكرِّرة مئات المرات دون كلل أو ضجر في البوفيه . كانت تقرِّب وجهها من وجهي الفتاة والأمير ، فتكاد تسمعهما يتكلّمان أو لعلهما يتهامسان . سألت ست قمر عنهما ذات يوم ، فأغمضت عينيها وندّت عنها تنهيدة لحَّنتها بصورة متعمَّدة كي تجعلها درامية ، قائلة : روميو وجولييت . وحين تأكد لها أن الاسمين لا يعنيان شيئاً لحوّا ، شرحت لها أنهما حبيبان . قدرت حوّا أن الطقم ثمين جداً ، وعزيز جداً على قلب ست قمر ، التي أفردت له طقْس اعتناء خاصاً ؛ فكل شهرين أو ثلاثة ، كانت تنظم له حفل تنظيف بإشرافها المباشر . كانت حوّا تفرد بطانية على الأرض ، تضع عليها قطع الطقم ، التي تنزلها من الرفوف ، قطعةً قطعة ، برفق ؛ وتمسحها بقطعة قماش رطبة ذات ملمس وَبَري ، قبل أن ترجعها إلى مكانها ، فإذا ما طقطق صوت الخزف بسبب ارتطام صحن بآخر ، أو انحراف فنجان شاي عن طبقه ، أو زحزحة غطاء إبريق الشاي عن مكانه ، أطلقت ست قمر صرخة مبتورة ، كأنها تلقّت لسعة ، لتطمئنها حوّا بسرعة أن روميو وجولييت بخير .

انبهرت رابعة بست قمر وبيتها قدر انبهار حوّا وأكثر . قادتهما ست قمر إلى الصالة ، التي تستقبل فيها زبوناتها ، والأقل بذخاً من الصالون بكثير . جلست ست قمر على كنبة ثلاثية المقاعد ، ضمن طقم كنب موريس ، بان عليه

الاستهلاك، مقارنة بطقم الصالون الفرنسي المحتفظ بجدّته منذ سنوات. دعتهما إلى الجلوس. جلست كل منهما على مقعد مفرد.

باستثناء خزانة احتوت تلفزيوناً ضخماً، كأنها صممت للتلفزيون نفسه، لم تكن في الصالة تفاصيل كثيرة: طرابيزة كبيرة مربّعة قصيرة الأرجل، بسطح من الخشب المخموش من كثرة الاستعمال، كانت ستصلح لتكون طبلية للأكل، لو كانت أقصر قصيراً. هكذا تصوّرتها حوّا. تناثرت فوق الطرابيزة، التي احتلت قسماً كبيراً من صدر الغرفة، أعداد متفرقة من مجلتي «الشبكة» و«الموعد»، حملت وجوه نساء مبهرجات، فائضات المكياج. خُصِّص الجزء الأكبر من الطرابيزة لعشرات الأعداد من مجلة «بوردا». حُشرت طرابيزة مربعة أصغر حجماً، لا تشبه في خشبها وتصميمها الطرابيزة الكبيرة، ذات سطح ملبَّس بخشب الفورمايكا، في إحدى الزوايا، بمحاذاة الكنبة ثلاثية المقاعد. كان عليها هاتف أخضر، وباكيتا سجائر كِنْت وولاعة، ومنفضة زجاجية عريضة فيها أعقاب سجائر، وفنجان قهوة نصف ممتلئ. على إحدى الكنبات، ارتمى كيس مفتوح، بانت منه قطعة قماش مطوية من المخمل الأحمر، ثُبتت في طرف منها بدبوس ورقة عليها أرقام مقاسات. أشعلت ست قمر سيجارة، وعاينت حوّا ملياً وسألتها:

ـ قدّيش عمرك؟

جلست حوّا على طرف الكنبة متصلّبة ، وقد أحنت رأسها . أجابتها رابعة على الفور :

ـ ثَلتْطَعِشْ داخْلِه في الأربَعْطَعِشْ .

هزّت ست قمر رأسها بتعجب . تخيّلتها أكبر من ذلك . سألتها ثانية :

– بتِقْري وتكتبي؟

تنطعت رابعة للإجابة :

– درست للصف الثاني إعدادي .

كانت ست قمر ترتدي فستاناً منزلياً من الكتان الأبيض ، موشوماً بقرنفلات حمراء صغيرة . كان الفستان بلا أكمام ، وكان قصيراً ، على الأقل بمعيار حوّا ورابعة ، إذ بالكاد غطّى ركبتيها . فتحة الصدر كانت مندلعة . وحين جلست على الكنبة مسترخية ، قصُر فستانها أكثر ، كما تنفّس صدرها من الفتحة بحرية أكبر . تناولت ست قمر منفضة السجائر ووضعتها على الكنبة إلى جوارها ، ثم خلعت إحدى فردتي شبشبها ذي الكعب الفلين ، وثنت ساقها تحت جسمها . توجهت لحوّا بالسؤال ثانية :

وليش تركتِ المدرسة يا حوّا؟

تدخّلت رابعة كأنها تدافع عن قرارها :

ـ البنت آخرتها للزواج . . .

ثم سكتت قليلاً ، متفحِّصة بطرف بصرها ساقي ست قمر ، وتابعت :

ـ . . . . الله يستر على الوَلايا!

نفضت ست قمر سيجارتها في المنفضة ، فتطاير بعض الرذاذ على الكنبة . ابتسمت قائلة :

ـ إِلِكْ لسَان يا حوّا؟

رفعت حوّا بصرها جزئياً ، وتطلّعت في ست قمر ، فبادلتها الابتسام وهزّت رأسها علامة الإيجاب . ضحكت ست قمر ، قبل أن تسألها أخيراً :

ـ بتعرفي تعملي قهوة يا حوّا؟

رفعت حوّا رأسها وبصرها نحو ست قمر ، وانشقّ فمها عن ابتسامة عريضة . قهقهت ست قمر طويلاً . في تلك اللحظة ، أدركت حوّا أنها أحبّت ست قمر ، وأن ست قمر أحبّتها .

***

يطنّ سوق صويلح بالبشر والسيارات . مفاصل الحركة في السوق تنشط تدريجياً في الصباح المتوَّج بشمس صفراء وسماء زرقاء كأنهما حقيقيتان تماماً . تتحسّس حوّا موبايلها في جيب معطفها . تمسح شاشته الصغيرة بأصابعها خِفية . تركن إلى أنّ صباحها السعيد لا تزال شمسه متوهِّجة في صندوق الرسائل . تشقّ طريقها بين محال الملابس ، التي ألصقت بعضها على نوافذها الزجاجية لافتات كرتونية كُتبت بارتجال تعلن تحطيم الأسعار . تتلمّس قماشة جلباب قرفيّ اللون من الجوخ الصيني

ارتدته مانيكان للعرض عند مدخل أحد المحال . رأس المانيكان مغطّى بإيشارب أصفر فاتح ، مع السماح لخصلات من باروكتها البنيّة السلكيّة الملمس بأن تظلّل جبينها البلاستيكي العريض . تثني حوّا الجلباب من ذيله ، وتتفحّص بطانته الحريرية التي تحمل درجة أفتح قليلاً من اللون القرفي المحمرّ . تعصر القماش بيدها لثانية ، ثم تفلته . يترك البائع الوحيد في المحل مانيكاناً نصف عارية في الداخل كان يهمّ بأن يلبسها جاكيتاً فوق التنورة ويقبل نحو حوّا ، يشير لها بالدخول كي ترى موديلات وألواناً أخرى من الجلابيب . تعاين حوّا ظهر الجلباب دون أن تتطلع في البائع وتسأله عن ثمنه .

- بس عشرين . . والله قبل المطرة ما كنا نبيعو بأقل من خمسه وعشرين .

تُدخِل حوّا يدها في إحدى جيبي الجلباب الخارجيين كي تقيس عمقها . تبدو منفصلة عن الجلباب رغم معاينتها الدقيقة له . لا تتطلّع إلى البائع أبداً . يستشعر البائع الأربعيني بخبرته انعدام حماستها . يفرك لحيته الشوكية النابتة ، مدعياً الاستسلام المبكّر ، قائلاً :

- يا ستّي طمنْطعش . . خُديه براس مالو . . والله كل مَرْبحو عليّ ليرتين .

تترك حوّا الجلباب ، وتستدير مبتعدة . ينادي عليها البائع :

- خمسْطعش!

لا تلتفت حوّا إلى صوته الذي يغلّفه يأس . تشعر بعينيه

تخزقان ظهرها . تتابع سيرها ، مقاومةً إغراء التوقُّف عند محلات ملاصقة تعرض جلابيب مشابهة . تكتفي بالتلصُّص عليها ببصرها الماشي .

تمرّ بسوق تجاريّ كبير بأربع واجهات مطلّة على الشارع . أتلال من البضائع ، ذات العروض التخفيضية : علب شامبو كبيرة الحجم ومنظِّفات وأكياس حفاضات ورُزم مناديل ورقية في عبوات نايلون تفترش الرصيف أمام واجهات السوق الزجاجية الضخمة التي تحمل ملصقاتٍ عملاقةً لمجمَّدات «نبيل» الغذائية من أقراص الكبّة وسمبوسك الجبنة وفيليه الدجاج وأصابع الكباب .

تتجاوز حوّا السوق التجاري والتجمُّع النسائي ، الذي بدأ يتكاثر حول العروض الرخيصة المفروشة على الرصيف ، وتدخل محلاَ صغيراً لبيع الأواني المنزلية . «تفضلي يختي!» يشير لها صاحب المحل ، الذي يعتلي سلماً قصيراً في ركن قصيّ من المحل يوزّع على أحد الرفوف أباريق ماء من زجاج مضبَّب ، كي تجلس على المقعد الجلدي المتآكل قبالة طاولته . يواصل ترتيب الأباريق وتوزيعها في أماكنها حسب أشكالها وأطوالها ، فيما تعاين امرأتان في الركن المقابل تشكيلة من صواني الضيافة «ستانلس ستيل» . وحين تسألان صاحب المحل ، الذي فقد اهتمامه بوجودها ، عن سعر قطعة ما ، يجيبهما بحياديّة ودون حماسة ودون أن ينظر نحوهما . «تشربي شاي يا أم قيس؟» يعرض عليها من على السلم ثلاثي

الدرجات، فتشكره حوّا متعفّفة. تغادر المرأتان المحل، غير متحرِّجتيْن كثيراً من عدم الشراء. تلملمان جلبابيها وشاليهما الثقيلين الملفوفين حول جسديهما وافري الامتلاء كبطّانيّتيْن، محتاطتيْن في سيرهما، كي لا تصطدما بالأواني الكثيرة الجاثمة على أرضية المحل. تتابع حوّا صاحب المحل يطوي السلم ويضعه جانباً، ثم ينزل درجات خشبية قديمة في آخر المحل، صوت أنينها المتقادم يصل إليها بوضوح، قبل أن يعود بعد دقائق يحمل كرتونتين، همّته الشديدة في حملهما لا تعكس وزنهما الثقيل. يضع صاحب المحل الكرتونتين المغلقتين إلى جوار بعضهما فوق المكتب المترَب. يمسح سطحهما الخارجي بشكير جاف، ثم يشقّ الشريط اللاصق البني الذي يغلق فتحة كل كرتونة بمشرط. تجويف الكرتونة الأكبر في الداخل مقسوم إلى غرف صغيرة متفاوتة الأحجام من الفلين الأبيض، في أكبرها يقبع إبريق شاي، يُخرجه صاحب المحل بحذر ويفضّ غلافه من فقاعات النايلون. عينا حوّا لا تستطيعان أن تكبتا توهجهما. يقرأ صاحب المحل غبطتها، قائلاً:

ـ شو رأيك؟ زي ما طلبتِ بالزِّبط!

تحمل حوّا إبريق الشاي الخزفي بحرصٍ ووَلَه. تمسح رسمته اليانعة بأصابعها. على صفحة بطن الإبريق البيضاوي القالب يجلس روميو وجولييت متلاصقين على جذع شجرة مائلة، تحفّ بهما خضرة الحبّ التي تعرفها حوّا جيداً على خلفية بيضاء كريمية. فستان جولييت كان أقرب إلى الوردي الفوشي.

قسمات السعادة على وجهي الحبيبين لم تختلف كثيراً عن تلك التي ظلت تشعّ في بوفيه ست قمر لسنوات طويلة . يمرِّر صاحب المحل أصبعه على قطع الطقم يحصيها : ستة فناجين شاي بأطباقها ، مع إبريق حليب وسكرية . تلفُّ حوّا الإبريق بغلاف الفقّاعات ، وتُرجعه إلى مكانه بأناة . من الكرتونة الأصغر ، يسحب صحناً خزفياً ملفوفاً بغلاف الفقّاعات نفسه ، عليه الرسمة ذاتها للعاشقيْن المستسلميْن لدَعة الحب ، كما نُقشت نسخة مصغَّرة من الرسمة على ثلاث زوايا في حافة الصحن . يقلب الصحن على ظهره ، ويريها الكتابة بأحرف إنجليزية . «ياباني أصلي» ، يؤكِّد لها . ولمزيد من البرهان ، يقرِّب الصحن من أذنها وينقر بطنه بطرف أصبعه . «سامعة الرّنة؟!» يسألها من قبيل التصديق على كلامه . تبدو حوّا مقتنعة تماماً دون أن تفهم معنى الرّنة . يقول لها إنه لم يتمكن من تدبير سوى ستة أطباق . تمسك الصحن بيديها كما لو كانت تحمل رضيعاً جاءها بعد طول انتظار . وجهها يطفح بالسعادة . «بكفّي وزيادة!» تقول له . في سرِّها ، تحدِّد موقع طقم الشاي والأطباق في البوفيه . سيكون لها بوفيه في بيتها الجديد . لن يكون ضخماً كبوفيه ست قمر . سيكون صغيراً وجديداً ، برائحة خشب مقصوص ومنشور ومحفور ومدهون حديثاً ، فيه رائحة بدء الحياة . تدفع حوّا ثمن الطقم والأطباق دون جدال ، وتطلب من صاحب المحل أن يحتفظ لها بهما حتى صباح غد . سوف تأتي بسيارة لتأخذهما . «في الحفظ والصون» ، يقول لها

صاحب المحل ، وهو يتحقق من الفلوس قبل أن يفرد شريطاً لاصقاً عريضاً على غطائي الكرتونتين ، مُحكِماً إلصاقهما ثانيةً ، مربِّتاً عليهما بيده ، علامة الأمان .

تسرِّع حوّا في خطوها ، قلبها يُنطنط من الفرح . تُحكم قبضة يدها على الكيس وتضغط بذراعها على حقيبتها المتدلِّية تحت إبطها علَّها تُهدِّئ من حماسة قلبها . حين تصل محلّ الأقمشة أخيراً ، يكون لهاثها قد تقطّع . تطوي روحها المبتهجة في داخلها وتتماسك . تعرف أن بهجةً من نوع آخر تنتظرها . ما إن تخطو داخل المحل حتى تلفح عينيها الغزارة اللونية لأثواب الأقمشة التي تصطفّ عمودياً ، في ثلاث طبقات ، تمتدّ من الأرض إلى السقف ، في زوايا المحل الأربع . تُدير حوّا بصرها بين اللفات المرتبة وفق نوع الخامة . حين تقع على قسم المخمل ، تسري فيها تلك الإثارة التي خبرتها مرات ومرات . يظل الإحساس مشتعِلاً ، متجدّداً . بضعة أثواب من المخمل فُردت على جانب من طاولة العرض والقص . يتداخل المخمل السادة مع المحفَّر والمطبَّع والمنقوش والموشّى بالشيفون والمنكَّه بالساتان والمُطعَّم بالخرز والمطرز بالبرق والترتر . لكن حوّا تعرف مخملها ، الذي تريد . يجب أن يكون المخملُ مخملاً ، خالصاً ؛ يجسّد روح المخمل ؛ فلا يسمح لأي إضافة بأن تفسد نسيجه ، أو ملمسه ، أو نكهته الرحيقية .

حين تمسح يدها موجةً مخملية بنفسجية ، تعرف حوّا أنها بلغت غايتها . يفرد البائع ثنيات الثوب ، الذي يختزن أطياف

البنفسج أمامها على الطاولة ، فتهبّ في صعود النسيج بين يديه وهبوطه تلك الرائحة ، التي تعرفها حوّا وتتوقّعها ؛ فتتنشقها ، مستبقيةً ذرور شذاها فيها .

للمخمل رائحةٌ ليست كأيّ رائحة أخرى . هكذا كانت ست قمر تقول لها . هي رائحةُ الدفء ، وهي رائحة السخونة الهاجعة ، وهي رائحة العمق ، وهي رائحة المدى ، وهي رائحة الترف المستحَق ، وهي رائحة الأنفة والتمنّع ، وهي رائحة التمنّي والتشهّي ، وهي رائحة النضج : نضج الحب ونضج العمر ، وهي رائحة اللحم النظيف ، وهي رائحة اللحم المُعمَّر بالاشتياقات وعرَق الرغبات . لكن ليس أيّ مخمل ؛ إنما المخمل الخميل ، المخمل الذي يتقّد فيه أغلى الحرير ، المخمل ذو النعومة المرصوصة ، المنسدلة ، العصية على التكسُّر ؛ بوهج في القماش مُستتر ، بمزاجٍ في اللون متبدّل دون جلبة ، بضيّاءٍ خافت ، بلمعان متسلّلٍ ، بخفر مسترسلٍ فوق ثنيات الجسد ، بملمسٍ يبعث حفيفاً لا يجفلُ معه الشوق .

انحازت ست قمر للألوان الغامقة من المخمل ، وتحديداً للدرجات التي تبدأ من الغروب ، في نزعه الأخير ، وحتى آخر الليل ، لأنها تشعّ حرارةً أكبر ، تتسرّب من الأحمر القاني ، والأرجواني ، والكرزي ، فالليلكي ، والبنفسجي ، والباذنجاني ، والنيلي ، والكحلي ، والحِبري ، والبترولي ، والدخاني ، والفحمي ، فالأسود الفاحم بالغ السواد . وكانت تفضّل المخمل السادة ، وتكره الملوّن والمطبّع والمعرّق والـمُقصّب والمرمّل والمجعّد

والمجروش والمنقوش والمحفَّر . وفي مرة ، جاءتها امرأة بقطعة مخمل ثقيلة منقوشة بورود بارزة عريضة ، فسألتها قمر بسخرية بيِّنة ما إذا كانت تريد أن تفصِّل فستاناً أم تنجِّد كنبة!

كانت ست قمر تدفن أنفها بقطعة المخمل ، ثم تدعك عنقها ووجهها بالقماشة المقصوصة حديثاً ، لأن رائحتها تكون لا تزال معشَّقة فيها . تطوي القماشة في ثنيتَيْن وتفردها على طاولة القص ، ثم تُشكِّلها بيديها على هيئة فستان ، فتقوِّر فتحة الصدر افتراضياً ، وتزمّ منطقة الخصر وتصوغ الجزء السفلي كتنّورة ضيّقة ، تصل حتى منتصف الركبتين ، ركبتيها هي ، ثم تغمض عينيها وهي تسير بيديها فوق النحت المؤقّت للفستان ، كأنها تعبطه . يصبح جسدها أقلّ انشداداً ، ميالاً إلى الكُمون ؛ تكون تتنفس القماش لحظتها ، حتى إذا اكتفت من مغامرتها التخيلية وعادت إلى اللحظة الراهنة ، بدت كأنها بُعِثت إلى الحياة . كانت في المخمل رائحة الحياة ، بدء الحياة أو العودة إليها .

أحبت ست قمر أقمشة أخرى كثيرة ، وإن بدرجة أقل . أحبت الغيبير ، الأسود تحديداً ، بخامته الثقيلة المشدودة ونقوشه العريضة التي تشبه زخارف الكروشيه المفرَّغة ، والدانتيل الرقيق المطواع المحرَّف قليلاً بألوان الزهري الثلجي والليلكي البارد والسماوي والحليبي . بين الشيفون والأورغنزا ، مالت إلى الأول لملمسه الأكثر هوائية . كانت تحبّ تحديداً الشيفون بدرجات الألوان الغامقة والمشبَّعة ، كالأزرق الملكي

والنبيذي والبنفسجي ذي مسحة ليلية ، فلا يحول القماش الشفاف دون انبلاج أجزاء عزيزة من الجسد تحته . أحبت ست قمر أيضاً الحرير المراوغ والكريب جورجيت ، ببساطته المغرية واحتمالاته اللانهائية . واتخذت موقفاً محايداً إزاء الكتان والقطن ، وآخر متقلّباً تجاه الصوف ، حسب مزاجها ، وإن مالت في الغالب للموهير والكشمير . كرهت ست قمر أقمشة كثيرة ؛ واحتقرت على وجه الخصوص البوليستر والنايلون . كانت تبدي ازدراءً كبيراً لليكرا شديد المطاطية وكلّ الأقمشة التي تُمطّ عموماً .

مع ست قمر ، اكتشفت حوّا عالم الأقمشة الرحب . كانت أحبّ الأوقات إليها يوم تأخذها معها إلى سوق الأقمشة والكُلف في وسط البلد بعمّان . عادة ما كانت ست قمر تشتري لزبوناتها إضافات التصميم كالبطائن والتنتنة والكشاكش وشرائط الستراس والأزرار وأبازيم الأحزمة . بعض زبوناتها «الثقيلات» كنّ يعهدن إليها بشراء أقمشة معيّنة كالمخمل أو الغيبير الأجنبيين ، غير قانعات بالبدائل الأردنية والسورية الأرخص ، أو حتى الصينية . وهناك زبونات منتخبات كنّ يتركن لها حرية اختيار اللون ، خاضعات لذوقها الرفيع في التصميم .

كانت ست قمر صانعةً للموضة ومعتنقةً قوية لها . يُحسب لها في السبعينات أنها دشّنت الأكمام الطويلة المشقوقة في المنتصف بالكامل والمزمومة في النهايات بأساور عريضة تُغلَق

بنصف دزينة أزرار . ويُحسب لها في الثمانينات أنها أول من شوهدت ترتدي فساتين وقمصان زُيِّنت صدروها ببروشات من الريش أو على هيئة وردة كبيرة متفتحة مصنوعة من الحرير بوريقات مفرَّغة أو مطرَّزة أو مطبَّقة بعضها فوق بعض ، كانت تصمِّمها بنفسها وتختار لونها بعناية مفرطة ، متقصِّدة أن تضفي نوعاً من التباين اللوني ، الصارخ أحياناً ، على إطلالتها ، كأن تضع جوريةً حمراء على فستان أسود فاحم ، أو قرنفلةً بيضاء مكحَّلة حواشيها بالزهري على قميص نيلي ، أو أوركيدةً ليليكة على جاكيت عاجيّ أو نرجسةً صفراء على تايور بيج . الأهم أنه يحسب لست قمر أنها عاندت الموضة السائدة في الثمانينات ، فكرهت الكتّافيات الضخمة التي كانت تعرِّض الكتفين أو تعطي الجاكيتات - تحديداً - شكلاً مستطيلاً ، وفي التصاميم المبالغ بها شكلاً مثلثاً ، ورفضت أن تدرجها في تصاميمها ، مصرَّةً على استخدام مساند رقيقة وصغيرة ، فقط لـ«تجليس» الأكتاف . ولم تستسغ كثيراً أقمشة التّرتر ، كما لم تتسامح مع طبعات جلد الأفعى وجلد النمر وجلد الحمار الوحشي . كانت تراها طاغيةً وفظّة ومزعجة .

ما إن كانت قدم ست قمر تطأ محلّ أقمشة أو محل كُلف حتى يترك صاحب المحل ما بيده ويقبل عليها مرحباً ، واضعاً «المحلّ وصاحب المحلّ» ، كما يقول ، تحت تصرّفها . كانت ست قمر من النساء اللاتي يسطين على الأمكنة . كانت تمتلك خاصية الاحتلال الطوعي للصورة ، فتبرز داخل الإطار بجلاء

فيما تتحوّل كل التفاصيل من حولها إلى غبش أو عناصر معزِّزة لحضورها في أفضل الأحوال . بل لم تكن تكتفي بأن تكون مفرَدةً بارزةً في الصورة ، أي صورة ، وإنما تمتلكها ؛ فتصبح هي الصورة . في ثلاثيناتها وحتى أوائل أربعيناتها ، كانت ست قمر امرأةً كما يحقّ للمرأة أن تكون : منحوتة مستوية ؛ كاملة متكاملة ؛ ناضجة ؛ فورانها الأعظم وإن هدأ منذ زمن فإنه لابدّ ، كثورةٍ كامنة . حين كانت تدخل مكاناً أو تسير في شارع ، يبهت كل ما في نطاقها ضمن دائرة واسعة نسبياً ما عداها . كل شيء يسكن في الجو ؛ وحدها هي تصخب ، فقط لأنها موجودة . كانت ست قمر امرأةً جميلة جداً . وحوّا تحديداً كانت تراها أجمل نساء المعمورة .

تتوقف حوّا عند واجهة محل برّاقة لبيع المجوهرات الذهبية التقليدية . تقبض يدها باطمئنان على الكيس الأخضر يزاحم كيساً جديداً تنبعث منه رائحة مخمل غنيّ ، ثريّ الإحساس ، فوّاح . قلائد وسلاسل كثيرة ، طويلة وقصيرة ، تتدلّى من منشرين معدنيين يمتدّان من أول الواجهة إلى آخرها . على القاعدة الخشبية للواجهة ، تُعرض أطقم باذخة من معدن أصفر صارخ ، بدرجة صُفرة ذهب الـ٢١ قيراطاً - أو أُريد لها أن تبدو كذلك - منسّقة في صناديق كرتونية مفتوحة مبطّنة بالساتان الأبيض ، شبيهة بصناديق المصوغات الذهبية الأصلية . كل طقم يتألف من قلادة قصيرة أو عقد يطوّق العنق وسوار مشابه وقرط وخاتم ، بتصاميم لا تجافي الأصل الذي نُسخت عنه أو لا

تفرق عنه كثيراً، حتى من النظرة الخبيرة. معظم الأطقم مرصَّعة بحجارة زجاجية شبيهة بالكوارتز أو ذات قطع ألماسي. على جانب من بعض الصناديق التي يلمع معدنها الذهبي بفجاجة توجد بطاقة كتب عليها «أطقم لازوردي»، وإلى جوارها صورة مستنسخة لإليسا ترتدي عقداً تتدلى منه كرات من الذهب تضيء مساحةً كبيرةً من صدرها العاجي المكشوف. تميل المغنيّة رأسها إلى الخلف قليلاً وتُرجع شعرها إلى الوراء كما تسند يدها على كتفها، في وضعية تتقصَّد إبراز تفاصيل الطقم بكل مكوِّناته.

تعرفت حوّا على الذهب الروسي قبل سنوات. كانت تحضر ليلة حناء بنت الجيران في المخيم، حين شاهدت العروس ترفع يديها وهي ترقص مستعرضةً نصف دزينة أساور ذهب مجدولة في يد وسوار جنزير في اليد الأخرى وسبحة بكرات مصمتة، كل كرة بحجم حجر تيلة، تتدلّى من صدرها وتصل حتى مشارف بطنها. «من وين كل هاظ؟!»، مالت حوّا على أم سعيد تسألها هامسة، تتابع ببصرها أم العروس، تضبط موقع سطل عند مدخل البيت لاستقبال الماء الدالف من السقف، كان الأطفال الهائجون في الحفلة ركلوه بعيداً. «ذهب روسي»، أجابتها أم سعيد بطرف فمها. لم تفهم حوّا الفرق بين الذهب الروسي والذهب الذي تعرفه. لمع الاهتمام في عينيها وهي تحاول أن تستكشف سرّ البريق الذهبيّ جداً حول العروس، وسألت أم سعيد ثانية:

ـ شو يعني؟

وضعت أم سعيد يدها على كرشها ونفخت هواء بطنها . وشرحت لحوّا أن معظم الناس تحولوا عن الذهب بعدما شاط سعره ، واستعاضوا عنه بالذهب الروسي الرخيص بتصاميمه ونقوشه التي لا تختلف كثيراً عن تصاميم الذهب الحقيقي ، بل يصعب أحياناً تمييز الفارق بينهما ، حتى في الوزن . «والعرايس يختي مبسوطات بالذهبات ، في النهار بخشخْشِن ، وآخر الليل بينْتاكِن» ، قالتها أم سعيد باستهزاء مستتر . ثم قصّت عليها واقعة خطيرة حصلت مع جارتهم أم شادي ، التي يُقال إنها باعت سوارين «ثعبانين» يتيمين ، كي تخلِّص ابنها شادي من مصيبة ، بعدما أخذ بضاعة بأكثر من ألف وثلاثمئة دينار من أحد تجار البلاط في عمّان . التاجر أرسل اثنين من صبيانه لشادي في نص الليل ، سحلاه من بيته وأخذاه عند تجمع حاويات الزبالة في المخيم ، ولم يوفراه لكماً وركلاً وتدعيساً ، حتى لم يعد وجهه يُرى من الدم الذي غشاه . أمهلاه يومين كي يؤمِّن المصاري . أخفت أم شادي الحادثة عن أبو شادي ، وخبأت شادي في بيت جدته ، وذهبت إلى التاجر في محله الكبير في شارع الغاردنز ، و«باست رجليه» ، ورجته أن يعتق ابنها ، ووعدته بأن ترجع له فلوسه على آخر قرش ، فأعطاها التاجر أسبوعاً لتتدبر أمر الفلوس . المسكينة باعت الثعبانين «حيلتها» ، من وراء ظهر أبو شادي ، فأبو شادي ، هو الآخر ، كانت عينه على الثعبانين كي يضع فلوسهما دفعةً

أولى لسيارة بيك أب . واشترت ثعبانين من الذهب الروسي ، يكادان يكونان مطابقين لثعبانيها ، كما لو أنهما مصبوبان في القالب ذاته ، وظلا سنة في معصمها ، وكلما ألحّ عليها أبو شادي كي يبيعهما ، تتذرّع بأنها تريد أن تزوِّج شادي بهما ، حتى إذا اكتشف أبو شادي فعلتها أخيراً ورَّم بدنها .

سألتها حوّا غير مستوعبة أنه لا يوجد ذهب في الذهب الروسي :

- ولا حتى شويّة ذهب؟

- رفعت أم سعيد رأسها إلى أعلى ، مؤكدة :

- ولا قِشرة!

ثم تساءلت حوّا بفضول أشعله بريق السبحة الذي انعكس على وجه العروس التي كانت لا تزال ترقص مغتبطة :

ـ ومن إيش مصنوع؟

أزاحت أم سعيد فمها جانبياً علامة الرخص :

ـ تنك .

وحين سألتها حوّا أخيراً عما قد تجنيه الواحدة إذا فكّرت ببيع الذهب الروسي ، أجابتها أم سعيد جازمة :

ـ خرا .

تغادر حوّا المحلّ فرحة ، ومثارَة ، تحمل كيساً ورقياً يحمل اسم المحل مكتوباً بأحرف ذهبية ناتئة . بعد طول تخيُّل ومقارنات وحسابات جمالية ، تنتقي أخيراً طقماً «إليسياً» يتألف من عقد قصير مصوغ من حلقات متشابكة ، بقلبٍ كبير

الحجم نسبياً يتدلّى من المنتصف ، تنبتُ فوقه ثلاث ورود نافرة مطعَّمة بحجارة زجاجية منمنمة ، يتراوح حجمها بين حبات رملٍ ناعم إلى قطرات ماء تجري كدمعاتٍ على وجنات الورود المتفتّحة . إلى جانب العقد ، يشمل الطقمُ سواراً وخاتماً وزوج أقراط متوافقة مع شكل العقد .

في ليلة العمر القريبة ، ترى حوّا نفسها بفستان من المخمل البنفسجي ، بتصميم وضعت تصوّره في رأسها بتفصيل دقيق . سوف يكون الفستان طَويلاً ، يعزِّز قسمات قوامها المحافظ - رغم كل شيء - على تماسكه وصلابته دون كثير انفراط شحمي . سوف يحوِّط خصرها وبطنها اللذين لم يترهّلا كثيراً خلال سني عمرها التي سقطت منها بقسوة . وسوف يجمع حوضها بتكويرته غير المسطَّحة ، الضخمة دون فلتان ، ثم ينسدل مستقيماً نزولاً حتى قدميها ، في سكبة واحدة ، قبل أن يُفتح قليلاً عند الذيل ، في قالب شبيه بالحورية . ولم تنس حوّا أن تقوِّر الياقة على شكل قارب ينتهي طرفاه عند أعلى ذراعيها . ومن أعلى الذراعين ، ينسدل كمان قصيران جداً ، نصف محفورين ، فيبين من تحتهما إبطاها النظيفان وجزء يسير ، كأنه مختلس ، من جانبي ثدييها البضّين . ثم تبتسم حوّا وهي لا تزال ترى صورتها في بالها ، تكتمل بطقم إليسا يحتل مساحة كافية من صدرها المكشوف .

تعرف حوّا أنها ستكون امرأة جميلة . ترى نفسها أجمل عروس يمكن أن تكون عليها امرأة في السابعة والأربعين .

(٣)

من عند دوار صويلح ، تعتلي حوّا الحافلة . «صافوط!» تقول للكونترول ، وهي تنقده الأجرة ، وتحتل مقعداً مزدوجاً . تجلس ناحية النافذة ، وتضع الأكياس الثلاثة في المساحة الفارغة بجوارها . تنظر إلى ساعتها . يتنافر العقربان مقتربين من الحادية عشرة والنصف . عدة حافلات منهكة تصطفّ فارغة عند الدوّار . معظمها يمضي باتجاه البقعة ، مروراً بصافوط . يغطي السخامُ المختلط بالعادم المتكاثِف والتراب المُتطيِّن من أيام المطر هياكلَ الحافلات الصغيرة المهلهَلة ، وإن تركّز الغطاء السخامي في الجزء السفلي من الهيكل ليبدو كزنّار عريض من القذارة المتراكمة ، ما يضفي على الحافلات سيماء الوهن والرثاثة والتداعي . الحركة في هذا الوقت المعلّق ، غير الفاعل ، من النهار خفيفة . فلا الزمن بداية صباح يستدعي الانطلاق والمباشرة ، ولا ظهيرة أو ما بعد ظهيرة تحفِّز العودة .

تنطلق الحافلة نصف ملآنة بالناس على أمل التقاط المزيد من الركاب ، ممن رمُي بهم في هذا الوقت الحائر من اليوم ، في الطريق . مع خضخضة الحافلة نصف الفارغة المتسارعة في الشارع المنحدر ، تختضّ أبدان ركّابها وتتمايل . تظلّ مساحة الكرسي بجوار حوّا خالية . فتتراخى الأكياس الثلاثة في مكان

الراكب المفترض . لكن حوّا لا تطمئن تماماً . تأخذ كيس القماش والكيس الورقي ، بطقم إليسا في داخله يشعّ ذهبه المكبوت في علبة حمراء مخملية ، وتضعهما في حضنها . تختلس نظرة إلى قطعة القماش الثقيلة المطوية في الكيس ، فيدفق شلالٌ من البنفسج في عينيها . يبتسمُ قلبها . تستحضر في رأسها الصافي قَصَّة الفستان المحكمة . تعيد رسمه بدقّة في خيالها الفعّال . تنزل كاميرا عينها من الياقة الزورقيّة إلى الخصر الضيِّق وتنحدر على طول قالب الحورية ، لتنتهي بالانفراجة السمكيّة . سوف يُبرز الفستان طول قامتها الصامدة ، وسوف يُعزِّز تماسك كيانها اللحمي والشحمي ، في حين سوف يعكس ثراء بنفسجه بياض بشرتها المسفوع بشَفَق طفيف . ثم ترتدي في خيالها طقم إليسا الذهبي . تُحكِم إغلاق العقد في أقصر جزء من السلسة ليؤطِّر جيدها تماماً ، فتظلُّ مساحة فائضة من صدرها المائي مكشوفة ، كما يَبين جزءٌ مراوغٌ من واديها الضيق المحصور بين جبلين شبه متكاتفيْن . لجزء من خيال ، ترتدي حزاماً رفيعاً من الجلد الذهبي بإبزيم معدني مستطيل ، إطاره مرصع بنثار زجاجي . لكن كلا ؛ تخلع الحزام ، إذ تتخيّله على الأرجح يكسر إيقاع النغمة المخمليّة البنفسجيّة المنسابة . ثم قد ينتقص بصرياً من عنصر الإبهار لطقم إليسا . تقف في مرآة خيالها جانبياً ، وتقوم بدورة كاملة ، معاينةً بعيني ذهنها تقاسيم جسمها في الفستان من كل الزوايا . في الصورة الذهنية المُضاءة بالبنفسج المخملي والذهب ذي الفخامة

المستعارة ، ترى حوّا احتمالاً متوهجاً لسعادة قادمة . تراه هو يراها ، يتأملها بعينيه ، وتراه لا يستطيع أن يخفي انبهاره . تطفئ زرَّ خيالها في رأسها المتَّقد بالتوْق والتشوُّف ، وتجمع أغراضها استعداداً للنزول ، بينما تبطئ الحافلة سرعتها تدريجياً للتوقُّف في صافوط .

***

على مدى السنوات الفائتة ، طوَّرت حوّا قدرةً بديعةً على التخيُّل ؛ ليس أي تخيُّل . خيالاتها متكاملة الأبعاد ؛ مكتملة التفاصيل والتقاسيم ، تأتي مع مُلحقات وجزئيّات كثيرة تجعلها ممكنة ، بل ممكنة جداً ؛ فيها طيفٌ من الألوان والأصوات والروائح . وقد تكون الألوان من العجْقة والزحْمة والأصوات من الصخب والروائح من الإزكام ، فيصعب على حوّا في أحايين كثيرة أن تقمعها أو تكمِّمها . وتخال أن الناس يرون ما ترى ويسمعون ما تسمع ، وتمتلئ صدورهم بأنفاس الصباح المختلطة برائحة الياسمين الندي العالق بروحها والمخزَّن في خيالها منذ سنين هرِمة ، يوم كانت تقطفه من الشجيرات الهائجة غصيناتها خارج أسوار البيوت في صويلح ، حين كانت تذهب عند ست قمر .

هذه المقدرة التخيليّة الهائلة لدى حوّا تشكَّلت من خبرة الاقتناء المحدودة والعيش المقطَّر والحرمانات الكثيرة المتراكمة ؛

تماماً كما من خبرة النهارات المفرطة في المشقّة والليالي المُثخنة بالكدر . ولعلها كانت تستعين بخيالاتها شديدة المحسوسية من باب الترجّي والتمنّي ، وللتحايل بها على كوابيس الصحو والمنام . بل مضت حوّا أبعد في شحذ إمكاناتها التخيلية ، فكانت قادرة على اجتراح خيالات سعيدة من وسط عذاب جهنمي . ومع تعاظم العذاب في حياتها ، تعاظمت قدرتها في صوغ الخيال حتى بلغت مستوىً كانت تستطيع معه استقدام كلّ الوجوه والأمكنة والمشاعر الجميلة في تهيُّؤات بهية ، حيية ، ملتهبة ، وتستبقيها فيها ، مجدُولةً في كيانها وحواسها ، طالما لزم الأمر . بذلك فقط ، كانت حوّا تستطيع أن تعيش .

وعاشت حوّا يوم تزوجت . عاشت إنسانة أقل ، لكن خيالاتها خفَّفت عنها ـ نوعاً ما . كانت في السادسة عشرة يوم خُطبت . نايفة ، جدّتها لأبيها زارتهم نهار جمعة . طرقت بابهم بقوة بقدمها في استفتاح الصباح . رفعت حوّا الفُرش واللحف والبطانيات على عجل ، تجنباً للسانها السليط . أفطرت عندهم وتغدّت وتعشّت . وما بين الوجبات ، خبزت لها حوّا صينية حِلبة اشتهتها ، وطهت لها حلوى الرز بالحليب ، كما غلت لها إبريقي شاي بالميرمية ، وقشرت لها تفاحتين قطعتهما إلى حزوز رفيعة ، وثلاث برتقالات ناولتها إياها فصوصاً ، وقشّرت لها نصف كيلو من فستق العبيد ، ونقعت طقم أسنانها ونظفته بالصابون . ولم تنهض نايفة من مكانها على الطرّاحة طول اليوم إلا للوضوء والصلاة ، تتبعها حوّا إلى الحمام بشبشب

الوضوء وببشكير . ولما كانت لا تستطيع أن ترفع رجليها إلى المغسلة ، كانت حوّا تصبّ الماء من إبريق بلاستيك على قدميها داخل لجَن الغسيل ، ثم تقرفص شبه معلّقة فوق أرضية الحمام ، وتفرد البشكير فوق فخذيها وتأخذ قدمي جدتها بالتتابع وتجففهما جيداً . في المساء وبعد أن ازدردت آخر فص برتقالة ومسحت يديها وفمها من الدبق الحمضي ببشكير صغير مبلل بالماء والصابون جلبته لها حوّا ، نهضت نايفة تهمّ بالمغادرة ؛ فساعدتها حوّا في ارتداء ثوبها فوق فستانها البيتي . التفتت إلى رابعة ، قائلةً ، بينما كانت تلفّ حزام الثوب حول بطنها :

- أم نظمي مَرْت الحاج حسين أبو جبريل طلبت حوّا لابنها نظمي .

وتابعت وهي تنفض منديلها في الهواء ثم تعقده حول رأسها :

- الجمعة الجاي كتب الكتاب والعرس بعد شهر!

نهض موسى محتجاً ، فيما ظلت رابعة جالسة على الأرض ، تقرش حزّ تفاحة ببطء :

- كيف بتعطي البنت بدون ما تشاوريني؟

سلّطت نايفة نار عينيها فيه ، قائلة وهي تشبك يديها معاً فوق صدرها :

- عندك اعتراظ يا إبن نايفة؟

وجّه موسى بصره ناحية حوّا ثم زوجته مستطلعاً موقفها ،

لكن رابعة تشاغلت عن المواجهة بالتقاط أنوية البرتقال من على الحصيرة التي تفترش الأرض ، متعمِّدة ألا تبادله النظر . شرح لنايفة بأن حوّا لا تزال صغيرة . فما كان منها إلا أن حاصرته بنظراتها ، حتى كادت تثقب روحه ، كاظمةً سخطها بالقول :

- زْغِيرة؟! هاظ يلّي مزعْلك؟!

ذكّرته بأن شقيقتيها عفاف وساجدة كانتا في مثل سنها تقريباً حين تزوجتا . تدخلت حوّا معلنة بجزع أنها لا تريد أن تتزوج . ليس الآن . ثم ليس نظمي ، فهو «سَرْسَري» ، كما وصفته . هجمت جدّتها عليها وجذبتها من جديلتها الثخينة المربوطة جانبياً ، وأوقعتها أرضاً . دفعتها نحو الحائط ، مسدِّدة صفعات متلاحقة على وجهها ، حتى نزفت من أنفها . ثم تناولت فردة شبشب الوضوء وانهالت عليها . حاول موسى أن يتدخل لكن نايفة صرخت فيه :

- مكانكْ!

تكوَّرت حوّا على نفسها ، كما اعتادت في مرات الضرب الكثيرة ، فطالت سلخات الشبشب ظهرها وساقيها وذراعيها ، فيما كانت تصرخ طوال الوقت : «يمّه! يمّه! يمّاااااااااه!» ظلت رابعة مكانها ، دون أن تلتفت لصياحها ، تضغط على بطنها كما لو كانت مغوصة ، متفاديةً في الوقت عينه أن تلتقي عيناها عيني ابن نايفة .

حين انتهت نايفة أخيراً ، رمت فردة الشبشب الثقيلة على

الأرض ، ونفضت ذراعها في الهواء ، قبل أن تجمع شعرها المُحنّى الذي انتفش تحت القمْطة التي سحلت من رأسها ، لتلفّ المنديل فوقها بإحكام ، وتقول من باب إخطارهم ليس إلا :

- اتفقنا على المهر . أربعميت ليرة .

وواصلت تعطي تعليماتها وهي تنظر إلى حوّا ، التي كانت مُنهنهة من العياط وتمسح مخاطها بكمّها :

- بِتشتروا سنسال وكم غيار عالماشي ، وبِتطلعوا معها في جهازها ماكينة خياطة!

ثم كأن نايفة تذكرت شيئاً يتعيّن عليها القيام به قبل أن تغادر . اقتربت من موسى الذي كان وجهه فقد لونه . حتى إذا صار وجهاهما شبه متلاصقين ، بصقت فيه قائلة :

- تفو عليك . . يا نِجِسْ!

وخرجت .

كان نظمي يعمل في ملحمة العجّوري في سوق المخيم . كان يكبر حوّا بثماني سنوات . وكان قد شاهدها مرّات كثيرة أثناء مرورها في السوق . لكن حوّا كانت تقرف منه ؛ كانت تقرف من صوته المختلط ببلغم مخاطي طوال الوقت وهو ينادي في السوق على أسعار اللحم ، ومن منظره وهو يغرس أبدان الخرفان والعجول التي سُلخت جلودها في الخطافات الحديدية ، ويضرب بيديه اللحوم العارية المدمّاة ، أو وهو يصفُّ رؤوس العجول التي قُطفت من أجسادها فوق مصطبة خشبية كبيرة

منصوبة عند مدخل المحل ، فيحلو له حين تمرّ فتيات المخيم أو نسوتها أن يلعب بآذان الرؤوس المقطوعة ويتغزّل بجمال ابتسامتها ، وقد يبخّ الماء على وجوهها الساكنة لتظلّ عيونها الزجاجية المفتوحة تلمع فتوحي بأنها تلاحق بنظراتها المارة . وبلغ من نقص عقله أنه كان يُخيف الأولاد الصغار الذين يتوقّفون عند المحل مع أمّهاتهم . فإذا ما قرأ الذعر في وجه طفل من رأس عجل ، بلسانه المُدلّى جانبياً من فمه المغلق وعينيه اللتين كأنهما تحملقان فيه ، حمل نظمي الرأس وأدناه من الصغير الفزع أصلاً ، ليصرخ الأخير وينطّ مبتعداً ، فتمطره أم الصغير بالمسبّات :

- يغصّ بالك ما أزنخْ وِجهك! صحيح إنك حيوان!

لكن المزاح البائخ يتوارى مؤقتاً ، حين يصيح أحدهم بأن مفتشي الصحة في السوق ، فيهرع الباعة في محلات الدجاج إلى سحب بعض الدجاجات المشتبه بحالتها الصحية أو وزنها من الأقفاص المزدحمة ، وسط صياح الكائنات المفزوعة التي تملأ قرقراتها ونقنقاتها الجماعية الجو ، كما يشطفون أحواض الذبح ، التي نشف الدم حول زواياها ، بالماء والصابون المبشور الرخيص ، جامعين الريش الذي يسدُّ فتحات التصريف بأيديهم ، فيما يحمل نظمي رؤوس العجول ، التي تستقبل أبخرة الشارع والهواء وقذارات الطريق ، رأسين أو ثلاثة معاً ، يأخذها بكلتا يديه في حضنه ، ويركض بها داخلاً ، مستدِرّاً قهقهات مارّة الطريق وشماتتهم به .

حين هبط نظمي فوقها أوّل مرة ، كادت حوّا تموت اختناقاً . فبخلاف همجيّته في نهْش جسدها الجافل ، تجمّعت في أنفها رائحة زفارة متقادمة كانت تفوح من بدنه الرطب الدَّبق ، مختلطةً برائحة الطلاء الحديث لحوائط البيت المشبّعة بالبرودة ، ورائحة أخرى كدِرة متسلِّلة من لا مكان ظاهر حاصرتها ، اختمر فيها العِتْق والعفونة والاهتراء . استقدمت حوّا في تلك اللحظة أبهى ما يستطيع خيالها أن يُنتج من صور حية فائضة بالفرح ، مترعة بالدفء ، مُسكرَة بالجمال ، وروائح مزدحمة لياسمين الصباح المدلّل والفلّ المغمض وثمار الفاكهة في تباشير نضجها ، إذ تُستثار من نسائم الربيع التي تمسحُ خدودَها المشدودة ؛ كما استحضرت شهوةً أصيلةً مُبتغاةً ومُرتجاة ، مقيمةً في الروح ، واستدعت حُبّاً صبيانياً يُذيب بلادة القلب . دعت حوّا إليها مراد . استجارت بأنفاسه كي تتساقط فوق لحمها فتحرقها دون وجع ، وتتغلغل فيها فتخلخل مفاصل كيانها . في الحلم شديد اليقظة ، دفعها مراد بذراعيه المعضَّلتين على السرير . استلقى فوقها منتشراً على امتداد إقليمها الجسدي ، مغطِّياً مناطق حواسها كافة ، شابكاً ساقيها بساقيه ، فغمرتها رائحته وغطّى لحمه النظيف ، الممتزج بأثر عرق وسجائر مطفأة حديثاً ، لحمها الخائف ، فزال بعضٌ من ذعرها ، وتخفّفت أعضاؤها من تصلّبها ، فكان أن اجتاحها نظمي وهي مستسلمة له تماماً .

كثيراً ما جاورت أنفاسُ مراد أنفاسَها ، يوم كان يأتي إلى

بيت ست قمر لتغيير أسطوانة الغاز . كانت ست قمر لا تسمح لأحد غيره بدخول بيتها . فقد كان يحرص على أن ينتقي لها أسطوانات غاز نظيفة ، لم يأت عليها الصدأ . ولم يكن يغشّها أبداً في وزن الأسطوانة أو كمية الغاز فيها . كما كان حريصاً على التأكد من سلامة الأسطوانة عند التركيب ، وضمان عدم حدوث أي تسريب . والأهم أنه كان مهذّباً ولبقاً ، يمسح باطن حذائه جيداً قبل أن يدخل الشقة ، ويتبع حوّا بخفر إلى المطبخ ، دون أن تقتفي عينه ، من تحت لتحت ، النسوة المنتظرات في الصالون دورهن في أخذ مقاساتهن أو تسليم أقمشتهن أو استلام فساتينهن وتايوراتهن المفصَّلة . ولعل مراد انشغل بحوّا عن ست قمر ونسوتها . وهو أمر لحظته ست قمر لكنها لم تتوقّف عنده كثيراً ، بل كانت تجد متعةً خفيّةً في مراقبة كيف يحتال كل منهما على الآخر كي لا يقرأ ما في نفْسه . كان مراد يسير وراء حوّا ببطء ، حاملاً أسطوانة الغاز الجديدة ، الثقيلة بيد واحدة ، مع ميلان خفيف من جسده ذي البنية الصلدة الفتيّة ، فتستشعر حوّا - دون أن ترى ذلك - عضلات ذراعه المتضخِّمة تكاد تشقّ كُم بلوزته .

تتسارع أنفاس مراد لكنها لا تتقطّع ؛ تأخذ شكل لهاثٍ شبه مكبوت . مرة أخرى ، تشعر حوّا أن نَفَسه المسموع قد يكون له علاقة بها ، وحقيقة أنها قريبة جداً منه ، وأنه يكاد يرتطم بها من الخلف ، أكثر من علاقته بثقل الأسطوانة المتأرجحة في يده . في مرّات كثيرة ، إذ تبطئ حوّا سرعتها عند

دخول المطبخ ، تلامس ساق مراد تنّورتها ، فتُقدح النار في جسدها الصُّواني . وحين تنحني حوّا لتفتح باب الخزانة السفلية بالقرب من الغاز ، في المكان المخصص للأسطوانة ، ينحني مراد بدوره ، فتتجاور أنفاسهما ، كما يكون الكتف قريباً من الكتف ، والذراع على وشك أن تشتبك بالذراع ، ويبدو وجه مراد كأنه سيقسط في صدر حوّا أو ما يبين منه من فتحة فستانها أو قميصها . في مرّات ، تغرس حوّا ياسمينة أو فلّة في زاوية شعرها الذي تفرده إلى الخلف ، بالقرب من إذنها ، حتى إذا تداخلت أنفاسهما اختلطت بالرائحة الزكية لوريقات الزهرة المسكونة بالندى ؛ أو قد تتعمد أن تفكّ زراً إضافياً في القميص أو الفستان ما يتيح لمراد السقوط بخياله بسهولة بين حشيتيها لتتلقفه في قلبها وتستبقيه جوّاتها أطول ما يمكن . وقد تختلس رشّة أو رشّتين من زجاجة عطر ست قمر ، تمسح بها رقبتها فيتقطّر الشذى في حقول رغبته المتبرعمة . وحين يبدأ مراد بفك الأسطوانة القديمة ، يناولها الصمّولة والجلدة ، تفرد له كفها لتلامس أطراف أصابعه راحة يدها الطرية ، فتنقر جسدَها دغدغةٌ ترفعها عن الأرض وهي لا تزال واقفة ، فلا تودّ أن تزول . تشعر أنها قد تقع ، لكنها لا تخشى أن تقع ، بل تودّ أن تقع ، ففي وقوعها طيران عذب ، سلس ، وخفيف .

كان مراد في الثامنة عشرة ، وكان يعمل مع أبيه على بيك أب لبيع أسطوانات الغاز وتوزيعها ، للبيوت والمطاعم المنتشرة وسط أحياء صويلح وصافوط والمناطق المجاورة . كانت حوّا تراه

جميلاً جداً ، ببنطلون الجينز الذي يرسم معالم مؤخرته بجلاء ، والبلايز التي تحدِّد عضلات صدره وبطنه المشطوف تماماً . كان ذا بشرة حنطيّة صافية ، حليقة ، تفوح منها رائحة صابون الصباح وسجائر خفيفة ومسحة مبطنة من عطر مقلد عن «دراكار نوار» . وحين كان يتكلم معها ، تنبعث من فمه رائحة سجائر مالبورو خفيفة ، وأثر لعلكة بنكهة النعناع . على مدى أكثر من عامين ، اكتفيا بتقاطع أنفاسهما وروائح الشهوة خضراء العود والتلامس المقصود وإن بدا عفوياً ؛ استوى خلالهما جسد حوّا وانتفخ صدرها الرغيفي أكثر ، فيما تنقل مراد بين بنطلونات جينز عدة ، متشابهة التصميم ، وشارب موسميّ ، وأوشك مرات كثيرة أن يزلَقَ في انعطافات جسد حوّا . كانا جائعين حين يلتقيان ، وظلا جائعين أكثر حين يفترقان .

يوم خُطبت حوّا ظلت تبكي أسبوعاً . بكت الفراق المحتم لست قمر وبيت ست قمر وحياة ست قمر التي باتت في جوانب كثيرة منها جزءاً من حياتها . وبكت أكثر فراق مراد . في آخر يوم رأت فيه مراد ، لحقت به بعد طقوس تركيب الأسطوانة . نادت عليه وهو ينزل الدرجات يحمل أسطوانة الغاز الفارغة ، صائحة :

- رَحْ أتجوَّز!

وضع مراد الأسطوانة على إحدى الدرجات ، ثم نظر إليها بعينين جامدتين . فعادت حوّا صياغة عبارتها :

- أهلي رَحْ يجوزوني!

تراءى في صوتها المهزوز نداء استغاثة يائس . كانت ترفع كلتا ذراعيها لسفينته الغافلة عنها وسط بحر مدلهم ، عالي الموج . وكان الموت ، موتها ، أقرب مما تستطيع أن ترى . وقف مراد على درجتين ، كأنه سيركض أو يفرّ بعد قليل . ظل ساكتاً يحدِّق في الفراغ ، كما لو أنه يريد أن يستحضر فكرة ما ، لكن لا يعرف ما هي . أخرج سيجارة ووضعها في فمه دون أن يشعلها . ارتجفت السيجارة في طرف فمه ، ثم وقعت منه أرضاً . حينئذ ، انخرط في عياط شديد ، صاحبته شهقات مبتورة ؛ عياط ذكّرها بعياط شقيقها عايد يوم كان يُسلَخ في صباحات الشخاخ . وجدت حوّا نفسها تُشفق عليه ، فنزلت الدرجات كي تكون قريبة منه . توقّف مراد عن البكاء دون أن يقول كلمة ، عيناه في الأرض ، تتابعان فردة حذائه «التوب سايدر» تعبث بورقة علكة مغضّنة . مرت بجانبهما امرأة من زبونات ست قمر . خشي مراد أن تدوس بقدمها الثقيلة على سيجارته المرمية على الأرض فتسحقها ، فانحنى بسرعة ليلتقطها . نفض ما علق بها من غبار وأرجعها إلى مكانها في العلبة . «ست قمر فوق؟» سألت المرأة حوّا ، منقّلةً بصرها بينها وبين فتى الغاز ، غير مُخفِية امتعاضها من وقفتهما معاً . هزت حوّا رأسها علامة «نعم» ، فيما ظلت عيناها معلّقتين بمراد ، تنتظر خطوته التالية . استدار مراد نحوها ونظر إليها بوجه مُفرَغ من أي أفكار أو مشاعر ، قائلاً :

– تأخَّرتِ . لازم أمشي .

حين كان نظمي يقتحم لحمها ، تستنجد حوّا بخيالاتها . كانت تفصل جسدها عن روحها ، وتراقبه يُنتهك دون أن تشعر بانتهاك حقيقيّ لأنه في تلك اللحظة ، لا يعود لها . مع الوقت وتتالي الانتهاكات ، صارت تغادر جسدها تماماً ، وتقف في مسافة بعيدة تراقبه مشفقةً ، وأحياناً تكتفي بأن تكون شاهدةً محايدةً على عذاباته .

نادراً ما خذلت حوّا خيالاتُها . تعلّمت أن تشحذها بطريقة بلغت مستويات واقع حقيقيٍّ جداً ، واقع حدّ السحر أحياناً ؛ فبعد تبدُّد رائحة الطلاء الرثّ ، بلونه الأصفر المائل للبولي ، ظلّ البيت يرزح تحت رائحة نتانة متخمِّرة وعفن مخزَّن في مفاصله المتهاوية . لم تدخل الرائحة في نظام حوّا النفسي والجسدي ، وظل البيت يفوح بياسمينات الخيال وقرنفلات الأيام الممكنات ، وزنابق الفرح المرجحّات في أحلامها ، التي كانت تشمّها وحدها . كان بيت الزوجية قد استأجره نظمي في مكان وسط في مخيم البقعة بين بيت أهله وبيت أهلها ، وهو موقع لم ينطوِ على قيمة أو مغزى . وكان أقرب إلى خرابة ، إذ تنقّل بين مستأجرين كثر ، آخرهم أرملة كانت تربي فيه الصيصان وتصبغها للبيع . كان البيت منخفضاً عن مستوى الطريق ، وكان يُدخَل نزولاً بدرجة واحدة على الأقل . تألّف من غرفتين مفتوحتين على بعض بواسطة خُزق بيضاوي الشكل ، كأنه أُحدِث بانفجار قذيفة في الحائط ، ظل لفترة بعد زواجها بلا بابٍ ، إلى أن اضطرت حوّا بعد أن أنجبت إلى تشذيب جوانب

الخزق، وتركيب باب خشبي سحاب فصّلته على مقاس الخُزق المحيَّر عند النّجار. وكان هناك تجويف كهفي تحوّل إلى مطبخ فيه مجلىً مرتفع وبلاطة إسمنتية عريضة معلّقة اخترقت أحد الجدران عرضياً من المنتصف، فخُصصت كرفٌ وُضع عليها غاز بثلاثة عيون، فيما تحول الفراغ تحت البلاطة إلى مخزن للكراكيب، ركّبت حوّا حبلاً سلكياً مطاطياً بين طرفيها علّقت فيه ستارة من القماش الكتاني الخفيف. أما الحمام فلم يزِد عن جورة مرحاض في الأرض، وحنفيّة نحاسيّة في الجدار، وصَبَّة إسمنتية زلِقة مربّعة، وضعت فيها حوّا كرسياً للجلوس عليه عند الاستحمام أو عند القيام بالغسيل.

اشترى نظمي ثلاجة صغيرة، وسريراً وخزانة مستعملين، لغرفة النوم، ونجّدت له أمّه لحافين، وطرّاحات للغرفة الأخرى، ومساند لأكواع ابنها وأشقائه وأبناء عمومته وأبناء أخواله من أنصاف المتبطّلين وصبيان المحال والسرسريّة على شاكلته، منبطحين على الطرّاحات في الأماسي، ضيوفاً ثقالاً، لتقوم حوّا على خدمتهم؛ دون أن يكتفوا من الشاي، مثنى وثلاث، والبرازق بالسمسم وبزر البطيخ والقضامة والسجائر، التي كانت تصنع ضباباً كثيفاً تتلاشى فيه وجوههم الكالحة وأسنانهم المصفرَّة.

بعد أقل من شهرين من زواجها، أصابت حوّا حكّة شديدة أذهبت عنها النوم وجعلتها تتقلب في السرير بالساعات. تفشت في ذراعيها وساقيها مناطق احمرار هائلة.

ثم غزت جسمها دمامل صغيرة ، بعضها خزّنت ماءً وصديداً . حتى إذا بدأت تنزف من الهرش والخمش المتواصلين ، ذهبت بصحبة رابعة إلى الوحدة الصحية في المخيم . لم تخف الطبيبة قرفها وهي تعاينها عن بُعد بالمسطرة . كتبت لها مطهِّراً ومرهماً ، واستعجلتها كي تغادر عيادتها . عندما سألتها حوّا عن سبب الدمامل والحكة ، أجابتها الطبيبة بقرف أكبر ، وهي تمسح المقعد الذي كانت حوّا تجلس عليه بمحرمة ورقية غمرتها بالسبيرتو : «البقّ» .

قلبت حوّا فرشة السرير على ظهرها ، فارتاعت من النمش الأسود الذي تفشّى في أجزاء كثيرة منها . عاينت السرير ؛ فحصت رأسيته المرتفعة كشاهدة قبر ، والإطار والحواف والزوايا ، لكنها لم تلحظ شيئاً بخلاف انتشار بقع داكنة . قرّبت أنفها من الخشب ، فقبضت عليها رائحة نتونة . بكلتا ذراعيها القويتين ، أزاحت السرير الثقيل جانبياً ، وعاينت الرأسية العريضة من الخلف ، فهالتها التجاويف الكثيرة في اللوح الخشبي ، منخور العصب . نكشت أحد التجاويف المتناثرة كغيوم سوداء دخانية بإبرة طويلة ، فانقشعت الغيمة عن سرب من البقّ زحف بعضه خارجاً . مشت بقّة فوق كفها . سحقتها حوّا بيدها الأخرى فتقيأت الحشرة الميتة دماً . فركت حوّا خشب السرير كله بخرقة مبلّلة بالكاز ، كما أشارت عليها رابعة . فتراجع زحف البقّ يومين أو ثلاثة ، لكنه سرعان ما استعاد نشاطه وعزيمته في نهْش لحمها . أحرقت التجاويف

السوداء بأعواد الثقاب ، بعدما سدّتها بالقطن المغمور بالكاز ، لكن عشرات الأعشاش من بيوض البق انتشرت في تجاويف أخرى . طلبت من نظمي أن يتخلص من السرير ويشتري آخر ، لكنه رفض . «انجنّيتي؟!» تساءل مستنكراً ، زاعماً بأن السرير جديد ونظيف ، وبأنها هي الموسوسة . ثم كشف لها ذراعيه الموشومتين بآثار ضربات أمواس قديمة ، مقدِّماً لها البيِّنة على عدم وجود بقّ ، وإلا لكان نهشه .

ذات ليلة ، حين بلغ النهش والنزف في جسد حوّا مستوى غير مسبوق ، أيقظت نظمي فزعة . «رَحْ أموت» ، كانت تصرخ . رفع نظمي رأسه نحوها بغضب ، ثم زمّ فمه وعضلات وجهه ، وركلها بقدمه بعنف ، فطاحت على الأرض . «انقلعي من هون!» قال لها ، واستدار إلى الجهة الأخرى ونام . ظلت حوّا مقعيةً في مكانها إلى أن أطل الصباح من الشباك . عقلها لم يكن يفكر بشيء أو يرى شيئاً سوى وجه نظمي . أعدت له فطوره بصمت ، وصبَّت له شايه دون أن تنظر في وجهه . حتى إذا غادر البيت إلى الملحمة ، ذهبت إلى المطبخ واستلّت سكين اللحم الكبيرة ، وتوجهت إلى السرير . عرّت الفرشة من غطائها ثم غرست السكين في وسط قلبها ، فبقبق اسفنجها المصفرّ . ثم شطرت الفرشة إلى نصفين وألقتهما أرضاً . عادت إلى المطبخ ، وسحبت المهدّة من مخزن الكراكيب . كانت المهدّة ثقيلة ، فشالتها بصعوبة وسارت بها محنية الظهر إلى غرفة النوم . تأمّلت السرير جيداً ، ثم استنفرت قوّتها ، ورفعت المهدّة

بكلتا يديها وأنزلتها على الرأسية ؛ فتكسّرت قطعة منها ، وطارت في الهواء . شعرت حوّا بأن ظهرها سوف يُقصَم من الألم . لكنها تماسكت ، وحشدت كل ما في قلبها من ضيم ، ورفعت المهدَّة عالياً قبل أن تنزل بها بقوة على الرأسية ، فتحطمت جزئياً ، ثم أتبعتها بضربة أعنف ، فانفصلت عن السرير . أصبحت المهدَّة الآن أخفّ وزناً ، وأيسر رَفعاً ، فواصلت حوّا تحطيم السرير . كسّرت إطاره ، وكسّرت الشبك الخشبي الذي كان يسند الفرشة ، وكسّرت قوائمه . تناثر غبار الخشب في جو الغرفة ، كما طارت بعض المسامير ، في الهواء ليستقر أحدها في شعرها ، وينغرس آخر في جزء من باطن قدمها ، نزعته بقوة دون أن تجفف الدم الذي سال منها .

حين انتهت أخيراً من الإجهاز على السرير ، حملت أشلاء جثته المتكومة على الأرض ، ونقلتها على دفعات إلى ساحة تجميع الزبالة في المخيم . ثم حملت نصفي الفرشة المشطورة على ظهرها وكتفيها وألقتهما فوق كومة الخشب . رشّت على الكومة كازاً وأشعلتها ، وسط تجمُّع العشرات من أطفال المخيم ، ممن استثارتهم النار ودغدغ صوت طقطقة الخشب الذائب أسماعهم ، فعمدوا إلى تأجيجها أكثر بإلقاء أوراق وعيدان خشبية وغصينات في كتلة اللهب المتصاعدة . وحين تأكدت من أن النار أتت على السرير تماماً ، مشت حوّا منتصبة الأحاسيس إلى لحّام في أول السوق ، اشترت منه كبدة خروف . ثم عادت إلى البيت ، فكنست الغرفة من رمال

الخشب والمسامير ، وشطفت أرضية البيت بالماء والكاز ، وسخنّت ماء ، واستحمت ودعكت شعرها وجسمها بالصابونة النابلسية . وبعد الحمام قطعت الكبدة إلى مكعبات ، وقلتْها مع بصلة مفرومة بزيت زيتون ، وأكلتها كلها مع رغيفي خبز . ثم جلست على طرّاحة تنتظر نظمي .

لم تفعل حوّا شيئاً فيما تبقّى من اليوم سوى الانتظار ، الذي كانت تعرف جيداً ما سيترتّب عليه . حين عاد نظمي إلى البيت بعد المغرب ، وسألها عن السرير ، غرست عينيها في عينيه ، وأجابته دون أن تطرف :

- كسّرتُه وحرقتُه .

ظل بصرها مثبتاً فيه ، حتى حين سحب قشاطه من عُروات بنطلونه بغضب وأفلته عليها :

- والله لأَربّيكي يا بنت الكلب!

سقطت ضربات القشاط على بدنها بعنف ، رنّ معه جلدها وطقطقت عظامها . لكن حوّا مع ذلك لم تصرخ ، لم تَصِح ، ولم تند عنها آهة واحدة . لم تحاول أن تغطّي وجهها بيديها أو تنكمش على لحمها . طوال الوقت ، الذي بدا طويلاً جداً ، كانت حوّا تتطلّع في وجه نظمي ورقبته التي انتفخت فيها الشرايين ، فاغتبطت داخلياً لغضبه الممزوج بالعجز التام . ومع هبّات القشاط فوق جسدها ، كانت تُرخي جفون قلبها على حفيف تنّورتها التي تصطك بها ساق مراد من الخلف ؛ فتسمح لدغدغة القماش بأن تدوِّخ روحها ، ولا تفكر بأن تقاومها .

بدا نظمي مشوَّشاً وهو يرى عيني حوّا مصوَّبتين عليه ، لا تتزحزحان من مكانهما . ثم حلّ الرعب محل التشويش . لم يستوعب كيف أنها لم تتوجّع ، أو على الأقل تخاف . رمى القشاط الذي انفكّ إبزيمه المعدني على الأرض ، وخرج . استلقت حوّا على الطرّاحة وغفت . نامت بعمق ، حتى إذا صحت بعد منتصف الليل ، وحاولت النهوض ، لم تستطع . ساقاها كانتا كأنهما مثبَّتتان في الأرض بمسامير ، وكذلك ظهرها وذراعاها . همّت بأن ترتكز على أحد جانبيها كي تقوم ، فلم تتمكّن . كان الألم ، الذي اختُزن فيها من المهدَّة ومن ضربات القشاط ، قد استبدّ بها ، وتمكَّن في كلّ بقعة منها ، فتضعضع جسدها وتصلَّب وتقَسّى ، حتى شعرت بأن لحمها يوشك أن ينفصل عن عظمها .

لم يكن نظمي في البيت ، فقدّرت حوّا أنه بات في بيت أمّه كي تعلفه . حاولت أن تغفو ثانية ، لكنها لم تستطع . ناغش الهواء التشريني الستارة المُنسدلة فوق النافذة نصف المفتوحة ، فأصابت جسدها المطروح أرضاً لطشات باردة . حاولت أن تثني ساقيها المفرودتين إليها لتتدفأ قليلاً . شعرت بالبرودة تطلع من الأرضية ، وتخترق الطرّاحة الهزيلة فتطعن ظهرها . أصابتها قشعريرة . بحثت حواليها ، دون أن تتحرك ، عن بطانية أو غطاء تضعه فوق جسدها ، فلم تجد . ظلت مُنسطحةً بفستانها البيتي ، حتى رشحت شمس الصباح من خلال مسامات الستارة الرقيقة . وما بين وجه الليل العابس ،

بارد العواطف ، وجبين النهار المحايد ، تدفأت حوّا على صوت شيّ حبّات الكستناء الواعدة ، التي تستوي على مهلها على الصينية المعدنية الصغيرة لصوبة البواري في بيت ست قمر . ثم شربت كوب بابونج حار بثّ في جسدها دفئاً حييّاً . وفي آخر الليل ، وبينما كان جسمها يهذي مطوطحاً بين الحرارة والبرودة ، مكتسياً بطبقة من العرق المرّ ، جاء مراد وتمدّد إلى جوارها ، تفوح من وجهه الحليق النظيف رائحة زكية من خليط الخزامى وحصى البان ، متعمّداً - كلّ التعمُّد - أن يجعل بنطلونه الجينز يحتك بفستانها ، فلفّها دوار ، ووقعت على الأرض وقوعاً عذباً لطيفاً ، لم يتوجّع معه لحمها أو عظمها . وإذ ازداد الألم في ظهرها ، الذي تيبّس أكثر فوق الطراحة شبه الملتحمة بالأرض الباردة ، فتحت حوّا عينيها على السقف الأزرق شاهق العلو ، كسماء لا يشوبها غيم ، في المسبح المغلق الذي أخذتها إليه ست قمر . رفعت حوّا صدرها وقوّست ظهرها ودفعت ساقيها إلى الأمام ، بناء على إرشادات ست قمر ، فطفت فوق سطح الماء المتخيَّل في الغرفة . وزنها أصبح خفيفاً جداً . جسمها كأنه تقشّر من كل فائض العذاب . لم تعُد تشعر بالطراحة تحتها ، ولا ببرودة الأرضية المتسرِّبة إلى أضلاعها من الطرّاحة . أصبحت فوق الأرض فعلياً ؛ على سطح الماء أو الهواء ، ومن حولها موجٌ لطيف يُدلِّك أطرافها المتصلِّبة ، ويطرّيها .

ما إن جاء العصر ، حتى وقفت حوّا على قدميها . وحين

عاينت مكان السرير الفارغ ، شعرت بالرضا التام عن نفسها . وشعرت بالجوع أيضاً .

***

تحبّ حوّا بيوت صافوط . وتحبّ كثيراً المشي في الطرقات الملتفَّة فيما بينها التي تؤطِّرها أشجار السرو .

كثير من بيوت البلدة حافظ على حجارة الماضي غير المهذَّبة ، وهناك بيوت تعاقبت عوامل الطبيعة على جدرانها المكشوفة ، غير الملبَّسة بالحجر ، فاستحال الطلاء الأبيض الشيدي إلى بيج شاحب والعقيقي إلى زهري مترَب ، والبصلي إلى أصفر رملي .

لكن الشتاءات الكثيرة على قسوتها لا تبدو قادرة على أن تقهر هذه البيوت ، إذ تظلّ ، بالنسبة لحوّا ، موئلاً للعيش الهانئ ومستودعاً للحيوات الدافئة بالشرفات التي تزيِّن فسحاتها أصص النباتات الخضراء المشذَّبة والمقصوصة الزوائد ؛ والمصطبات العريضة المبلَّطة التي تبدو دوماً مغسولة ؛ والدرجات المزنَّرة بالدرابزين المعدني المزخرف والمطلي بالأسود اللامع ؛ والشبابيك المزوَّدة بشبكات حماية ، تتخايل من ورائها الستائر ، نصف المفتوحة ، تُهفهف بدعَة ؛ وممرّات المداخل المحفوفة بشجيرات الورد ، بأزرار الورود في حناياها مغمضة ، باحتمالات لونية مطفأة وربيع مضمر ؛ والأسوار الإسمنتية

والسلاسل الحجرية التي تحدّ حواكير البيوت الصغيرة ، حيث أشجار الزيتون والتفاح والليمون والمشمش ، بقممها وقببها الشعثاء وأغصانها الكثيفة ، تحمل وعداً مؤجلاً بالإثمار ، ويكون كانون الأول رحيماً بها ، فلا تفارقها أوراقها تماماً ، وتظل محتفظةً بخضرتها وإن شحبت أو بهتت أو كشّت أو احترقت بعض وريقاتها من البرْد . ثمة أشجار ، كالكرز تُوشَم أوراقُها بحمرةٍ برتقالية ذات مسحة غروبية شجيّة ؛ وأشجار ، كالعنّاب ، تصطبغ وريقاتها المكرمشة بلون نبيذي قانٍ ، فتضفي على المشهد الشجري الكانوني العام عنصراً لونياً يكسر جهامة الشتاء ؛ وهناك أشجار تقف عاريةً تماماً من أوراقها ، فتبدو كئيبةً ، منطوية على أغصانها المتقصّفة ، وبعضها تبدو مخيفةً تشي بالمَوات ، كأشجار التين التي تنحني على أسوار البيوت بجذوعها الأسطوانية الرمادية الجرداء ، كخيالات شبحية ، وأغصانها المتشابكة المفرّغة تماماً من الوريقات تنشد الشمس الشحيحة ، لكنها مهما تحاول الارتقاء تظلّ محنيّة .

من الشارع ، في المكان الذي تنزلها الحافلة فيه ، تتعمّد حوّا أن تقطع طريقاً ملتوية ، طويلة ، قبل أن تصل إلى بيت درّة العين . والطريق التي يُفترض ألا تأخذ منها خمس دقائق قد تتخطّى ربع ساعة ، وهو وقت تقضيه في تملّي البيوت وحواكيرها وحدائقها الصغيرة التي ينسّقها أصحابها بطريقة مرتجلة وعفوية في الغالب . تشعر حوّا أن أياً من هذه البيوت يمكن أن يكون لها ، وإذا قُدِّر لها أن تعيش فيها ، فلسوف تستطيع أن تعيش حقاً .

- وينك يا أم قيس؟

تستقبلها درّة العين بنظرات تعاتبها على تأخّرها . تعانقها حوّا بمودّة ، وتقود نفسها إلى صالون الضيافة الذي تعرفه . «معلش . كنت في صويلح» ، تقول لها وهي تخلع حذاءها عند مدخل باب الصالون ، وتتابع : «عارفة السوق وعجقته» . تخلع أيضاً معطفها والشال الصوفي والإيشارب وتلقيهما على كوع إحدى الكنبات ، قبل أن تجلس على كنبة عريضة ، وتضع الأكياس إلى جوارها . تستأذنها درّة العين لإحضار الشاي . تمدّ حوّا ساقيها ، تستشعر راحةً ودفئاً هائلين ، إذ تغوص قدماها في السجادة التركية المزينة بنقوش شرقية يغلب عليها اللون البني بدرجاته ، المعشّق بالذهبي .

فرشت درة العين في الصالون طقم كنب ، خردليّ اللون ، متعدِّد القطع والأجزاء ، مرتَّبة على شكل حَدْوة ، بظهور الكنبات تحدّها أطر خشبية عريضة ذات زخارف أرابيسكية . كانت طرابيزة المنتصف الرئيسية مربعة وكبيرة جداً ، أقرب إلى طاولة طعام قزمة ؛ اعتادت درة العين عند استقبال النسوة في الجَمْعات أن تضع عليها معظم أشكال الضيافة من فواكه ومكسّرات ومعجّنات وحلويّات وعصائر مبرَّدة في شافات زجاجية .

تدخل درّة العين على حوّا تحمل صينية كبيرة عليها إبريق شاي أنيق واستكانتين مذهبتي الحواشي ، وصحن بزر ، وصحن آخر فيه كعك بالتمر ، وثالث فيه برتقالتان وتفاحتان

وموزتان . تلملم حوّا ساقيها المرتاحتين وتخرج من الكيس الأخضر مرايبل مدرسية ، تفوح منها رائحة قماش مقصوص ومخيط حديثاً . تفرد حوّا المرايبل الثلاثة المكوية على كنبة مجاورة ؛ اثنان منها أزرقان والثالث أخضر تركوازي . تتفقد درّة العين المرايبل برضا ، وتشكو نموّ بناتها السريع فلم يعد شيء يدخل فيهن . لكن درة العين لا تبدو منزعجة من هذه السّنة الحياتية النبيلة . فهي فخورة بخلفتها ، وفخورة أكثر بتضخّم عيالها ، طولاً وعرضاً . في الخامسة والثلاثين من العمر كانت قد أنجبت ثلاثة صبيان وثلاث بنات ، وتريد أكثر . لم تتبدل درة العين كثيراً منذ أن عرفتها حوّا . فقوامها اللين الناعم ، لا يزال ليناً ناعماً ، ووجهها البهي لا يعدم ينثر ذاك النور الأخّاذ في أي حيز يقع ضمن نطاقه ، ثم كأن بشرتها لم يقاربها الزمن يوماً ، فلا تزال تحتفظ بملمسها الرضيعي ، وإن اكتسبت نسيجاً مخملياً أمارةً على النضج لا الكِبَر .

من شبّاك الصالون العريض ، بستائره المفتوحة ، تلمح حوّا جارة درة العين تتفتّل في حديقة بيتها الصغيرة المسوَّرة بسلسة حجرية واطئة . تلفّ الجارة شعرها بإيشارب أخضر بارد معقود إلى الخلف . يسحل الإيشارب من على رأسها قليلاً ، وتفلت خصلة كستنائية من تحته تغطّي نصف وجهها الحنطي وهي تنحني فوق أحد الأحواض تنكش تربته الطينيّة ، ومن خلفها تتثنّى شجرة ليمون حتى تكاد تتوكأ على كتفها . للحظة تتجمَّد الصورة ، وتذهب حوّا إلى زمن آخر قادم ، زمنها هي

وشيك الحدوث . ترى حوّا نفسها تقف في الحديقة بإيشارب أخضر ربيعي تظللها جزئياً شجرة ليمون ، ثمارُها ذات التجمعات العنقودية تختبئ بطونُها الخضراء اليانعة بين الوريقات الطولية . تتأمل حوّا وجهها في الصورة الآتية فترى المرأة التي نسيتها ، المرأة التي لم تكُنها يوماً . ترى حوّا امرأةً جميلة . ترى امرأةً سعيدة . تكتسي الصورة فجأة بالضباب ، فتلتفت حوّا إلى يد درة العين الممدودة إليها باستكانة الشاي ، يتصاعد بخار السائل الأحمر النقي إلى أنفها . تسحب رشفة قصيرة ، تستطعم درجة الحلاوة المناسبة .

سوف تتصل بمنير . سوف تقول له بفرح إنها اشترت طقم روميو وجولييت . سيكون أول شيء يدخل «بيتنا» . سترتبه في البوفيه . وقد لا تضع شيئاً آخر في البوفيه . وسوف ترتدي الفستان المحوك من موج مخملي ، والذي صممته وقصته ، وأعادت تفصيلته ، في خيالها مرات ومرات . نعم سيكون لها بيت ؛ بيت لها تحبّه ، ويليق بأن يحتويها ، ويحتوي أمنياتها المحدودات . تقطع درة العين سيل خيالاتها . تسألها وهي تمسد بكفها نهر البنفسج الهاجع في الكيس :

- إيمتى رَحْ تفرحي يا حوّا؟

تحبّ حوّا درة العين وتحبّ بيتها ، الذي تفوح منه رائحة سعادة ، وتحبّ شايها نقيّ الحُمرة المطعَّم بالميرمية العابقة شتاءً والنعناع هائج الاخضرار صيفاً .

كانت درة العين قد أمضت السنوات العشر الأولى من

زواجها في مخيم البقعة . ثم انتقلت إلى صافوط بعدما أعطى الله زوجها دون حساب ، فأصبح أحد أكبر تجار الخضار في سوق المخيم . روت درة العين لحوّا أنها حلمت ذات يوم ببيت صغير مع حديقة على قدّه ، وأجمل ما في البيت مظلّة من حجر القرميد ممدودة فوق مدخله ، وبرندة معلّقة . حين صحت من النوم وقصّت الحلم على زوجها ، أحضر لها ورقة وقلماً وطلب منها أن ترسم صورة البيت الذي رأته في المنام ، ثم أخذ الرسمة وقال لها : هذا سيكون بيتك يا درة عيني . «وهاي صار بيتي» ، قالت درة العين لحوّا ضاحكة ، وهي تحاول أن تطوّق بيتها بيديها كأنها لا تزال غير مصدّقة .

لم تكن درة العين مجرّد زبونة ، فحوّا ليست معتادة على زيارة زبوناتها في بيوتهن أو توصيل أشغال الخياطة لهن . حقيقة الأمر هي أن حوّا أغرمت بالمرأة الفاتنة ، كما يمكن للغرام أن يكون في أبهى صوره . التقتها حوّا أول مرة قبل أكثر من خمسة عشر عاماً . جاءتها الصبية درّة العين مع أمّها يسبقها السرور . قالت لها إنها مخطوبة ، وهو أمر لم تحتج أن تقوله ، فقد كانت تلعب بالدبلة في إصبعها بزهو . كانت درة العين نحيلة ، ببشرة سمراء ذات ومضة نحاسية مائية . يقيناً لم تكن جميلة بمعنى الجمال الفلاحي المرغوب . وجهها المنحوتة تفاصيله بحدّة ، كان فيه شيء خلاب ، يقبض على القلب والبصر ، وشخصها ككل ، كان ذا وجود لطيف ، سطوته الطاغية كمنَت في خفته المتناهية . كانت درة العين ساحرة . لوهلة اعتقدت

حوّا أن سحرها له علاقة بعينيها العسليتين شديدتي الاتساع ، أو صباحها العريض المغطى بغُرَّة برونزية كثيفة ناعمة ، أو ربما بسبب شفتيها البيضاويتين المنتفختين ، كأنهما محقونتان بالماء ، أو ربما الأمر له علاقة بأسنانها المرتّبة ، الكبيرة دون فجاجة ، ناصعة البياض ، حتى إذا ابتسمت أو ضحكت التقى بياض أسنانها ببياض عينيها اللؤلؤي الشرِه ، فضوت صفحة وجهها ، أو لعل السحر مبعثه اسمها الفاتن ، درة العين ، الذي وشى بحكايات الكتب البعيدة .

لكن حوّا أدركت ، ببعض الفطنة والإحساس ، أن الأمر له علاقة بالحب . فدرة العين كانت عاشقة وكانت معشوقة . وحكاية العشق التي جمعتها بفارس تردّدت في جنبات مخيم البقعة ونواحيه ، بل يقال إنها قطعت حدود المخيم ، فزارها صحفيون كثر يرومون تدوين حكايتها ، حتى إن مخرجاً فلسطينياً يعيش في بريطانيا أراد أن يصنع فيلماً عن فارس ودرة العين ، وكان من المقرر أن يجلس معها بالساعات لتسجيل وقائع الحكاية ، لكن درة العين بعد تفكير لم تستحسن الفكرة . خشيت - كما أسرّت لحوّا - أن تنال العين الحاسدة ، عبر الشاشة ، من حياتها .

خاطت حوّا لدرة العين الفستان الذي ارتدته ليلة الحناء ، والذي ظلّ حديث النسوة ، لأنه ، في الأساس ، خالف الذوق السائد . فلم يكن من الحرير المتكلِّف أو الساتان الصارخ ، ولم يكن مُفضَّضاً ولا مُذهباً ولا مُؤلَمساً ، كما لم يكن لونه صقيعيّاً أو فاقعاً . خلا أيضاً من الخرز والترتر والكريستال الزجاجي ،

كـمـا تجـرّد من الكشـاكش والتنورة النفّـاشـة وبطانات التـول المضخّمة ، وتنزّه عن كل البهارج العرائسية . هذا ليس فستان عروس ، احتجّت أم العروس في البدء . لكن حين ارتدته درّة العين ومشت به ، طلعت أميرة خيالية بحق ، أو بالأحرى طلعت درة العين .

كان الفستان من المخمل . وكان ترجمةً أمينةً لما يجب أن يكون المخمل عليه ، على طريقة ست قمر ومن بعدها حوّا ، دون إضافات إلا ضمن الحدّ الأدنى على نحو يعزّزه لا يقمعه . رجت درّة العين حوّا أن تنزل معها إلى وسط البلد في عمّان لشراء القماش . فانتقت لها حوّا أجمل قطعة مخمل وأغلاها ، بلون خمري ذي مزاج باذخ ، وإن كان مراوغاً بعض الشيء . كان الفستان بلا أكمام ، وبلا حمّالات ، محوّطاً درّة العين تماماً من صدرها ، منساباً حسب انحناءات جسدها السّلِسة ، ملتصقاً بخصرها الملموم وبطنها المستوي ، حتى إذا ما بلغ الفستان خط البطن النهائي انفتح في تنورة طويلة واسعة ، «دَبل كلوش» ، كبحرٍ شاسع المدى ، بطبقات من الموج الكثيف ، بعضها ينثني فوق بعض ، تضرب موجةٌ أخرى ، فتتدحرج موجاتٌ أخريات تباعاً في حركة تشهد تبدُّلاً في مزاج اللون ، إذ يتنقل الخمري بين الضوء والظل ، متأرجحاً بين النبيذي المعتّق والعنابي والطوبي والكستنائي والكرزي والقرمزي . بطانته الحريرية ، بدرجة الخمري ذاته ، أكسبته حجماً وتناغماً أكبر ، فبدت أمواجه هادرةً . وحين اختالت فيه

درة العين بدت كأنها طالعة من اليمّ . إضافة واحدة للفستان رأتها حوّا حميدة ، فقد أطّرت خطّ الصدر ، المشكّل على هيئة قبّتين ، بدانتيل أسود رفيع فتبدّى كالكحل غامق السواد حول العين . صنعت حوّا من بقايا القماش زهرات خمرية صغيرة ، وطرّزت في منتصف كل منها دمعتين من اللؤلؤ ، غرستها درّة العين في شعرها البرونزي الذي رفعته على شكل شنيون متموّج . واكتفت العروس ، كإكسسوار ، بطوْق من اللؤلؤ حول رقبتها ، وزوج أقراط تدلت منه لؤلؤة كمثرية كبيرة ، انعكس بريقها على بشرتها المظللة بالنحاسي .

لا تزال درّة العين ، حتى اليوم ، تحتفظ بالأثر المخملي العشقي لتلك الليلة . لم يعد الفستان يدخل في جسمها ، الذي أورق عيالاً وحياةً وحباً مديداً . ومع ذلك ، لم تستطع التفريط فيه أو حتى إعارته لعرائس كثيرات طلبنه منها . حتى حوّا لم تخط مثله ، فنساء المخيم اللاتي يستغلين المخمل النقي ويستهجْنه ، أو يستخففن باحتمالاته وإمكاناته ، أو يقايضنه بأنواع مخملية مهجَّنة أو ذات نفحات بوليسترية ، يفوتهن إدراك القيمة الحقيقية للمخمل النبيل ؛ بأنه عاطفي وبأنه سرمدي . من وقت لآخر ، تتفقد درّة العين الفستان الذي تحتفظ به معلقاً في الخزانة في كيس واقٍ ، كجراب طويل له سحّاب ، تنساب يدها فوق أمواجه المطوية ، فيهدر عبابٌ مخملي خمري في روحها . تشمّ القماش الكثيف ، تتنسّمه ، فتُترع بالرغبة .

كانت درة العين في الرابعة عشرة حين أُغرم فارس بها .

كان فارس أكبر منها بست سنوات ، وكان يعمل في محل خضار يبيع بالجملة للمحال الأخرى وعربات الخضار في السوق مشرفاً على تلقي الطلبات وتسليمها . ما إن وقعت عيناه الغافلتان في عينيها الواسعتين ، بأطنان العسل الوفيرة فيهما ، حتى ذاب فيها على الفور . كانت درّة العين في طريق عودتها من المدرسة ، وكان شعرها البرونزي ، المائل للشقرة الشمسية ، مضفوراً في جديلتين تتدليّان فوق صدرها الممسوح ، فيما هفهفت غرتها الكثيفة فوق جبينها يلاعبها الهواء بعفوية . توقّفت عند محل لبيع العصائر والبوظة . اشترت قرن آيس كريم فانيلا ، لحست منه أثناء سيرها . حين لمحت عيني فارس تلاحقانها ، حاولت أن تسرِّع خطوها ، فلطَّخت بقعة آيس كريم أرنبة فمها ، لتمدّ لسانها الصغير وتمسحها . في تلك اللحظة ، سقطت الشمس على نصف وجهها فتوهّجت تمثالاً من الذهب الخالص في أحد شقيه ، فيما بدا الشق الثاني ظلاً له نحاسياً . عندئذ انزلق فارس في أعمق نقطة من بئر روحها ، ولم يشأ أن ينهض كما لم يسعَ إلى أن يرمي له أحد حبلاً لينقذه . تبعها إلى بيتها . سألها وهي تفتح الباب عن اسمها ، فلم تجب . «مش مهم!» قال لها ، وأضاف بثقة زعزعت كيانها الصغير : «اعملي حسابك! رَحْ تكوني لإِلي!» .

أرسل فارس أمّه في اليوم التالي كي تخطبها له ، فرجعت تحمل رفضاً صريحاً من أهلها . «لسّه صغيرة» ، قالوا لها . كانت درة العين وحيدة أبويها بين خمسة ذكور . وكان والدها يملك

محل بزورية في المخيم لبيع البن والزعتر والبهارات . انتظر فارس عاماً ثم أرسل أمّه ثانية . قالوا لها إنها لا تزال صغيرة . وبعد عام ، طرقت أم فارس بابهم ثانية ، فأجابتها أم درّة العين بجفاء أنهم لا يفكرون بتزويجها الآن . وفي العام الرابع ، بعدما أنهت درّة العين دراستها الثانوية ، ألحّ فارس على أمّه كي تقوم بما يتعيّن عليها القيام به ، فجرجرت المسكينة نفسها إلى بيت أهل درّة العين غير المضيافين وهي تعرف ما ينتظرها . هذه المرة قالوا لها إن ابن عم درّة العين طلب يدها ووالدها وافق . فما كان من فارس إلا أن اعتلى سطح أحد البيوت قبالة بيت درّة العين صارخاً : «أنا بحبْ درة العين وبِدّي أتجوّزها . أنا بحبْ درّة العين ، بحبْ درّة العين ، وبِدّي أتجوّزها . يا ناسْ أنا بحبْ درّة العين» . التمّ الناس في الزقاق ينظرون إليه مستغربين ، وضاحكين . ظنوه أهبل أو خالعاً . أهل درّة العين أغلقوا شبابيك بيتهم . «آخرتها رَحْ يِخْرس» ، قال أبوها . لكن فارس ظلّ يعتلي السطح كل عصر ويصيح بالساعات : «بحب درّة العين وبِدّي أتجوّزها» . ظلّ على صياحه ثلاثة أيام متتاليات . وفي اليوم الرابع ، أنزله أشقاء درّة العين من على السطح ، وأعملوا فيه ضرباً وتحطيماً في الشارع وسط الناس . كانت درّة العين تراقب المشهد المؤلم من نافذة غرفتها ، وتبكي بصمت . وكلّما طاولته لكمة أو رفسة من أحد أشقائها الغاضبين ، كان قلبها العاجز ينسحق من الوجع . لأكثر من أسبوع ، لم يكن فارس قادراً على المشي . حتى إذا استعاد بعض عافيته ، اعتلى السطح ثانية

وصار يؤذّن بحبه لدرّة العين . في الليل ، وبينما كان عائداً إلى البيت ، خرج له أشقاؤها في العتمة ، وحرصوا على أن يجعلوه يراهم ويرى عيونهم المحمّلة بالنقمة عليه ؛ حتى إذا حاصروه تماماً ، غرس أحدهم سكيناً في بطنه . في المستشفى دعت أمه على درّة العين وعلى أهلها بأن يهلكهم طاعون . لكن فارس الذي نجا لأن السكين لم تمزّق أحشاءه الداخلية ، رفض أن يعطي الشرطة اسم الشخص الذي اعتدى عليه أو وصفه . كان ملثّماً . قال في إفادته . وحين حاولت أمّه أن تثنيه عن تستّره عليهم ، قال لها غامزاً : «معقول يمّه أشكي على نسايبي!» .

قبل يوم من كَتْب كتاب درّة العين على ابن عمها ، طرق فارس باب أهلها بثبات . فتحت أمّها الباب ، فأبصرته يقف متحدياً يحمل في يده جالوناً بلاستيكياً ، دلق ما فيه على رأسه ، فتبلّل شعره ووجهه وملابسه بالكاز . ثم أخرج من جيبه ولاّعة وقال للمرأة الذاهلة بأنهم إذا لم يعطوه درّة العين اليوم فسوف يحرق نفسه أمام بيتهم . تجمع الناس حول فارس ، ساعين إلى إقناعه بالعدول عن فعلته الشنيعة . رجالات مشهود لهم بالحكمة في المخيم حاولوا أن يأخذوا الولاعة من يده ، أو يسحبوه بعيداً عن باب بيت درّة العين . لكن فارس هدّد كل من يحاول الاقتراب منه بأن يولّع فيهم وفي نفسه . إذ حاصرت الأصوات الحكيمة والد العروس ، رضخ أخيراً لطلب فارس ، ووعده بأن يكتب كتابه على درّة العين خلال يومين . بل الآن ؛ قال فارس بتصميم ، فطلب منه أهل الحكمة أن

يغتسل من الكاز على الأقل ، لكن فارس أصر بأن يعقد المأذون عليه وعلى عروسه «الساعة» ، وهو منقوع بالكاز . تقول الحكاية ، التي اكتملت تفاصيلها وفاضت واكتسبت زوائد كثيرة في ليالي السمر في بيوت المخيم ، إن المأذون غطى أنفه وهو يعقد على فارس ودرّة العين ، وأن العريس ، الذي ظل واقفاً ولم يُسمح له بالجلوس على الكنبة ، لم يفلت الولاّعة من يده طوال قراءة الفاتحة . وذهبت نسخة من الحكاية إلى أن والد درّة العين كتب على فارس مهر خمسة آلاف دينار ونصف كيلوغرام ذهب ومؤخَّر صداق عشرة آلاف . وفي نسخة أخرى أن المقدَّم عشرة آلاف وكيلوغرام ذهب والمؤخَّر عشرون ألفاً . لكن وإن تعدّدت نسخ الواقعة واختلفت في التفاصيل ، فإن شيئاً واحداً أجمع عليه أهالي المخيم وهو أن عريس الكاز ، كما لقبوا فارس ، كان أسعد رجل في ذلك اليوم .

بعد عام من خطبة الكاز ، تزوج فارس درّة عينه في حفل دام ثلاثة أيام ، نُصبت فيه خمسة شوادر أمام بيت فارس ، سدّت طريقين ، وتزلزلت الأرض على وقع أقدام مئات الدبيكة من شباب المخيم ، يخبطون الأرض بقوة العشق ، فيتطاير الغبار في الجو ، ويتقاطع مع حُزم أضواء الزينة ، لتبدو ذراته العالقة في الهواء كنثار من ذهب .

في أيام البهجة تلك ، كان من الصعب أن يغفل المرء عن استشعار تلك النشوة الجماعية المتأتّية من انتصار الحبّ ، ولو لمرّة واحدة في التاريخ .

(٤)

تنزل حوّا من الحافلة عند مدخل سوق المخيم . رغم الأكياس الثقيلة التي تسحب ذراعيها إلى الأسفل ، فإنها تشعر بخفّة كبيرة ، كأن عبئاً بوزن جبالٍ شاهقات يتساقط عنها تباعاً . إلى جانب الكيسين اللذين يحتويان قطعة القماش وطقم إليسا ، تحمل كيساً ثالثاً أعطته لها درة العين فيه ست رمّانات وثماني تفاحات وكيلو كستناء وخمس ليمونات قطفتها امرأة النحاس والبرونز دائمة الفتنة التي تنعم بعشقٍ أسطوري من شجرة ليمون في حديقة بيتها . لا تنسى درة العين أن تغلّف الليمونات الحبالى بالعصير بوريقات الليمون ، منتقيةً أكثرها طراوة وأقلّها تقصّماً ، فتظلّ حوّا تفرك يديها به طول اليوم . هذا يوم جميل بحق ؛ تقول حوّا لنفسها ، وهي تمشي في جنبات السوق الذي تتصاعد عجقته .

يسير الوقت نحو الواحدة ظهراً . تبقّ الشمس كلّ ضيائها المؤجّل دفعةً واحدة ، كما تنفث حرارةً لطيفة في مفاصل الظهيرة . تستشعر حوّا حماوةً في جسمها ، فتشلح الشال الصوفي الملفوف حول رقبتها وتضعه في كيس الطقم الذهبي . تسحبها ضوضاء باعة الخضار في السوق ، بطاولاتهم وعرباتهم وأصواتهم المتجاورة ، تحت مظلات بيضاء كالحة من القماش

السميك، تمتد بين المحال، تَسقُف فضاءهم جزئياً، وقد شُرِط بعضها وتمزّق فيما رُقِّع بعضها الآخر بنجاح محدود، لكن على الأرجح أن معظمها فقدت خاصيتها المشمَّعية المضادة للماء. حقبة المطر تشِمُ الأرض بآثارها من قاذورات وسواد ولزوجة. ما إن تصبح حوّا في قلب السوق، حتى تبخّ الخضار أطياف ألوانها في بصرها؛ أهرام من الفاصوليا والخيار والفلفل والخبيّزة والخسّ، تكسر خضرتَها المفرطة سهولُ البطاطا الممتدّة فوق الطاولات، بلونها الترابي المائل للطيني، والتي تلتصق بخواصرها المكتنزة بقايا طين جاف، لتفحَّ منها رائحة أرض مبلولة، كأثر بيِّن على اقتلاعها حديثاً. تصطفّ صناديق البندورة بعضها فوق بعض، على شكل مصاطب عمودية، وإلى جوارها صناديق الليمون والجزر والكوسا والباذنجان والقرع والبصل في اشتباك لوني بالغ الزخم. بحضور أقل زخماً، تفترش بعض الطاولات تلالٌ صغيرة متناثرة من البقدونس والكزبرة والبصل الأبيض والفجل ذي التدرّجات الليلكية. خضار نوعية، وإن بكميات قليلة محسوبة، كالفليفلة الحمراء بدم الغزال، والفليفلة البرتقالية بلون صفار البيض النيئ، والفليفلة الصفراء ذات النفحة الشمسية تارة والمشمشية تارة أخرى، تحتّل طاولات عرض دون غيرها، تستعرض انتفاخاتها المرآتية المغسولة بالضوء. على إحدى الطاولات، تقفُ حبّاتُ باذنجان عملاقة، منتصبةً في ثلاثة رفوف متدرِّجة، رؤوساً متفحِّمة بأقحاف خضراء تعتلي قممها؛ يطبع الضوء المتخلِّل

من فتحات مظلات القماش المهترئة على أسطحها المصقولة عيوناً مفتوحة وأفواهاً فاغرة تحدّق في حوّا وتتبعها ، فترمي في قلبها وَجَلاً صريحاً . تدير حوّا نظرها بعيداً ، صامّةً أذنيها عن صوت البائع المُخنْخِن : «أسود سواد الليل يا بتنجان!» .

تقترب من محل بطاولتين تتصدّران مدخله ، تقتصران تقريباً على عرض تلال من الكوسا والزهرة والملفوف . تجسّ حوّا حبات الكوسا . صاحب المحل ، المنزوي وراء مكتب حديدي صغير داخل المحل ، يسحب آخر نفس من سيجارته قبل أن يمعسها تحت حذائه على أرضية المحل ، وينهض محيِّياً ، مستطوِلاً غيابها :

- سلامات يا أم قيس! من زمان ما شُفناك . وين اختفيتِ؟

يتابع مازحاً :

- وَلْ! كل هاظ عشان شويّة مطر؟!

ترد عليه حوّا وهي لا تزال تعاين الكوسا :

- يعني وين بدّي أروح يا بوحمزة!

تهزّ رأسها كأنها توصّلت إلى خلاصة فلسفية :

- بييجي المطر وبروح المطر وإحنا مطرْح ما احْنا .

تعلو الابتسامة وجهها وهي تبدي رضاها عن قوام الكوسا الصلب ، وتطلب منه أن يزن لها ثلاثة كيلوغرامات للمحشي ، وكيلويْن آخرين من الكوسا صغيرة الحجم للمخشي باللبن . يوجه اهتمامها إلى رؤوس الزهرة البلدية ، «للمقلوبة» يقول لها .

يقطع بيده زُهيرة صغيرة من طرف رأس ذي لون أبيض سَمْني ، ويناولها لها فتقرطها مستطعِمة الحلاوة الكامنة . تشير إلى رؤوس الملفوف ، ذات الخُضرة الفاهية . تطلب منه رأسين . تشرح له دون أن يسألها بأن ابنتها أم عبد الله ستأتي عندها «بكرة ، الجمعة» . ثم تضيف بفخر : «وبناتها يا بو حمزة بموتِن في محاشي سِتْهم» ، فاردةً كفّها فوق صدرها كي يتقيّن أبو حمزة بأنها تقصد محاشيها هي .

- انشالله بتفرحي فيهم! تعيشي يا أم قيس وتِطْعَمي!

يوزِّع أبو حمزة الكوسا والملفوف في أربعة أكياس نايلون سوداء . تُخرج حوّا من حقيبة يدها كيساً مطوياً من القماش ، تنفضه في الهواء وتضع فيه أكياس الخضار السوداء ، إلى جانب هدية درّة العين من الرمان والتفاح والليمون . تسير في السوق بثقل وبطء أكبر . تنعطف في طريق فرعي أقل صخباً ، متوقِّفة عند محل سوبرماركت . تنادي على سامح ، الذي يحصي زجاجات شامبو في أحد الكراتين ويدوِّن ملاحظات على رزمة أوراق يحملها . تطلب منه كيس حفاضات كبيراً ومناديل مبلَّلة .

تقلب كيس الحفاضات الشفاف بين يديها ، وتبدي اعتراضها :

- هاي الحفاظات بتسرِّب .

تشتكي له كذلك من عدم إحكام الشريط اللاصق فيها .

يوافقها سامح ، موضحاً :

- النوعيات الكويسة يا خالتي أم قيس بتسرِّبش . . بس سعرها غالي شوي!

يمطّ قامته الشابة اليافعة ، ويجلب لها من رف أعلى كيساً عليه كتابة باللغة الإنجليزية ، قائلاً :

- هاد أجنبي . الحفاضة الواحدة منّو بتضل يوم كامل . . لا بِسرِّبْ ولا بِفُك ولا بْيِعْمَل سْماط .

لا تفهم حوّا الكتابة على الكيس ، ولا تدقّق فيها كثيراً . لكن ما يلفت انتباهها الصورة الكبيرة المثبَّتة على واجهة العبوة ، لرجل وامرأة مسنّيْن بملامح غربيّة ، تفور في وجهيهما أمارات الاكتناز الصحي والعافية ، والحبّ ، إذ يبدوان في وضعيّة عناق . من الصعب جداً على حوّا أن تتخيّل أن أياً من هذين الزوجين الباسميْن ، مورّديْ الوجهيْن ، السعيديْن - حدّ البهجة المتناهية ، الجميليْن ، الأنيقيْن ، الشائخيْن برقي ، يحتاج إلى هذه الحفاضات .

تشعر حوّا بحرارة تشتعل في جسدها وئيداً . يتجمّع العرق والدبق في صدرها وتحت إبطيها ، بعدما استحال معطفها مدفأة متحرِّكة . تتباطأ حركتها أكثر فأكثر مع الحمولة الثقيلة التي تتدلّى من ذراعيها .

- أم قيس . . يا أم قيس!

تلتفتُ حوّا ناحية الصوت . يقبل أبو محمد اللحام نحوها ، منكمش الكتفين ، لتنبعج قامته أكثر فوق تقزّمها الطبيعي ، فتخمّن حوّا أن في الأمر مشكلة . يدعوها كي تدخل محلّه .

تقف عند عتبة المحل ، المضمَّخ فضاؤه برائحة الذبائح المعلّقة في الخطّافات المعدنية . يجلب لها أبو محمد كرسياً كي ترتاح عليه ، يمسحه بكعب كمّه ، وينادي على فتىً يشطف أرضية المحل المبقّعة بالدماء كي يحضر كأس شاي . تظل حوّا واقفة . تقول له إنها لا تستطيع أن تتأخر على البيت . يسحب أبو محمد من دُرج طاولته دفتراً جلدياً متّسخاً . يفتحه على صفحة بعينها ويُريها لها . لا تقرأ حوّا ما فيها لكنها تفهم الموضوع ، فتطلق زفرة طويلة في الهواء وتسأل أبو محمد ، مستسلمة :

- قدّيش يا بو محمد؟

يسحب أبو محمد قلم حبر جاف بلا غطاء من جيب قميصه الكاروهات الذي تعبق برائحة اللحم النيئ ، ويجمع الأرقام المدونة على الصفحة ، متمتماً العملية الحسابية ، قبل أن يعلن :

- ستٍّ وخمسين ليرة!

تضع حوّا أغراضها على الكرسي ، وتخرج الجزدان من حقيبتها ، وتعطي أبو محمد ثلاثين ديناراً . وتعده بأن تمر عليه بعد يومين أو ثلاثة على الأكثر لتسدّه باقي المبلغ . يأخذ الفلوس ممتناً :

- الله يعوِّض عليكِ!

يداري أبو محمد استحياءه الشديد كونه لا سبيل أمامه إلا اللجوء إليها ، كما يقول . فشقيقها عايد ، يستمرئ سحب اللحمة منه بالكيلو والكيلوين ، بالدين ، على أن يدفع له آخر

الشـهـر . لكن قـد يمرّ شـهـران أو ثلاثة دون أن «يشمّ» منه فلسـاً أحـمـر . وما يغيظ أبو محـمـد ربما أكـثـر من أي شيء آخـر ، أن عـايد لا يقنع بالخرفـان السـودانيـة أو الأسـتراليـة أو الرومـانيـة ، مصرّاً على اللحم البلدي . يتقدّم الفتى من داخل المحل نحوها ، يحمل كأس شاي أحمر ضبابي بيد ، وقشّاطة باليد الأخرى ، طاوياً فردتي بنطلونه حتى ركبتيه ، غائصاً بزنّوبته في الماء الذي تحلحلت فيه الدماء . تفرد حوّا كفّها أعلى صدرها معتذرة :

- معلش يا بو محمد لازم أمشي .

يشرب أبو محمد الشاي الفاتر مرة واحدة ، ثم يسألها قبل أن تبتعد :

- إذا طلب عايد لحمة . . أعطيه؟

تستدير حوّا ناحيته ، وتردّ دون تفكير :

- عطيه .

- لحمة بلدية؟!

تواصل حوّا سيرها ، هازّةً رأسها ، وهي تجيبه :

- لحمة بلدية .

ترشقُ الظهـيـرةُ الصـفـراء بيـوتَ المخيّم ، فـتُـعـزِّز تكلُّحـهـا ووهنَهـا . لا تخـفِّف من شـحـوب الحـوائط خـريطة فلسطين المطبوعة على بعضـها بالأحمر الدموي مع كلمـة «تقاوم» تنفُذ في قلب الخريطة ، حرف التاء فيها يشتبك مع الألف في رسم على شكل يد تحـمل زجاجـة مولوتوف تطلع منهـا نار . بل إن الخريطة المطبوعة بنسقٍ عشوائي على الجدران تبدو لطخةً فاقعةً

تسهم في مضاعفة بؤس البيوت ، وبعضها ليست سوى كتل إسمنتية تحوي الحد الأدنى من العيش . يغصُّ الفضاء المحشور بين الأزقة بتشكيلة ألوان غير متناسقة للسجادات والحصُر والبطانيات المدلاة من الأسطح على الجدران . تفتح النسوة أبواب بيوتهن ونوافذها لتنظيف الهواء المحبوس في الداخل ، كما يطردن صغارهن أسرى الضيق والغرف العطنة إلى مصطبات البيوت الخارجية ، كي ينسكب ضياء السماء الشحيح على وجوههم الجافة ، المنطفئة ، بينما يقرشون أصابع الخيار أو يلوكون الخبز الحاف أو يقضمون كعك القرشلة مع المخاط اللزج المتجمع حول أنوفهم الباردة .

تفتح حوّا باب بيتها ، فيأتيها صوت والدتها ، الذي يتقاطع مع رنين الموبايل في جيب معطفها . تضع الأكياس عند المدخل ، وتتفقد موبايلها ، فتقرأ اسم منير على شاشته . تهمّ بأن تردّ عليه ، لكن والدتها تنادي عليها بصوت مكتسٍ بذعر :

- حووو . . . حووووو!

تترك الرنين معلقاً ، وتركض داخلاً :

- حاضر يمّة . . هَيْني جاي يمّه!

***

لم تحبّ حوّا والدتها رابعة . وحين كانت تخاطبها بـ«يمّه» أو تناديها باللقب الشفيف ، لم يكن ذلك من قبيل الحبّ

والمبادرة والرجاء ، وإنما للردّ عليها والاستجابة لها ، ومن قبيل الانطواء والانحناء والاستسلام والانكسار ، وفي أوقات العذاب الكثيرة من باب الاستنجاد والاستجارة دون أن تلقى منها نجدةً أو إجارة . كذلك ، لا تذكر حوّا أن والدتها أحبّتها يوماً أو أحبّت أياً من بناتها ، أو على الأقل لم تشعر حوّا بهذا الحب ، إن وُجد . بل على الأرجح أن رابعة لم تحب الحياة ولم تطلبها . كانت كثيرة الصلاة ، وكثيرة البكاء . فلا الصلاة أغاثتها ولا البكاء نفعها .

كانت رابعة تطوي غضباً بركانياً في داخلها . وكان هذا الغضب يلجُّ في روحها ، ويتورّم في قلبها ، فيفُتّ في وجودها بصمت . في مرات ، كانت تترجم غضبها بعضّ لسانها حتى تدميه . ثم صارت تسلّط غضبها على بناتها ؛ فتصرخ عليهن ، وترميهن بشتائم قبيحة ، من نوع «شرموطة» و«شْلُكّه» و«عايبة» ، ثم قد ترفسهن وهنّ ماشيات حواليها فجأة أو قد تلكمهن أو تشدّهن من جدائلهن وتخبط رؤوسهن في الحائط ، دون أن يأتين فعلاً يستدعي عنفها تجاههن . ولم تحاول بناتها مقاومتها ، كما لم يسعين إلى أن يسألنها عن سبب غضبها . كن يعرفن تماماً أنها منكسرة ، وضعيفة ، وعاجزة ، لكنها على الأقل كانت تستطيع أن تنفّس عن ذلك كله فيهن . أما هن ، فكنّ أيضاً معبّآت القلوب بدمامل متقيِّحة من الغضب ، لكنهن عاجزات عن ترجمته . ليس هذا فقط ، بل إن غضبهن تحول مع الأيام إلى شعور عميق بالخزي ، سحق ذواتهن المحطَّمة أصلاً .

لكن حوّا وإن لم تحبّ والدتها ، فإنها لم تكرهها . كرهت حوّا والدها موسى ، تماماً كما كرهته والدتها وشقيقاتها وربما أكثر . يوم جاءهن خبر موته ، غلبت عليهن الصدمة . اعتملت في أنفسهن أشياء كثيرة ، كثيرة جداً ؛ كانت هناك كل العواطف المختلطة والأحاسيس المتضاربة ، إلا الفجيعة . هجمت عليهن أنواع المشاعر كلها إلا اليُتم .

تصدّرت رابعة وعفاف وساجدة وحوّا العزاء على مدى ثلاثة أيام في بيت العائلة بالمخيم . كان بطن عفاف قد بلغ أنفها ، إذ كانت في الشهر الثامن من حملها بطفلها الثالث ، فيما كانت ساجدة ترضع طفلها الثاني معظم الوقت . أما حوّا فجاءت تحمل ابنتها الأولى والوحيدة آية . تزوجت عفاف وساجدة في السابعة عشرة . تُرِّكن المدرسة قبل ذلك ، فعملت الأولى بائعة في محل بالمخيم لتأجير فساتين العرائس ، فيما اشتغلت الثانية في صالون تجميل ، فتعلّمت نتف الحواجب والشوارب وزغب الوجه بالخيط وأسس وضع المكياج العرائسي الثقيل وتجفيف الشعر بالسشوار وتصفيفه .

كان صالون التجميل يقع في زاوية متطرفة من سوق المخيم ، بعيداً عن الضوضاء . وكان باب الصالون كثير الفتح والإغلاق ، ما يسمح لهبّات الهواء بتطيير الستارة الرقيقة الحاجبة ، ليتسنّى لباعة المحال وصبيتها على الجهة المقابلة ، الوقوع على صور سريعة ، نافذة ، واخزة ، لعدد من النسوة والفتيات تجردت رؤوسهن من الحُجب الباهتة ، فانسدلت

شعورهن الهوجاء على أكتفاهن ، كما خلعن جلابيبهن الكاتمة ، متخايلات في جنبات الصالون بتنانير قصيرة ترسم قسمات أجسادهن ، أو بنطلونات جينز ضيقة أو بنطلونات تايت تعبّي أردافهن المكتنزة . كانت صاحبة الصالون تكلِّف ساجدة ببعض مهمات الشراء ، وهو أمر كان يفرح قلب ساجدة كثيراً ؛ إذ تتمكيج ، وتكتفي بارتداء قميص طويل نسبياً فوق بنطلون الجينز ، دون ارتداء الجلباب ، كما تضع الإيشارب فوق رأسها دون أن تثبِّته جيداً ، حتى إذا مشت في السوق بضع خطوات سحل على كتفيها ، فلا تكلف نفسها عناء رفعه وتثبيته .

حين تدخل السوبرماركت ، تذهب إلى أحد رفوف العرض ، وتبدو كأنها تفتش عن شيء بعينه ، فيتبعها رائف ، أحد بائعيْن في السوبرماركت ، يقف خلفها حتى يكاد يلتحم بها . تسأله عن السكر أو الكيك الجاهز ، فيرفع البائع الشاب ذراعه ، ناثراً رائحة عرقه المحمومة المضوَّعة بأنفاس السجائر ، مصطدماً بأحد ثدييها ، وقد يقرصه . وإذا كان غرضها موجوداً في أحد الرفوف الخلفية أو المتطرِّفة ، يمدّ رائف ساقه بين ساقيها ، فتفتحانهما دون مقاومة ، ليحكّ بركبته من تحت بنطلونه ما بين فخذيها ، من تحت بنطلونها . ولا يتوقّف إلا إذا علا صوت احتكاك القماش بالقماش ، أو لمح أحدهم قادماً باتجاههما ، أو جفل على صوت صاحب السوبرماركت عند صندوق الكاشير ينادي صائحاً : «يا رائف! وين غاطس؟!»

فينتفض رائف مبتعداً عنها ، كأن سلك كهرباء لطشه ، لتطوي ساجدة رعشتها ، وتطفئ تلك الاشتعالات الصغيرة في جسدها بتمرير يديها فوق ذراعيها وصدرها اللاهث وفخذيها شبه المتهاويين .

وعند عودتها إلى البيت آخر النهار ، كان وجه ساجدة الذي تفوح منه رائحة ذرور البودرة يشعّ فتنة ونضجاً ، بالكحل السائل الفحمي يحدّ عينيها البندقيّتين ، والظلال الفوشية المتدرجة تلوِّن سهول جفنيها العريضين ، وأحمر الشفاه الوردي يضيء بشرتها الحنطية . كانت رابعة تطيل النظر في ساجدة قبل أن تهجم عليها ، فتخبط رأسها بالجدار ، ثم تجرها من شعرها إلى الحمام ، تركِّعها على الأرض ، وتضع رأسها في لجن الماء . أو إمعاناً في النقمة ، كانت تأخذ محرمة ، تبصق فيها ، وتمسح بها نصف وجه ساجدة من أعلى العين حتى نصف الفم ، ليتداخل سواد العين السخامي مع الفوشيا والزهري .

أما عفاف فلم تكن تثير غضب رابعة حين تعود إلى البيت . كانت حريصةً كل الحرص على ألا تفوح من فمها أو ملابسها رائحة السجائر التي كانت تشتريها بالحبة ، فتعلك أوراق نعناع طازجة أو تمضغ كمشةً من أوراق الريحان ، كما ترشّ منطقة صدرها وتحت إبطيها بمزيل عرق صابوني الرائحة ، تحتفظ به في حقيبتها . كانت عفاف تستقبل العرائس وأمهاتهن في محل «ليالي الأنس» لتأجير فساتين الخطوبة والزفاف . كان المحل يقع في ممر شبه مسقوف في المخيم ، وبجواره

محلات أخرى لبيع الملابس النسائية وملابس الأطفال المعروضة على عشرات المانيكانات، مختلفة الأحجام، الواقفة عند مداخل المحال. بعض مانيكانات الأطفال كانت بلا رؤوس وبلا أذرع، وبعضها فقد إحدى ساقيه، فكانت رجل البنطلون المفرّغة تطير في الهواء. وكثيراً ما كان المارة يصطدمون بالأطفال المقطّعين، ويوقعونهم أرضاً، فيبدون أشلاء جثث بملابس جديدة نسبياً. بموازاة محال الإكسسوارات وبيع مستحضرات التجميل، كان هناك عدد من محال بيع الملابس النسائية الداخلية، كجزء من جهاز العروس. تدلّت من أسقف مداخل المحال مجسّمات بلاستيكية لجذع المرأة العلوي فقط، من العنق فالصدر والبطن وحتى أعلى الفخذين، ألبسها أصحابها قمصان نوم «بيبي دول» من الشيفون والحرير والتول والدانتيل البخس، بألوان حمراء وزرقاء وبرتقالية ووردية فاقعة، زُيّن بعضها بالكشاكش أو الريش، شفّت عن البطن ومنطقة العانة المثلثة الملساء. ومهما توخّى الرجال الورعون عدم النظر إليها أثناء مرورهم في الزقاق السوقي في الطريق إلى الجامع الكائن في نهاية الزقاق، فإن أبصارهم لم تكن لتستطيع أن تغضّ الطرف عن اللحم البلاستيكي المكشوف. وذات مرة، شهد المارة سقوط نصف امرأة بقميص نوم زهري مخرّم فوق كتفي إمام الجامع وهو في طريقه لإقامة صلاة المغرب.

كانت مهمة عفاف تقتضي مساعدة العروس في اختيار فستان الخطبة أو ليلة الحناء أو العُرس، والتحقق عند إرجاع

الفستان ، بعد استخدامه ، من أنه لم يلحقه مزْق أو فتْق أو لُطِّخ ببقعة غير قابلة للزوال ، وإلا عزَّزها أبو لؤي ، صاحب المحل . من مهامها أيضاً متابعة عملية تنظيف الفساتين في «الدراي كلين» واستلامها في الوقت المحدد . كان أبو لؤي يشرف على المحل في فترة الصباح وحتى ما بعد الظهيرة ؛ ثم يستلم عنه ابنه لؤي ، الذي كان يدرس في إحدى الكليات الجامعية المتوسطة في عمّان ، من العصر وحتى العِشاء . عند قدوم عروس مع قبيلتها من النساء ، غالباً ما كان أبو لؤي ولؤي ينسحبان خارج المحل ، لتسرح النساء بين الفساتين ويمرحن براحتهن ، متعرِّيات في غرفة القياس ، تساعدهن عفاف في حشر لحومهن المجلببة معظم الوقت في الفساتين الضيقة ، مقوَّرة الصدور أو مكشوفة الظهور .

كانت الحركة على المحل في فترة الصباح خفيفة ، وكثيراً ما كان أبو لؤي يغادر المحل لتصريف أمور أخرى ، فتظل عفاف وحدها ، تفرز الفساتين التي أرجعتها شقيقات العرائس أو أمهاتهن ، مع بقايا بودرة أو رواسب عرق وكريم حول العنق أو الصدر أو منطقة الإبطين . ومع خلو الطريق من المتسوقين ، كانت تأخذ فستان الخطبة أو الزفاف بأثر العروس عليه ، وتجّربه في غرفة القياس . كانت تسد باب الغرفة ، كي تظل أذنها ترصد الأصوات في الخارج بينما تعاين نفسها في المرآة ، متيقنة أن مقاس الفستان وشكله عليها أفضل مما كان على العروس . وكانت تتطلّع أكثر من أي شيء آخر إلى تجربة

الفساتين ذات الفتحات الجانبية الطويلة أو تلك التي تبرز كثافة الثديين ، إذ كانت موجتا اللحم الهادرتان تُحشران جزئياً في تجويفي الصدر الضيقيْن ، فيما يظل زَبَد اللحم فائراً ، مُستحلية قوامها الطويل والمكتنز بحسبان في المرآة . في أحد النهارات خفيفة الحركة والبشر ، عاد أبو لؤي بعد وقت قصير من مغادرته المحل ، متذكراً شيئاً نسيه . لاحت له ذراع عفاف العارية من شق غرفة القياس . حين استشعرت عفاف أنفاسه التي اقتربت منها ، حاولت أن تغلق الباب ، لكن أبو لؤي دفش الباب بقدمه ودخل الغرفة وأغلق الباب عليهما معاً .

لم يكن أبو لؤي يطلب الكثير من عفاف ، باستثناء اللمس والحك والهرش الخارجي ، مقسماً لها بأنه لن يؤذيها . أصرت عفاف أن يظل تحاككهما تحت الملابس «من برّا لبرّا» ، وهو ما جعل أبو لؤي ينزعج أحياناً حين تَصْلَبّ رغبته من تحت بنطلونه ، الذي يتمكن من تحرير سحّابه بصعوبة ، حتى إذ بلغ رعشته أخيراً كان يبدو متألماً أكثر منه دائخاً ، مشدوداً أكثر منه مرتخياً . لكن عفاف كانت أقل حذراً وتحفّظاً مع الابن ، الذي تعهّد لها هو الآخر بأنه لن يؤذيها . فكانت تسمح للحمه بأن يصطكّ بلحمها . بل كانت عفاف تستلذ برائحته المصوغة من عرقه الطازج ، مقابل رائحة والده القديمة . وحين كان يشدّها إليه من الخلف ، ضاغطاً على مؤخرتها بقوة ، كان يراقب تحول ملامح وجهها في مرآة غرفة القياس ، مع ارتخاء بشرتها تحت غبش من الشهوة ، وتهيُّج كل أحاسيسها ، فيغيب وإياها في

لهاث حار يصليهما ، لتتشابك رجفتاهما معاً .

كان موسى يعمل بنّاء . وقيل إنه بنّاء شاطر . تخصّص في صبّ الأساسات والأسقف والأعمدة ، وكان يقدِّر نسب الإسمنت والرمل والحصمة والماء في الصبّات والخلطات الإسمنتية بالنظر ، ونادراً ما كان يخطئ ، متحدِّياً أشطر المقاولين والمهندسين . كما كان يتمتع بقوة بدنية جبّارة ، يقال إنه ورثها عن أمه نايفة ، التي كان طولها يصل إلى متر وثمانين سنتيمتراً وعرضها متر . كثيرون من أهالي قرية بيت محسير ، بالقرب من القدس ، كانوا يروون كيف أن نايفة ، ابنة الثانية عشرة ، ساعدت أباها ، ذا الساق الواحدة ، في بناء بيتهم في القرية ، إذ كان أشقاؤها الستة قُتلوا ؛ نصفهم على يد الإنجليز والنصف الآخر في اشتباكات مع العصابات اليهودية . نقلت نايفة حجارة البيت والسلسة الصخرية حوله من الخِرَب والتلال الصخرية والمغاور عند أطراف القرية ، تحمل الحجارة المجرَّحة بيدها وتصفّ أكواماً في عربة حديدية بعجل أمامي ، تدفعها أمامها في الطرقات المهضَّبة المثلَّمة المتعرِّجة ، وتسير بها مسافة قد تصل إلى ثلاثة كيلومترات أحياناً . ويوم تزوّجت نايفة نمر ، تركت بيت محسير وانتقلت للعيش في قرية شحمة ، قضاء الرملة ، في بيت أهل زوجها . لكن نايفة لم تطق الكثرة ، فأعطت نمر مصاغها الذهب ليبني بيتاً على قطعة أرض خصّصها له أبوه . لم يحتج نمر إلى الاستعانة بعمال بناء ، فقد ساعده أشقاؤه ، كما جبلت نايفة ، التي كانت حبلى ببكرها ،

خلطة الإسمنت بنفسها ، وقامت بكل أعمال القصارة ، حتى إذا نامت الليلة الأولى في بيتها ، جاءتها آلام المخاض ، فولدت موسى .

مع النكبة ، نزحت نايفة وزوجها إلى مخيم الفارعة بنابلس ، ومع النكسة نزحوا من جديد ، مع أبنائهما الثلاثة موسى وعيسى وخليل وزوجاتهم وبذارهم القليلة آنذاك ، إلى مخيم البقعة على الضفّة الأخرى من النهر ، مواصلين في منفاهم حياتهم المقتلعة ووضع المزيد من البذار في أرض مجدبة عاطفياً . كان الحاج نمر ، زوج نايفة ، يملك معصرة زيتون في زمن البلاد الأول . وحين نزح إلى الفارعة ، وضع يده على ذقنه ينتظر العودة إلى بيته وأرضه ومعصرته ، متلقّفاً أي خبر يدله على ذلك من الراديو . ثم حين نزح إلى البقعة ، ظلت يده على ذقنه ، لكنه لم يكن يستمع إلى الراديو . ثم في آخر أيامه ، اختلط عليه الأمر بين مخيم الفارعة وقرية شحمة ، وصار يسرد قصصاً عن أماكن أخرى لا تعرفها نايفة ، ويحكي عن أناس لم تسمع بهم . تعلمت نايفة في الفارعة صنع الجبنة النابلسية ، وحملت صنعتها معها إلى البقعة ، فكانت تبيعها بالتنكات تواصي في الغالب للمغتربين الفلسطينيين ، الذين يشحنون التنكات معهم في الطائرة إلى دول الخليج ، وبعضهم كان يأخذها معه إلى أميركا ، مصفاة من الماء ، في أكياس مفرغة من الهواء ؛ كما كانت تبيعها لمحال صنع الحلويات في البقعة وصويلح . كان بيتها في المخيم كبيراً نسبياً مقارنة بمعظم

البيوت الأخرى، وكانت تفوح منه في أغلب الأوقات رائحة خثرة الحليب والمنفحة والبخار العابق بملوحة الجبنة المغلية، مخصّصةً إحدى الغرف للاحتفاظ بطناجر حليب الغنم الضخمة، وقوالب الجبن وألواح التقطيع والقماش الذي تُلَفُّ به الجبنة. وكانت كنّتها، زوجة ابنها الأصغر خليل، تساعدها. وبعد وفاة نايفة، أخذت الكنة بيت المخيم والصنعة.

لكن نايفة وإن كانت عتيّةً ومنيعةً حتى آخر يوم لها على الأرض، فإنها كانت مهشّمة من الداخل. لقد انكسرت نفْسُ نايفة في مخيم الفارعة، ثم انسحقت تماماً في مخيم البقعة، فعاشت ما تبقى من عمرها امرأة ناقمة، غاضبة، وشرسة.

وبعيداً عن أمه، كان رفاق موسى يردّون همته البدنية إلى الطعام الكثير الذي يبتلعه، حتى إنه تردّد أنه في فترة غداء العمّال كان يزدرد لوحده كيلوغراماً من أصابع الكباب مع البصل والبندورة المشوية، يتبعها بثلاث كاسات شاي ثقيل الحمرة والحلاوة، كما أن معظم يوميته كانت تذهب على بطنه، تاركاً أهل بيته يعتمدون في تصريف شؤون عيشهم على موارد مالية شحيحة أخرى. لكن شطارة موسى رافقها عناد وعصبية وتقلُّبات غير محسوبة في المزاج. كان يفتعل المشكلات مع العمّال لأي سبب، وقد يتحرش هو بهم في حال امتدت فترة السلام في ورشة البناء أكثر مما تستطيع نفسه النزقة التسامح معها. وفي مرة، حمل أحدَ البنائين وكاد

يقذف به في خلاط الإسمنت كي يُجرش فيه لمجرّد أنه اعتقد أنه كان يهزأ به لولا تدخل العمّال في الموقع . وكان يغيب عن الورشة أياماً دون سبب ، وهو أمر لم يعنِ تراجع مدخول العائلة فقط ، وإنما بقاء لعنته ، جسدياً ومعنوياً ، في البيت ، وقتاً أكثر من قدرة أهل بيته على احتماله . كان يظل مستلقياً على الطراحة طوال الوقت ، بينما تتعاقب رابعة وبناتها على خدمته ، فيمددن أمامه سفرةً لا تنضب ، من الصباح حتى المساء ، تُرفع خلالها أطباق وتحلّ محلّها أطباق ، وفيما بينها صينية الشاي ، الرائحة الغادية طوال النهار والليل .

وظل الليل أبهج الأوقات إلى نفس موسى وأبغضها إلى نفوس أهل بيته ؛ فكان يلبد أمام التلفزيون ، معلّق البصر والرغبات بالمسلسلات البدوية ، حتى في إعاداتها المضجِرة ، متيمّاً بالحسناء وضحا ، البدوية البيضاء التي أفسدت لهجتها الشامية الأصلية بداوة لسانها المفتعلة ، في مسلسل «وضحا وابن عجلان» . كان موسى مدلّهاً تحديداً بوضحا ، في المشاهد التي تتنكّر فيها في هيئة رجل يدعى نوّاف ، يصبح نديماً لابن عجلان . لم يدارِ موسى غرامه بنوّاف بالشارب واللحية والدشداشة الواسعة والحطّة والعقال المائل أعلى الرأس ، كغرامه بوضحا وربما أكثر . وحين كان نوّاف يقف جانبياً بالقرب من ابن عجلان ، كان صدر وضحا المخفي بصعوبة تحت الدشداشة يبرز بجلاء ، ليعلّق موسى أمام رابعة التي تضع أمامه قلاية بندورة وصحن مفرّكة بطاطا بالبيض ، قائلاً بفجاجة :

- شوفي بزازها! معقول هاظ البهيم ابن عجلان مش عارف إنها مَرَا؟!

ثم يضيف بفجاجة أعظم، مسدِّداً إصبعه إلى ثديي وضحا النابتين في الشاشة :

- والله لو كنت مكانو لأقرصهم!

لم تكن رابعة تُثنّي على ملاحظته، ولم يكن هو ينتظر تأكيداً منها، ذائباً في وجه نوّاف الجميل جداً. بحاجبيه الرفيعين المقوَّسين وعينيه الكحلاويْن وبشرته البيضاء المصقولة، المؤطَّرة بشارب أسود معقوف الطرفيْن وسكسوكة خفيفة عند الذقن، كان نوّاف أقرب إلى غلام حار الجسد أو مخنَّث، استدعاه موسى مرات عديدة في خيالاته الجنسية المرعبة.

لكن ليل موسى الطويل، ومعه ليل أهل بيته، كان يمضي في طريق أكثر رعباً وإظلاماً. كان موسى يتسرّب من فراش رابعة إلى الغرفة التي تستلقي فيها البنات أرضاً على فرشات هزيلة، منهكات، غافيات، منكمشات على لحمهن الفوّار. كانت عفاف تكبر ساجدة بعام، وكانتا في الخامسة عشرة والرابعة عشرة حين سقط لحم والدهما فوق لحميهما تباعاً. فتحت عفاف عينيها، ذات ليلة، كأنها تنفض عنها كابوساً. انتفض كيانها، لكن موسى وضع ساقه الغليظة فوق جسدها، فدقّها في أرضها كمسمار. جمعت إليها أطرافها المنمّلة، فطلب منها أن ترخي جسمها وتفرد ساقيها، لكنها ظلت

متجمِّدة . همس موسى في إذنها متوسِّلاً ، أن كلّ شيء سيظل «من برّا لبرا» ، مقسماً بأنه لن يؤذيها . لكن عفاف ، التي سحَّت دموعاً صامتات ، ظلت في فراشها قطعة لحم مضمومة . حين انسحب من فراشها محبطاً ، وقد لقيت كل توسلاته صدّاً ، أدركت عفاف أن الأمر لم ينتهِ .

في مساء اليوم التالي ، استقبلها موسى عند الباب . سألها عن سبب تأخرها ، فقالت له إن اليوم خميس والحركة في السوق مزدحمة . صفعها مرات متتابعات ، على وجهها وعلى رقبتها وعلى رأسها ، ووصفها بالفاجرة والداشرة . كل نسائه الصغيرات في البيت ومعهن رابعة ذُبْنَ في مطارحهن . وفي اليوم الذي تلاه ، رماها بصحن البيض فانشقّ جبينها ، ما استلزم خياطة الجرح بقطبتين . وفي اليوم الثالث ، سلخها بالقشاط . بعد أسبوع ، تعرض خلالها لحمها لكل أشكال الفتْك ، استسلمت عفاف لموسى أخيراً . أما ساجدة فاستسلمت له من المرة الأولى ، ووفّرت على لحمها وجعاً كثيراً .

كانت حوا ، التي كان لحمها يتمرَّد ، والتي عمدت إلى إحكام لفّ القماط القماشي حول صدرها ، طوال النهار وطوال الليل ، تفيق على صوت الأرض ترتجف من تحت فراشها . وكان لهاث والدها الملتصق بلحم شقيقتيها يحرق خلاياها المنكمشة ؛ وكانت دموع شقيقتيها تحرق روحها ؛ فتغمض عينيها وتغمض أذنيها وتغمض أحاسيسها وتغمض لحمها

المستتر عن كل شيء مؤلم وعن كل شيء بشع .

تُركت رابعة كي يأكلها مزيد من الغضب والقهر والدمع الذي حفر أخاديد مستديمة في وجهها . وإذ صار موسى يقضي في فُرش البنات أكثر مما يقضيه في فراشها ، شكت رابعة أخيراً موسى لأمّه . لامتها نايفة على صمتها وصبرها . تذكرت نايفة موسى ، ابن التاسعة عشرة ، الذي ضبطته مرات عديدات مع طفلات الحارة في مخيم الفارعة ، يدسّ أصبعه في سراويلهن الداخلية . ضربته وجلدته ورفسته دون جدوى . قالت له إن أهالي البنات قد يذبحونه ، لكنه حلف أنه لم يكن يمسسهن . ذات مغربية ، طلعت نايفة على السطح ، لتجمع الغسيل ، فوجدت موسى يقف بوجه مصفر ، فيما كانت الدجاجات في القن يقوقئن فزعات . فتحت نايفة باب الشبك للقن ، فنطّت الدجاجات في وجهها ، صائحات . تكورت في زاوية القن نائلة ، ابنة جيرانهم ذات الثلاثة أعوام ، متعفّرة بالرمل والريش وروث الدجاج . قالت نائلة لنايفة إنها كانت تلعب مع موسى الطمّاية . ارتفع فستان الصغيرة عن عضوها الصغير الأملس ، منمنم المعالم . سألتها نايفة عن سروالها ، فقالت لها إن موسى خبأه . لم تدرِ نايفة بنفسها إلا وهي تحمل موسى بذراعيها القويتين عالياً ثم ترمي به من فوق السطح . فُجّ رأسه وانكسرت ذراعه وساقه . بعد ستة أشهر ، زوّجته رابعة ، ابنة أخيها .

زوّجت نايفة عفاف ثم زوّجت ساجدة . حاولت عفاف في البداية أن تعترض ، لكن نايفة طرحتها أيضاً ، وظلّت تقرصها

من فرجها ، حتى ازرقّ وجهها وأُغمي عليها . أما ساجدة فلم تجادل جدّتها في قرارها .

برحيل عفاف وساجدة ، ظلت حوّا لوحدها . لم تهدأ فورة صدرها مع القماط . ثم بات القماط يخنقها في نومها ، إذ كان من الصعب أن تتنفّس به ، فصارت تشلحه ليلاً وتدفنه تحت الوسادة ، فإذا ما استيقظت في الصباح ، حرصت على أن تسحق به صدرها جيداً . لكنها مهما حاولت ، لم يكن ممكناً قهر التلّتيْن أو خسفهما . كذلك لم يكن ممكناً أبداً وقف ثورة جسدها . حين اشتغلت عند ست قمر ، تخلّصت من القماط تماماً . بل سعت إلى ارتداء السوتيانات المكوكبة ، نصف الكاشفة ، ومعظمها من ست قمر ، خصوصاً أنها كانت تعرف أن عيني مراد كانتا تمسحان تلّتيها صعوداً ونزولاً ، وأن خيالاته الشقية كانت تتمرّغ فيهما . في جميع الأحوال ، صارت حوّا متاحة لموسى بعد زواج شقيقتيها .

لم تبكِ حوّا كشقيقتيها . لم تجزع ولم تجفل ، ولم تتصلّب ، ولم تتجمَّد ولم تتكوَّم ولم تتكوَّر ، ولم تكشّ ولم تنكمش . استحال فعل أبيها فعلاً آلياً يمسّ جسدها من السطح ، من سطح السطح ، ولم ينفذ إلى روحها أبداً . لقد تعلّمت كيف لا تكون حين تُنتهك ، وكيف تغيب عن الوعي والإدراك ، وكيف تغادر كيانها تماماً ، ولا تعود لهذا الكيان إلا إن هي شاءت . كانت حوّا تموت في الليل . لا تعود ترى ولا تشعر ولا تسمع . حتى قلبها كان يتوقف تماماً . حتى إذا فتحت عينيها في

الصباح ، نفضت عنها موتها وعادت لها الحياة .

مات موسى في الموقع . جاءهم الخبر من المقاول الذي حاول أن يكون كيِّساً ولبقاً قدر الإمكان وهو ينقل لهم الفجيعة . كان موسى في أواخر أربعينياته ، قوياً وجباراً حتى آخر يوم له . فهموا من المقاول أن ما حدث قضاء الله وقدره ، فقد وقع نصف جدار غير مكتمل على عدد من العمال ، فأصيب من أصيب ، لكن صادف أنّ موسى تلقى الضربة الأقسى في رأسه ، فظل ينزف حين نقلوه إلى المستشفى ، ولم يصمد سوى ساعات .

ظلت رابعة واجمة ، فيما غصّت عفاف وساجدة وحوّا بالدموع التي أغرقت وجوههن الذاهلة . لقد كنّ حزينات ، حزينات جداً ومقهورات ، وهو أمر أثار إشفاق نسوة المخيم اللاتي تحلّقن حولهن . «كم أنّ فَقْدَ الأب صعب!» قالت إحداهن . بكت حوّا كثيراً . نشجت . يا الله كم افتقدت ضحى . حنّت إليها . حاولت أن تستعيد وجه شقيقتها ، لكنها اكتشفت أنها نسيته تماماً .

لم تكن ضحى تشبه أياً منهن . لم تكبر ولم ينهض لحمها . بل صارت ، مع الأيام ، تصغر . كانت ضحى تظل نائمةً طوال الوقت ، وحين كانت تتحرك ، تسير منحنية ؛ وكانت تتعب بسرعة ، فتجلس عند أول مقعد أو تنهار فوق أقرب فرشة . وحين كانت تنام ، تظل تلهث كأنها تركض في مناماتها المضطربة . في السادسة من العمر ، كان لحمها

وعظمها المُستَكنيْن معظم الوقت يصلحان لطفلة في الثالثة . ثم في ليلة ، ارتفعت درجة حرارتها . ولم تنفع الشرائط المنقوعة بالماء البارد ، التي تناوبت شقيقاتها على وضعها على جبينها ، في إطفاء اللهيب الذي كان ينهش رأسها . ما إن طلع الصباح ، حتى أتت النار عليها تماماً . لم تكن قد أتمت السابعة من عمرها يوم ماتت .

بكت عفاف وساجدة وحوّا فقْدَ ضحى كثيراً . لكنهن تأكدن من شيء واحد على الأقل ؛ هو أن الله أحبّها ؛ لقد أحبّها الله كثيراً ، بخلافهن . بل على الأرجح أن الله كان يكرههن ؛ لأنهن عِشْنَ .

***

تُسند شمس الظهيرة الشتوية الكسلى كتفها على حواف الشبابيك المغلقة . بعض الدفء المتلكئ يخترق الحوائط المتنشِّعة ، فيلكز رطوبةً خفيفةً مُكْتنَّة في هواء البيت الحبيس ، فائحة من الفرُش والبطانيات الموبَّرة وإسفنجات كنب الموريس . تُنفِّس حوّا الشباك في غرفة المعيشة الرئيسية في البيت وتفتح الستارة جزئياً ، فيلفح هواء لطيف وجهها المحمَر ، الذي لا يزال يلهث من الطريق ، فيما تسقط حزمةٌ من الضوء على ماكينة الخياطة المعمَّرة بماسورة خيط أزرق مائي . على طاولة الماكينة ، يتمدّد فستان مقصوص من الحرير الأزرق البحري المرّقش ببقع

ساتانية بدرجة سكرية لؤلؤية مزرقّة ، تعكس مع انهمار شلال الضياء عليها ظلّ قوس قزح فاهياً ، يرتشم على الحائط المقابل . إلى جانب الماكينة ، تقف طاولة خشبية مرتفعة للقصّ عليها مقص كبير ، ومقص أصغر مشرَّم ، وشريط قياس ، ومسطرة خشبية بطول متر ، وعلبة دبابيس بإسفنجة صفراء غُرست فيها عشرات الدبابيس ، وطبشورة صابونية للتعليم ، وثلاثة أكياس مركونة على الطرف .

- حوو . . حوووو . . .!

- حاضر يمّه! جاي!

تضع حوّا حمولتها عند مدخل الغرفة . تخلع حذاءها وترتدي خُفّاً منزلياً . تشلح الشال والإيشارب والمعطف وترميها على أقرب كنبة ، ثم تسرع إلى غرفة النوم ، يسبقها صوتها طوال الوقت بـ«جاي يمّة . . جاي! جاي يمّة . . جاي» . تصارع رابعة كي ترفع جسدها ورأسها اللذين انزاحا جانبياً ، حتى كادت تقع من على السرير . تلمّها حوّا بين ذراعيها القويتين ، ثم تحملها ، مسندةً ظهرها بيديها ، وتدفعها من خاصرتيها إلى أعلى برفق . تبدو رابعة كأنها فزِعة ، فتلتصق بها ، ولا تريد أن تفلتها ، شادّةً ياقة فستانها بيدها اليسرى . تضمّ حوّا هيكل والدتها المتضائل المرتجف في حضنها ، تطبطب على ظهرها المتقوِّس خوفاً ، وتمسِّد كتفيها وتفرك أعلى ذراعيها . يزحف دفء وئيد في بدنها ، فتخفّ وتيرة هلعها ، وينبسط كيانها بعض الشيء . تعدِّل حوّا موقع الوسادة تحت رأس رابعة . تضع

وسادة أخرى فوقها وتمركز رأسها في المنتصف . تُنيمها على ظهرها ، دون أن تنفصل عن بدنها شبه الملتصق بها . «تخافيش يمّة . . أنا هون» ، تقول لها حوّا . لكن رابعة تحتاج إلى وقت كي «لا تخاف» بحقّ ؛ فإذا ما تلاشى فزعها أخيراً ، تحرّرت من الالتحام بابنتها .

تُشعل حوّا صوبة الغاز ، فتتوهج عيونها الحمراء الثلاث ، نافثةً حماوة . تدير رافعة السرير الطبي اليدوية ، فيرتفع نصفه الأمامي . تضبطه عند زاوية منفرجة ، فيطالعها وجه رابعة نصف المتهدّل ، الذي يتراجع تشنُّج عضلاته ليبدو أقل انشداداً . تضع وسادة طرية تحت ذراعها اليمنى ، كما تريح ساقها اليمنى فوق وسادة أخرى لينة ، وتغطيها بالبطانية جيداً . تفتح حوّا أحد الأدراج في خزانة قصيرة وغليظة للغيارات ، تتألف من خمسة أدراج عريضة وعميقة ، تُخرج من درج ثلاثة بشاكير صغيرة من القماش ، وبشكيراً كبيراً ورقياً مبطّناً بالمشمع وصابونة نابلسية جديدة مغلفة بالورق ، ومن درجٍ ثانٍ كريم السماط وزجاجة مطهر يدين وحقنة بلاستيكية معقّمة من بين مجموعة من الحقن الموضوعة في أكياس نايلون مفرغة من الهواء ، ومن درج ثالث طشتيْن بلاستيكييْن صغيريْن وكيس نايلون أسود من بين رزمة أكياس مطويّة بعناية . «عطشانة؟!» تسأل والدتها ، فتجيبها : «آاااااا» . ثم تسألها : «جوعانة؟!» بينما تشفط بالحقنة ماء من شاف زجاجي محكم الإغلاق موضوع إلى جانب وعاء بلاستيكي كبير شفاف يغصّ بعلب

أدوية ومراهم على طرابيزة عريضة بالقرب من السرير، فترد رابعة بـ«آآآآآآآآآآ». ترفع حوّا رأس رابعة قليلاً، وتسنده على زندها الطري، ثم تثبّت أحد البشاكير الصغيرة تحت رقبتها، وتسقيها الماء بالحقنة، ليتلقّف البشكير بعض الماء الذي يفر من فمها المرتخي المائل جانبياً إلى اليمين. تبدو رابعة ممنونة وهي تطلق آهة الارتواء. تدسّ حوّا يدها تحت قميص نوم والدتها القطني. تتحسّس أصابعها من تحت سروالها. تزيح رابعة وجهها علامةً على الضيق. لكن حوّا تقول لها إنّ الوضع جيّد. تذهب إلى الحمام كي تغسل يدها، فتسمع رنين الموبايل في معطفها الملقى على الكنبة. لا تتمكّن من اللحاق به. تقرأ اسم منير في مكالمتين لم يتمّ الردّ عليهما. تهمّ بالاتصال به. لكن صوت والدتها يستحثّها: «حوو.. حوووو...!» فتترك الموبايل، وتجيبها: «جاي يمّه.. جاي!».

تهرع حوّا إلى المطبخ. تشعل النار تحت إبريق تسخين الماء، الذي تملأه حتى منتصفه. تجسّ بيدها البرودة المعدنية الثلجية لطنجرة البامية بالبندورة الطازجة وقطع اللحم العصافيرية. كانت حوّا قد طهتها في الصباح وتركتها لتبرد في المطبخ الذي يتغشّى بجوٍّ جليديٍّ في الشتاءات. شقيقها عايد وابنها قيس يموتان في البامية، ويعشقانها منها هي تحديداً ليس فقط لحبات البامية الصغيرة، بحجم عُقلات الأصابع الطرية، التي تقليها بزيت خفيف قبل أن تغمرها في عصير البندورة كما تعلمت من ست قمر، وإنما لقدحة الكزبرة والثوم التي تعلّمتها من

ست قمر أيضاً ، ومعها رشة من دبس الرمان التي تمنح عصير البندورة نكهةً مركّبة فيها مزيج من حموضة وحلاوة غير سافرة . تشعل حوّا عين الغاز الأخرى تحت طنجرة البامية ، كي تسخن على مهل . في المساء ، سوف تطهو رزّاً بشعيرية . عايد وقيس يحبان رزّها بالشعيرية الذي تعدّه على طريقة ست قمر ؛ فتحمِّص الشعيرية بالسمنة جيداً ، تُسمِّرها وتنزع عنها شقرتها تماماً ، قبل أن تضيف إليها الرزّ والماء والملح . تفتح الثلاجة وتخرج قدراً صغيراً به رزّ أبيض مسلوق مخصَّص لوالدتها . تضع القدر على أصغر عين غاز في موقدها رباعي العيون ، وتبخّ الرزّ بقليل من الماء ، وتشعل تحته ناراً وانية . في الأثناء ، يعلو بُحاح الماء الذي يسخن في الإبريق . «حووووو . . .!» يصلها صوت والدتها المبتور . «حاضر يمّه . . جاي!» تجيبها من المطبخ .

كانت حوّا في شقشقة الصباح قد غسلت البشاكير والشراشف وغيارات والدتها الداخلية وقمصانها القطنية وبعض الحرامات الكتانية والصوفية الخفيفة التي تغلِّف بها فرشتها . وحين استقام الضياء في الفضاء وبان أنّ المطر توقّف والسماء جفّت ، نشرت حوّا غسيلها الفوّاح على السطح . كما غيّرت الحفاضة لوالدتها ، وفطّرتها جبنة بيضاء مُحلاة وبيضة مسلوقة وبسكويت «ماري» ذوّبته في الشاي ، ثم أطعمتها نصف تفاحة ونصف كمّثرى مهروستين ، وسقتها ماء . وفي الصباح الذي خرجت فيه الشمس من معطف السحاب ، لتنفضَ عنها بلل

أيام طويلات ، ارتدت حوّا قفازاً طبياً ، وحشرت يدها داخل حلق والدتها وكشطت الفطريات المتجمّعة في سقفه ، ثم غسلت فم والدتها بالغسول ، وفركت ما تبقّى من أسنانها بالفرشاة ومسحةٍ من معجون الأسنان ، كما تفقّدت كعبي قدميها ، اللذين خفّ تيبّسهما وتراجع جفافهما ورُدم كثيرٌ من شقوقهما . وكانت حوّا في ليلة المطر الأخيرة قد أجلست والدتها على كرسيّها المتحرك ، تتابع وإياها حلقة من مسلسل «حريم السلطان» التركي ، وقد نقعت لها قدميها في طشت به ماء دافئ ذوّبت فيه نصف باكيت من الملح الخشن . وحين أخذتهما حماوة قبلة مفرطة الحسية انصهرت فيها الشفاه في رواق مظلم في قصر تُحاك فيه كل أشكال الدسائس ، ارتخت رابعة فيما تنزّلت هِمّةٌ خارقةٌ في يدي حوّا ، فحفّت كعبي والدتها ومِشطيْها وجانبي إصبعي قدميها الغليظين بمبردٍ عريض شبيه بالملعقة ، ينتهي برقاقة بيضاوية سوداء خشنة ، بملمس قريب من حجر الخفاف الأسود ، وظلّت تفركهما بكل قلبها إلى أن قَحطت الكُتل المتحطّبة وكشطت معظم أجزاء الجلد الميت . وبعد أن تشْتَشَت قدما والدتها في الماء والملح ، جففَتهما حوّا ودلّكتهما بكريم الفازلين ودثّرتهما في جوارب قطنية ، وفوقهما جوارب صوفية كي لا يطولهما تثليج .

تحمل حوّا كيس الحفاضات الجديد الأنيق وكيس المناديل المبللة ، وتهرع إلى والدتها : «جاي يمه . . جاي» ؛ تضعهما على الطرابيزة العريضة الملاصقة لسريرها ، ثم تعود إلى المطبخ ، إذ

يستدعيها صفير الماء المغلي في الإبريق، فتحمل الإبريق بإحدى يديها، بينما تحمل في اليد الأخرى زجاجة مياه باردة معبّأة من حنفية المطبخ، وتهرول مسرعة تلبي نداءات والدتها المتلاحقة، التي تأخذ صيغة أكثر إلحاحاً. مشيها السريع يحفّز تطاير رشّات ماء ساخنة تلسع ظاهر كفها، لكن حوّا لا تُبطئ ولا تحاذر كثيراً. تغلق باب غرفة النوم عليهما، لتظلّ حرارة الصوبة محصورةً في مساحة الغرفة الضيقة. تضع إبريق الماء المغلي على السجادة بالقرب من السرير وإلى جواره زجاجة الماء البارد، ثم تطوي كُمّيها حتى كوعيها. تمسح باطن كفيها بالمطهّر ذي القوام الجِلّي ثم تقرّبهما من البخار الطالع من فوهة إبريق الماء الساخن كي تمتصا قليلاً من الدفء قبل أن تفتح ساقي والدتها وترفع قميصها وتفكّ اللاصقيْن الجانبييْن للحفاضة التي اخترق البول طبقات البطانة القطنية الهزيلة، فثقلُت من الترنُّخ وتفتْفَتت.

رعشة شديدة تتفجّر في فخذي رابعة، يسير تيارها صعوداً فيضرب شفتيها اللتين تزرقّان. تفرد حوّا البطانية الصوفية فوق القسم العلوي من جسد والدتها الذي يكشّ خجلاً وهلعاً على السرير، فيما تحتوي فخذيها المرتجّيْن بين ذراعيها، تدلّكهما بيديها حتى يهدأ وتتراجع وتيرة ارتجافتهما. تقول لها إنها اشترت أشياء كثيرة. «اشتريت كوسا لآية وبناتها. الليلة على السهرة بحفرهن وبحشيهن لبكرة»، تقول حوّا وهي تسحب الحفاضة من تحت حوض والدتها، وتضع محلّها البشكير

الورقي المبطَّن بالمشمَّع ، و«إنتِ يمّه بتحبي الكوسا . . مش هيك؟!» تبدو رابعة أقل تشنّجاً وهي تتابع برأسها المشوّش حوّا تطوي الحفاضة ، ببخار البول المتخمِّر ، المستشري في الجوّ ، وتضعها في كيس النايلون الأسود وتعقده بإحكام . «بتسلّم عليكي درة العين يمّه» ، تحدثها حوّا ثم تضيف كي تعطي الاسم والتحية معنىً ذا دلالة أكبر لدى رابعة : «درّة عين فارس يمّه» . تضحك حوّا وهي تصبّ ماء ساخناً من الإبريق في أحد الطشتين ، وتضيف له من الماء البارد ما يكسر سخونته . «بعتَتْلك معي تفاحات بشهِّن يمّه» ، تواصل حوّا وهي تغمس أحد البشكيرين الصغيرين في الطشت وتفرك به الصابونة النابلسية كي ترغي قليلاً ، ثم تمسح بالبشكير المصوبَن لحم رابعة العاري . تشهق رابعة من ملمس القماش والماء الصابوني على لحمها ، لكنها لا تبدو متضايقة . تنظِّف حوّا أعلى فخذيها وما بينهما وفرجها المتقلِّص ومؤخرتها العظمية المُتكرَمِشة مرتين متتاليتين ، تنقع خلالهما البشكير في الماء وتصوبنه جيداً . يتوهّج لحم رابعة برائحة الصابون ، فتسكب حوّا ماء في الطشت الثاني ، وتغمِّس فيه البشكير ، لتغسله من آثار الصابون قبل أن تمسح به لحم والدتها الذي بات أقل فزعاً . تجفِّف حوّا المنطقة المبلَّلة بالبشكير الثاني ، ثم تضع الكريم المضاد للسماط عند منطقة التحام أعلى الفخذين بجذعها ، وتُلبسها حفاضة جديدة من كيس الحفاضات الأنيق . «هاظ نوع جديد يمّه . . حلو! شوفي؟!» تُريها حوّا كيس الحفاضات

بالعجوزين الملوّنين الجميلين السعيدين يحتلان واجهته . ينشقّ وجه رابعة المعوج عن نصف ابتسامة مائلة .

تسحب حوّا منديلاً ورقياً مبللاً بعطر الياسمين ، من كيس المحارم الجديد ، تمسح به وجه والدتها وجبينها ، وعنقها وأعلى صدرها . تتباطأ يدها وهي تمسح بشرة والدتها الجعِدة المسترِقّة ، ويبدو أن أحاسيسها تسرح في مكان جميل ، فوّاح ، نسّام وإن كان غائماً ، مليء بصور مفرِحة وإن كانت ألوانهًا ضبابية متسرِّبة المعالم ، قبل أن يعيدها صوت والدتها إلى مكانها الحقيقي ، واضح التفاصيل : «حوو . . .!» ترفع حوّا رأس والدتها أعلى الوسادة ، وتقول لها : «طبختلّك بامية يمّه» . لكن حوّا لا تستطيع أن تسيطر على روحها المغتبِطة ، إذ تدنو من وجه والدتها كأنها تسرّ لها ، مع أنهما وحدهما في البيت : «اشتريت قطعةِ قْماشْ . . لونها بنفسجي» ، تبتسم حوّا بحماسة لا تخلو من بعض احتراز ، كأنها تقول شيئاً خطيراً : «مُخمَل يمّه . . مُخمَل» . ويبدو أن رابعة في سريرها وبما لديها من بقية حواس نشطة ، عاملة ، تقدِّر عظمة المخمل وجلاله ، إذ أنّ لحمها يرشَحَ حرارةً تشعر بها حوّا وهي تدلِّك كتفيها بحركة دائرية . تواصل حوّا تدليك كتفي والدتها نزولاً إلى زنديها المرخيين ، فيديها وأصابعها . تسبح حوّا في طيات المخمل الدافئ ، تسمح لموجه البنفسجي بأن يسحبها في ثناياه ، وتُسلِّم روحها التائقة لثراء إحساسه . تسدل رابعة وجهها ، الذي تتلاشى سيماء الذعر عنه تماماً ، وتزفر آهة ارتخاء طويلة .

تسوّي حوّا الشرشف الصوفي الخفيف وتشدّه على جانبي الفرشة ذات الفقاعات الهوائية . تخفِّف من وهج حرارة الصوبة في الغرفة ، التي يدبّ الدفءُ في أوصالها ، فتطفئ اثنتين من عيونها الثلاث الحمراء المحدِّقة . تفرد البطانية الصوفية الثقيلة فوق والدتها . تسألها حوّا ما إذا كانت تشعر بالبرد ، فتحرِّك رابعة نصف رأسها نفياً . تتأكد حوّا من أن البطانية تحتويها تماماً ، ثم تطبطب على بطنها وتطمئنها :

- رايحْ أجهِّزلِك الغدا يمّه!

تطفئ حوّا النار الضامرة تحت طنجرة البامية وقِدر الأرز . يستقر بخار الطبيخ المدوِّخ برائحة مرقة البندورة ، متثاقلة القوام ، ونشاء الأرز في المطبخ . تفتح أحد شقي نافذة المطبخ الصغيرة ، فتهجم على حواسها رائحة الزهرة المقليّة المطبَّقَة في مقلوبة الأرز والدجاج من مطبخ جيرانها . تصرخ المرأة على ابنتها كي تخفف من الماء المهدور في الجلي . صوت تحطُّم أحد الأطباق على الأرض يستفزّ صوت جارتها الغاضب :

- رِيتهنْ إيدِيتْش يِنْشَلِّين!

تبدأ شمس الظهيرة في الانزواء ، جامعةً أطراف ضيائها المترامي إلى بدنها الشتائي . تضرب البرودة جنبات الغرفة الرئيسية ، فتُحكم حوّا إغلاق الشباك ، لكنها تُبقي الستارة مفتوحةً كي لا تُحرَم مّما تبقّى من نور النهار . تعلِّق معطفها وإيشاربها وشالها على الشماعة خلف باب الغرفة . تضع كيس المخمل وكيس الطقم على طاولة القصّ . تتلصّص ببصرها على

علبة طقم الذهب الحمراء داخل الكيس ؛ تفتح زر العلبة ، فيبخّ الذهب - شديد الشبه بالحقيقي - لونه الباذخ في وجهها ؛ تغلق العلبة بسرعة كأنها لا تريد لبريق الطقم أن يتبدّد أو يُهدَر . هي سعيدة . بل هي أكثر من سعيدة . تقول لنفسها . وحين تمدّ يدها بخفة إلى أمتار السعادة البنفسجية الغامرة المطوية في الكيس الآخر ، لا تستطيع أن تهدئ ذاك الإحساس الفائض بأنها تمتلك جزءاً ثميناً جداً ، وجميلاً جداً ، من العالم .

تمسك حوّا الموبايل بيديها الاثنتين ، كشيء أثير لا تحتمل ضياعه . تضغط على اسم منير . يرنّ الموبايل رنّة ونصف الرنّة قبل أن يأتيها الصوت في الطرف الثاني ملهوفاً . «منير! أنا فرحانة ؛ أنا فرحانة يا منير ، فرحانة كثير» ، تقول للصوت الذي ينتظرها . تظلّ تؤكّد له أنّها فرحانة ، وأن قلبها لا يسع كلّ هذه البهجة التي تسكنه . قلبها ، الذي «ياما» احتمل ما يُعصى على الاحتمال ، يقرع فيها بشدة . مشاعر كثيرة تصطرع داخلها ؛ هي مشاعر حبّ جارف ، إلى أقصى ما يمكن أن يبلغه الحبّ ؛ وهي مشاعر سعادة مطلقة ، على نحو لا يمكن لأي منطق أن يشرحها أو يفسِّرها ؛ وهي مشاعر هناءة مبعثها أن استحقاق العذابات لعله بلغ منتهاه ؛ وهي مشاعر أمان ، كأن الأكوان كلها تحمي ظهرها ؛ وفي الوقت عينه هي مشاعر خوف وتوجّس وروْع . يقول لها منير ، بدوره ، كلاماً مشجِّعاً . يحدّثها عن الأيام الجميلات الكثيرات القادمات التي ستلفُّ وجودهما

معاً ، وعن الوقت الهنيّ الذي سيملآنه بقصتهما . لكن حوّا لا تسمعه جيداً ؛ فدموعها التي تفيض من عينيها غزيرةً ، مدرارةً ، يكون لها صوتٌ ضاجٍ ، كصوت رياح تخبط بغضب في كل مكان ، أو أمواج تتحطّم بعنف على صخور مظلمة . «أنا خايفة يا منير . . خايفة كثير!» تقول له ، دون أن تسمع حتى صوتها ، الذي يذوب في صدى نشجيها . تقول إنها خائفة أن تفرح كل هذا الفرح . ثم تهدأ دموعها ، فيبدأ صوت منير يلامس روحها القلقة . لكن صوته يقطعه نداء رابعة من الغرفة الأخرى :

- حووو . . حووووووووووو . . . .!

تجيبها حوّا بصوت تفشفش بماء عينيها :

- حاضر يمّه . . جاي!

(٥)

أصوات الصِّبية في الحارة ترتفع فيما ترتطم كرة قدم بشبابيك البيوت وبأبوابها المعدنية المتعنِّتة ، دون أن تحدث فيها ضرراً إضافياً ، ودون أن تشوِّه ما هو أصلاً مشوَّه . كانوا قد غادروا مدارسهم منذ بعض الوقت . منهم من لم يغيِّر ملابسه . وهناك من رمى حقيبته على مصطبة أحد البيوت غير ملتفتٍ لصياح نسويٍّ من داخل البيت كي «ينضبّ» . صوت احتكاكٌ الشباشب وشحْط الأحذية الرياضية على الأرض الترابية إلى جانب صوت تخابط الأبدان الصغيرة النّشطة ، التي تتقاطع معها صيحاتهم الحماسية ، يعجّ في الهواء ويخترق الزجاج الرقيق لنوافذ البيوت . يتنحّى مجموعة من المصلين ممن غادروا المسجد بعد صلاة العصر جانب الزقاق ، تحتكّ أكواعهم الملتصقة بخواصرهم كأجنحة مقَصْقَصة بحيطان البيوت الكامدة ، يسيرون متجاورين ، شبه ملتزّين على أنفسهم ، مطأطئي القامات ، منحني الأبصار الغاضبة ، ملمومي الخطوات ، مُفسحين المساحةَ الأكبر من الطريق المثلَّم الضيِّق لأربع صبايا محجبّات ، يرتدين إيشاربات مشرقة الألوان وجاكيتات ضيّقة وبنطلونات جينز تحتوي مؤخراتهن ناضجة الاستدارة ، تتدلى من أكتافهن حقائب قماشية مزركشة .

إحدى الصبايا لا تتوقّف طول الطريق عن الحديث عبر الموبايل . يعلّق الصبية اللعب مؤقتاً ، فتسرّع الصبايا في خطوهن ، وسط ضحكات مكتومة . ما إن تبلغ البنات نهاية الزقاق حتى يعاود الصبية اللعب . يمرّر أحدهم الكرة لرفيقه ، فتضرب ساق مُصلٍّ متلكّئ خلف جماعته ؛ يحمل سجادة صلاة ، ويرتدي قميصاً كاكياً طويلاً مشقوق الجانبين ، أشبه بدشداشة ، وتحته بنطلون واسع ، أقرب إلى شروال ، من القماش نفسه ، وفوق الطقم جاكيت بنّي من الجلد المدعوك وطاقية أفغانية بيج ، ما يجعله أقرب إلى المجاهدين المتقاعدين مبكراً . يتلبّس المجاهد العابس فجأة شيطان ؛ فينطنط في الزقاق بجنون ؛ يلتقط بيده حجراً كبيراً ، يضعه الفتية ، لاعبو الكرة المتحمّسون لتعليم حدود مرمى وهمي ، راجماً به الصبي الذي يشوط الكرة نحوه . يتفادى الأخير الحجر ببعض الحظ ، فارّاً بفردة شبشب واحدة بعد إفلات الفردة الأخرى من قدمه ، فيما يواصل بقية رفاقه اللعب بحماسة غير منقوصة . يأخذ الأفغاني المتقاعد فردة الشبشب ويلحق بالفتى ، يضرب الأرض الترابية بقدميه بعنف ، وقد أنزل الخالق في ساقيه قوة من تلك التي تجعل المهزوم يركض بسرعة خارقة ، معدّلاً من وضعية الطاقية التي تميل فوق رأسه ، غير آبه بشراريب سجادة الصلاة التي تكنس الأرض مخلفةً غيمة من غبار رمادي تغلّفه ، يتوعّد «أخو الشرموطة» ، كما يصف بأعلى صوته الصبي الذي يسبقه بأشواط ، بأن يربّيه .

كانت حوّا ترتعب من هيئات رجالات المخيم الجديدة . لم يقتصر الأمر على لحى شعثاء ، مخضّبة ، غير مهذّبة ووجوه عابسة . وإنما كان هناك اللباس الغريب والكلام المغمغم الذي يطلقونه حواليهم حين تمرّ بهم في الشارع أو في السوق . وبعضهم ، من باعة الخضار ، كانوا من العصبية وسرعة الاستشاطة فلا يمكن مجادلتهم في بضاعتهم الذابلة والمتغضنة أو العفنة . فإذا ما استبطأت النسوة الشراء أو نقّبن في هضبات الخضار الهزيلة فوق العربات وطاولات العرض أو قلبنها أكثر مما ينبغي ، ثارت ثائرتهم عليهن ونشبوا ألسنتهم الماضية فيهن . لكن الناس ، لدهشة حوّا ، أغدقوا على مجاهديهم العائدين كبير تقدير وإجلال ، مستسلمين في الغالب لشروطهم في تعاملاتهم اليومية . تذكر حوّا جيداً كيف احتفل المخيم قبل أكثر من عشرين عاماً بعودة المجاهد البطل عبد الرحمن شاهر ، الشهير بأبو عبادة . كان أحد رفاق المجاهد عبد الله عزام ، ومن أذرعه اليمنى المزعومة الكثيرة . ويقال إنه قاتل إلى جواره في معركة جاجي في أفغانستان ، مظهراً استبسالاً وشجاعةً استثنائيين ، حتى إنه يقال إنه صفّى بنفسه ما لا يقل عن اثني عشر جندياً روسياً . وكان الناس يصفون كيف خنق أبو عبادة أحد هؤلاء الكفار بيديه العاريتيْن ، وأنه شاهد ناراً تطلع من عينيه وقدّر – وهو مصيبٌ على الأرجح – أنها نار جهنم التي كانت تسحبه إليها أثناء موته البطيء .

عاد أبو عبادة إلى المخيم ومعه مال كثير . قال إن هذا مال

المسلمين للمسلمين ، وأنه يعتزم إقامة مشروع يفيد به عباد الله المؤمنين . طلب النصح والمشورة من المخلصين ، فاقترح عليه البعض إنشاء ملعب كرة قدم على أرض فسيحة تقع على أطراف المخيم ، وشار عليه آخرون ببناء مركز مهني لتعليم حرف كالنجارة والحدادة والخياطة . وعرض عليه محام من آل الشطرات ، معروف بنشاطه النقابي في مخيم البقعة ، بناء مركز أيتام لأبناء المخيم ، ممن تلفظهم أسرهم ولا تتسع لهم مؤسسات الدولة ، وربما مركز آخر لتأهيل المعاقين الذين ترفضهم مدارس الحكومة ومدارس وكالة الأونروا وتعليمهم . أبو عبادة ، وبعد عميق تفكير ، أقام مركزاً لتحفيظ القرآن في المخيم ، له فرعان : واحد للإناث وآخر للذكور ، حمل كل منهما يافطة تقرأ «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه» ، مقابل رسوم رمزية يدفعها الدارسون . ولم يحل هذا المشروع الخيري دون قيام أبو عبادة باستئجار قطعة الأرض ، المقترحة لبناء ملعب كرة قدم ، وتحويلها إلى ساحة لبيع السيارات المستعملة وشرائها ، وقطع غيار السيارات الكورية واليابانية ، مع الاستعانة بدلالين محنّكين شطّار ، ذوي ألسنة ذربة ، قادرين على بيع كل أشكال الخردة ، ممتطين كل أشكال التحايل والنصب .

بعد ستة شهور من عودته ، تزوج أبو عبادة أم براء ، مديرة مركز الإناث ، وهي أرملة لديها ثلاثة أبناء ، قيل إنها وهبته صندوق مصاغها ، متبرّعةً به كجزء من مال المسلمين الذي جاء به أبو عبادة للمسلمين . ثم بعد عام تزوج أبو عبادة واعظةً

في المركز ؛ أم حنين ، مطلقة ولها بنتان . فنال أبو عبادة سمعة طيبة في «جبر» خواطر النسوة الوحيدات ، والمكلومات والمقهورات اجتماعياً . وتأكدت سمعته بعد أقل من عام حين التحقت به زوجته المصرية إنعام ، أم عبادة ، التي كانت تقيم في بيشاور في باكستان ، مع أبنائهما الأربعة ، وهي الابنة الوحيدة لأحد رفاقه المجاهدين الذي قضى في معركة ضروس ، بعدما نزف لثلاثة أيام في أحد المخابئ الجبلية في أفغانستان . انضمت الزوجة البيشاورية إلى ضرتيها في تصريف شؤون المركز ، فكان أبو عبادة يقلهن ثلاثتهن ، مخمَّرات من الرأس إلى القدمين ، بالسيارة كل صباح إلى المركز ، وسط حسد رجالات الحي من قدرته على إدارة أسرة هائلة ، لم تكُف نسوتها عن ملء بيوتهن بالذرية الصالحة المتكاثرة . ولم تتضعضع سمعة أبو عبادة كثيراً حين تزوج بعد سنوات سُلاف ، وهي صبية في الثامنة عشرة ، من مرتادات المركز ، يقال إن زوجته أم براء انتقتها له بنفسها نكايةً في ضرتها البيشاورية التي كانت تحاول الاستحواذ عليه بألاعيبها «المصرية» كما وصفتها .

كانت حوّا العشرينية تنفر من منظر أبو عبادة بهيئته التي بدأ يحاكيها بعض رجال المخيم . وكانت تراه بشعاً ، غايةً في القبح ، خاصة ببشرته المجدَّرة وأنفه المستطيل المتورِّم الذي يبتلع نصف وجهه . كما أن لحيته المبعثرة ، محدودة الكثافة ، المتجمِّعة أسفل ذقنه ، كعشب هزيل ، جعلته أقرب إلى تيس

هرِم ، مع أنه لم يكن بلغ الأربعين . «هاظ التيس يلّي مش عاجبك بِعَشّر نِسوانَه تْشِلْهِن في ليلِه وَحْدِه!» قالت لها أم سعيد داحضةً وجهة نظرها غير الصائبة إزاء أبو عبادة ؛ وأكدت لها أن الله يضع في رجلٍ مجاهدٍ ، مؤمن ، صنديد ، من أمثال أبو عبادة بأس مئة رجل ؛ فلا تخور ذكورته ولا تضمحل طاقته ولا تشبع رغبته ، أو تُسدّ نفسه ، مهما أتى من نساء . حدثتها كذلك أم سعيد ، التي جاورتها يوم تزوجت ، كيف أن نسوة أبو عبادة يتنافسن على إتخامه جنسياً ، غازيات «دخلة العرائس» في سوق المخيم ، حيث المحال المختصّة ببيع الملابس الداخلية العرائسية ، منتقيات أكثر السراويل وقمصان النوم فجوراً وهتكاً . ليس هذا فقط بل إن عزيزة ، التي تدور بين بيوت المخيم ، تحمل حقيبةً فيها مجفّف للشعر وفراشي تمشيط وجهاز «فير» لتمليس الشعر ولولبته وعُدّة مكياج كاملة وملاقط وخيوط نتْف ومبارد وحجارة حف وكريمات وزجاجات طلاء أظافر ، بلّطت بيتها وشيّدت غرفتين بمنافعهما على سطح البيت لابنها ، واشترت له طقم كنب وثلاجة وغسّالة حوضين وتلفزيوناً عشرين بوصة وفصّلت له غرفة نوم وزوّجته ، كل هذا من وراء نسوة أبو عبادة . كانت عزيزة تخفّ إليهن بعتادها التجميلي على نحو شبه يومي ؛ فكانت تمعط أجسادهن وتنتف وجوههن وتقوّس حواجبهن وتصفف شعورهن وتمكيجهن وتحفّ كعوب أقدامهن وتبرد أظفارهن وتطليها ، ثم صارت تدلكهن لتظل أبداهن ، المستنزفة بسبب كثرة الخلفة ، لدنة ومتماسكة

وطيِّعة . ولم تقتصر زياراتها لهن في شققهن بالعمارة التي يقطن فيها ، والتي بناها لهن أبو عبادة خارج حدود المخيم ؛ بل كانت عزيزة - بطلب منهن - تأتيهن في أوقات كثيرة في مركز تحفيظ القرآن في أثناء الدوام ، إذ خصّصن غرفةً داخل المركز ، فيها طاولة تدليك ، وكرسي برافعة شبيه بكراسي صالونات التجميل ، وطاولة تسريحة انتصبت فوقها مرآة كبيرة ، وغاز بثلاثة عيون . فكانت عزيزة تطهو معجون الحلاوة ، من الماء والليمون والسكر ، وتمعطهن تباعاً ، فيما يستلقين على كنبات جلدية ، مستعارة من مكتب الإدارة ، أنصاف عاريات .

ترسل حوّا عينيها من وراء صفحة زجاج النافذة المغلقة ، بآثار بقع المطر المتربة عليها ، إلى سماء المخيم فتلمح سحابةً بسيماء مقطِّبة ، تنذر بأفول النهار مبكراً . يبدأ الضياء بجمع حواشيه وطيّها ، منسحباً . تستشعر لسعة برودة . تشعل صوبة الغاز في الغرفة الرئيسية على عين واحدة . تشقّ باب غرفة النوم لتظل أذناها قريبتين من أنفاس رابعة التي تنتظم في شخير ذي إيقاع رتيب . كانت قد أطعمتها البامية المهروسة مع الرزّ ، وقلبتها على جنبها الأيسر ، ونيّمتها .

تجلس على الكنبة القريبة من الصوبة . تدغدغ حرارة عين الصوبة الحمراء قدميها المحشوّتين في جورب قطني سميك وفوقهما خُفّ صوفي . تمتدّ الحرارة إلى فروع جسمها . قلبها يدقّ . دقاته القوية تعزّز من دفق الحرارة في بدنها المُكنكَن على

الكنبة . سعادةٌ فائضةٌ ، مطلقةٌ ، تعمّ حشاياها . هي سعيدة لأنها تحدثت إلى منير . تحبّ صوت منير ، تحبُّه في القرب وتحبُّه في البعد ؛ وإن كان صوته في البعد ، عبر الموبايل ، أكثر وقعاً في كيانها ؛ إذ يكون جميلاً أكثر ؛ طالعاً من الأعماق ، أعماقه هو ، ونازلاً في أعماقها ؛ يلتصق بروحها حدّ العشعشة ؛ يغوص في نفسها حد الغلغلة . تكون حوّا سعيدة ، لا تسعها نفسها المكبَّلة من الفرح ، حين تسمع منير ؛ حين يتحدث إليها وحين تحكي معه ، وحين تراه ، وحين يحوطهما الهواء ذاته معاً ، وحين تتسع لهما معاً فسحة الوجود الضيقة .

تفرش جاكيتاً كحلياً من الكريب جورجيت فوق حضنها ، كجزء من تايور من قطعتين فصّلته وخاطته مع تنّورة «أفازيه» من القماش نفسه . من المفترض أن تأتي ست ريهام ، صاحبة التايور ، لاستلامه غداً . لم يتبقَ سوى تركيب أزرار الجاكيت وسحّابِ التنورة . تتأمّل حوّا الغيمة التي تتمدّد أكثر في سماء المخيم . تمشي الغيمة متثاقلة ، مائلةً فوق بعض البيوت ، باسطةً مشحات رمادية . شيء ما يوجع قلب حوّا . تشعر بوخزة في صدرها . لكنها لا تسمح بوخز القلب أن يحرف تفكيرها عن السعادة الجيّاشة من حولها . تبدأ بتركيب أول زر من خمسة أزرار علَّمت أماكنها مقابل العراوي . تسحب الخيط من داخل فتحة الزر إلى أعلى . رعدة شديدة تصيب يدها ، فتتفادى الإبرة إصبعها الوسطى المحمية بالكشتبان لتنغرس في بنصرها . تنفر قطرة دم ؛ فتضع حوّا إصبعها النازف في فمها ، تمصّ الدم

كي لا يلطِّخ الجاكيت. ترفع رأسها باتجاه الشبّاك، فيتقاطع بصرها مع عيون دخانيّة هائلة تحدق فيها من قلب الغيمة التي تزداد غلظةً.

***

ركلها نظمي بكعب حذائه في بطنها. ثم خبط رأسها بالجدار، ففجّه. خيط دم ثخين سال من صباحها الساطع وغمر شعيرات حاجبها الكّثيف. تكوّمت على الأرض تتلّوى من الألم. وضعت إحدى يديها على صفحة بطنها تحاول أن تحدّ من استشراء الوجع، ومسحت باليد الأخرى نُهير الدم من جبينها الذي انحرف مجراه ليسير بمحاذاة حاجبها نزولاً عند صدغها. حاولت الوقوف، فدفشها ثانيةً بقدمه على الأرض، ثم داس رقبتها بحذائه ذي النعل المُمسْمَر الحواشي، فاستشعرت حرارة النعل الذائب برؤوس المسامير المعدنية الدقيقة الحامية تصلي لحمها. انحنى فوقها، ولّف السلسلة الذهبية اليتيمة لديها حول عنقها؛ شدّها بعنف حتى كادت عيناها تطلعان من مطرحيهما، وقد توقف نفَسُها على نحو شبه تام. فإذا ما انقطعت السلسلة أخيراً، تجرّعت هواء كثيراً زفرته مرة واحدة. وضع السلسلة في جيبه، وقال لها إنه سيبيعها، وسيسدّ بفلوسها ثمن الأقمشة التي خرّبتها.

لم يكن مضى على زواج حوّا ثلاثة شهور حين طرقت

بابها ثلاث نساء ، من قريبات نظمي ، وضعن فوق ماكينتها الجديدة ، التي خرجت مع جهازها ، ثلاث قطع قماش . خيّاطة العائلة ، كما وصفنها ، أوْلى الآن من غيرها . كن مستبشرات بالصبيّة التي تعلّمت الخياطة على أصولها من الست قمر ، أشطر وأغلى خياطة في صويلح ونواحيها . استمعت حوّا إليهن بصبر . شرحن لها تصوراتهن المشوَّشة في رؤوسهن مطوّلاً . رسمن تصاميمهن الغائمة وشطبنها مرات عديدة ، قبل أن يستقررن على غاياتهن ، التي ظلت عائمة بتفاصيل وإضافات كثيرة هائمة . لم تجادلهن حوّا فيما يصحّ ولا يصحّ ، لم تناطحهن - على غرار ما كانت ست قمر تفعل مع زبوناتها - فيما ينفع وما لا ينفع . وكانت كلما سألتهن أكثر ، تاهت أكثر فأكثر ؛ وظلّت في تيهها وهي تدوس برجلها المتردِّدة على دوّاسة الماكينة ، لترى الدرزات السريعة المتعاقبة تسلك مسلكاً بعيداً عن ذاك المأمول أو المُتخيَّل ؛ حتى إذا فصّلت الأقمشة وخاطتها ، عرفت أنها ضلّت الطريق تماماً ، وأنها ذهبت إلى حيث لا تريد النسوة ، فكان أن حملنَ النتيجةَ البائسة إلى زوجها ، غاضبات ، متوعِّدات ، نافضات ما آلت إليه أقمشتهن التي انتقينها بعناية أمامه ، مبالغات في احتساب خسارتهن الفادحة . إحداهن ، وهي ابنة خالة أبيه ، لم تتورّع عن رمي قطعتها المفصَّلة في وجهه ، مقترحةً عليه أن يمسح بها طيزه .

لأيام ، ظلّ عنق حوّا مطوَّقاً بالاحمرار الناجم عن محاولة نظمي اليائسة خنقها . لم تأبه حوّا كثيراً لسلسلتها الذهبية

اليتيمة . كانت تعرف أن نظمي لن يعوِّض قريباته . حتى وإن عوّضهن ، فإن ثمن السلسلة أضعاف كلفة القماش ، وهو ما يعني أنه كان سيحتفظ بمعظم ثمن السلسلة فعلياً لنفسه . لكن شيئين بهيّيْن تمخّضا عن «قتْلتها» الشنيعة : الأول أن والدتها اقترحت على نظمي أن يسمح لها بأن تواصل التدرُّب والعمل عند ست قمر لتكتسب خبرةً ظلت ناقصة ، ولتصبّ في البيت الجديد المجدب دخلاً إضافياً ينتشلهم ، من خلال الأجرة التي كانت ست قمر تخصصها لها أسبوعياً . أما الثاني ، وهو الأكثر بهاءً ، فقد تسبّب ركل نظمي العنيف لها في إجهاضها . لم تكن قد أكملت الشهر الثاني من الحمل . اغتمّت العائلة كلها ، من طرف أهلها ومن طرف أهله . ومن المرجّح أن نظمي شعر ببعض الذنب العابر . شعوره لم يدُم طويلاً . بالنسبة لحوّا ، فإن سعادتها ، وهي ترقب جدول الدم الناحل يلوث صفحة فخذيها ، مصحوباً بغصٍ شديد طالع من حلق روحها ويعتصر مصارينها عصراً شديداً ، لَم توازها سعادة أخرى .

عملت حوّا «خياطة متدرِّبة» لدى ست قمر نحو ثلاث سنوات قبل أن تنفصم عنها بالزواج . كانت بكل يقين أجمل ثلاث سنوات في حياتها . لم تشعر حوّا أنها تعمل ، أو على الأقل ليس في إطار «الفعل» المجهد والعمل الاستعبادي ، كما لم تستشعر لحظةً أنها تقضي أكثر من ثلث يومها في بيت غريب . ففي ثلث اليوم ، من كل يوم ما عدا الجمعة ، كان بيت ست قمر بيتها . كان ملاذها . فيه ، كان وخز الألم يخفّ ووهج

الاحمرار يبهت ، وانتفاخ الورم يتناقص ، ودوس قدم موسى بالحذاء ذي النعل المشبع بقذارات الحواري على رقبتها يتلاشى ، ولهيب النار التي تشعلها القشاطات في بدنها تبرد قليلاً . والأجمل من هذا وذاك أن حوّا كانت تحسّ جداً بأن ست قمر كانت يمكن أن تكون أمّها . وكأم كانت ست قمر ستكون حنوناً وعطوفاً ورؤوماً ، ومحِبّةً شغوفة ، وكانت ستتفقّد ابنتها ، التي تتخيّلها حوّا تشبهها هي حدّ أن تكون هي نفسها ، في الليل وفي النهار ، وستشتاق لها في عتمة النوم ونور الصحو ، وستفزع إذا تاهت أو تأخرت في المساءات المجلّلة بالريبة ، وستنشج روحها إذا توجّعت أو حزنت ؛ وكأم لها كانت ست قمر ستلقي بجسمها فوقها دثاراً صادّاً وحائطاً منيعاً ، فلا يطولها خبْط ولا رفْس ولا ركْل ولا لكْم ولا سحْق ولا تحطيم ولا تمعيس ولا تفغيص ؛ وكان قلب ست قمر الأمومي سيلهج بالدعاء والدموع إذا مرضت ابنتها ، التي تشبه حوّا كثيراً حدّ أن تكون هي ذاتها . . حوّا ؛ وكانت ست قمر ستقول لها «يمّه يا حبيبتي» ، و«يمّه يا روحي» ، و«يمّه يا عمري» ؛ وكانت ستُمطرها ليل نهار بالقُبل والعناقات في اللقاءات التي تماثل تلك التي تراها حوّا حقيقيّة جداً بين أمّهات وبنات المسلسلات التلفزيونية .

كانت حوّا تعتقد أنها تشبه ست قمر كثيراً . ولم يفتقر اعتقاد حوّا ، الداخل في باب الرّجاء ، إلى أساس منطقي تماماً ، فعديد من زبونات الست قمر ، خاصة الجديدات منهن ، كنّ

يسألنها عما إذا كانت حوّا ابنتها . كانت روح حوّا تخفق فراشةً جذلى فوق سهول خضراء فارهة من الهناءة ، حتى وإن كان جواب ست قمر بالنفي . لكن ست قمر لم تكن تنفي أمومتها لحوّا مستنكرةً أو منزعجة ؛ بل كانت تجيب بعطفٍ أصيل ، وأحياناً ببعض التوق : «زي بنتي» . والصحيح أن ستّ قمر ، التي كانت تعتلي في حينه عتبة الأربعين برشاقةٍ ومهابةٍ ورقيٍ ، كانت مرشحةً جداً لأن تكون أماً لابنة بعمرِ حوّا . بل إن جسدها ذا الهندسة اللحمية الكريمة كان يستطيع أن يصنع أكثر من ابنة وأكثر من ولد .

لم يبدُ أن حوّا كانت حريصةً على أن تتعلم الخياطة ، على أصولها ، بسرعة ؛ على الأقل ليس في البداية . كانت تقضي في تنظيف شقة ست قمر وترتيبها وقتاً أكثر بكثير مما يلزم . ولم تكن ست قمر تضغط عليها ؛ فلتفعل حوّا ما تشاء في البيت ، طالما أنها هي تفتح عينيها في التاسعة صباحاً على رائحة القهوة التي تتغلغل في رئتيها الجافتين ، تعبّ الرائحة عبّاً ، دون أن تشْرَق بها ، فتُفعَم روحها بها وتَطْرى . أعطت ست قمر حوّا نسخةً من مفتاح البيت ؛ فكانت حوّا تصل بين الثامنة والنصف والتاسعة صباحاً ؛ تفتح الستائر ، ونافذة الصالة لتهوية الغرفة ، من رائحة السجائر اللابثة في الفضاء المسدود ، وقد تخّنت في الليل وتخمّرت حتى إن التبغ كان يُجسُّ في الهواء الساكن ؛ ترفع منفضة السجائر الغاصّة بأعقاب السجائر والمتروكة فوق الإسفنجة المنزاحة للكنبة الموريس ثلاثية المقاعد

التي تجلس عليها ست قمر ؛ تنفض رماد السجائر المتناثر على الكنبة ، وتعدّل الإسفنجة ؛ ثم تضع ركوة القهوة على الغاز .

كانت حوا تجلب معها أحياناً علبة فيها جبنة نابلسية ، من صنع جدتها ، وبرطماناً صغيراً به زيتون أخضر مكبوس مع الفلفل ، من صنع والدتها ، وقد تشتري ضمّة نعناع من إحدى عربات الخضار بالقرب من موقف الحافلات ، وتتوقف في مخبز قريب من بيت ست قمر لشراء ربطة خبز ، كما تسير بضع خطوات إلى مطعم منزوٍ في شارع جانبي ، تشتري منه حمّصاً وفلافل . حتى إذا بقبق الماء المغلي ، رفعت الركوة عن النار ليهدأ لهاث مائها قليلاً ، قبل أن تلقمها القهوة ، بمعيار محدَّد ، يكون معه سائل الحواس البنّي متماسك القوام ، ثقيلاً ، وليس مائياً أو رخواً ، مع قشدة رغوية رقيقة ، طافية على السطح .

كانت حوّا تضع ركوة القهوة مع فنجان وطبق مماثل على طرفه حبة شوكولاتة ملفوفة بورقٍ فضّي ، وكأساً بها ماء وباكيت سجائر مع ولاعة ومنفضة على الصينية وتحملها إلى مطرحها على كنبة الموريس ثلاثية المقاعد . لم تكن ست قمر تضع فنجان القهوة أو منفضة السجائر على الطرابيزة . كانت تريد لقهوتها وسجائرها ، صانعتي نهارها ومزاجها ، جليستيْها الأنيستيْن المؤنستيْن ، أن تكونا قريبتين منها ، امتداداً طبيعياً ليدها . وحين كانت تسحب رشفة القهوة الأولى ، بنوع من المزمزة ، سطحُها الرّغوي يداعب حلمات لسانها ، تتبعها بنفَس سيجارة طويل ، تغمض عينيها ، وترفع رأسها إلى أعلى كما لو أنها تحلِّق ببصر

الذاكرة إلى مكان ما ، تقطف منه صورة أو إحساساً ما ، ثم تفتح عينيها كأنها هبطت على الأرض فجأة ، فتعرف أن يومها بدأ .

وبحبور لا يوصف ، تحضِّر حوّا الفطور ، فتعدّ «الأومليت» كما علّمتها ست قمر . توزِّع أطباق الجبنة النابلسية والزيتون والزيت والزعتر والحمّص ، الذي تضيف له رشّة زيت زيتون ، والفلافل على طاولة المطبخ ذات الكراسي الأربعة . تجلسان إلى الطاولة الصغيرة ، قبالة بعضهما ، أماً وابنة ، تتقاسمان القصص والرغيف . حين تلاحظ ست قمر أن حوّا تتردّد في الوصول إلى طبق بعينه تضعه أمامها . لا تشرب ست قمر الشاي مع الفطور . «الفلاحين بس بيشربوا الشاي مع الأكل» ، تقول لها ست قمر ضاحكة ، فتتجرّع حوّا كوب الشاي بورق النعناع الأخضر يطفو على سطحه الأحمر الرائق بتلذُّذ . تمدّ ست قمر يدها إلى غرّة حوّا الفالتة على جبينها بعفوية . تنفض نتشة خبز صغيرة عالقة أعلى شعرها برقّة . ثم تجمع الخصلات الفوضوية الطويلة وتمشطها بأصابعها وترفعها خلف أذنها ، ثم تنزل هذه الأصابع على خدّها المتورِّم . تعاين ست قمر آثار احمرار مطفأ . تسألها عنه ، فتزدرد حوّا قرص فلافل تتبعه بلقمة حمّص ، وتقول لها بصوت منكّس : «وْقِعتْ الصُّبح عَ وجهي!» تتطلّع حوّا في معلّمتها بطرف بصرها كي تتحقّق مما إذا كانت رصدت كذبتها . تملّس ست قمر جبين حوّا ، الذي لا يزال يحمل آثار جرح أُغلق حديثاً ، وخدّها . تمسح بشرتها برفق ؛ فتشرق عينا حوّا ، وينهمر شعاعهما الصباحي الفائض

على وجهها ، لتطغى حمرة الخجل ودفء العاطفة فيه على احمرار الورم .

إلى جانب الصالة والصالون ، ضمّت شقة ست قمر ثلاث غرف نوم ، جعلت الأكبر منها والملحقة بحمام ، غرفة نوم لها . كانت في الغرفة خزانة كبيرة بستة أقسام وسرير مزدوج ، احتلّت ست قمر الجهة اليسرى منه ، ولم تبدلها ، كما لم تتعدَّ على الجهة اليمنى أبداً ؛ كأنها كانت تنتظر رجلها يأتي من غياب ما ، فيجد مكانه على السرير جاهزاً . وحين كانت تفيق من نومها ، تقع عينها أول ما تقع على الجهة الفارغة من السرير ، تمدّ ذراعها إلى احتمال ما ، لعلّ الذي أتتها هيئته كاملة المعالم في المنام قد تخلّق إلى جوارها ، فتجعّدت الوسادة المنفوشة وملاءة السرير المشدودة من أثر جسده ؛ من أحاسيسه مترامية الأطراف ، من أنفاسه ، من نبضه ، ومن عرَقه .

وضعت ست قمر في غرفة النوم الثانية خزانةً ببابين وسريراً مفرداً ، وكنبة مفردة ، وتسريحة صغيرة بمرآة بيضاوية وكومودينو عليه أباجورة وصورة لطفلة ذات عينين بلون زرقة السماء الربيعية ، وشعر أشقر ذهبي معقود في ذيلين قصيرين جانبيين مع غرة غزيرة ناعمة منسدلة على جبينها . كانت الطفلة تحضن كلباً أبيض ، وتبدو أنها تضحك من كل قلبها ، أسنانها اللبنية البيضاء ترسل ضياء عميماً . لكن رغم ضحكة الصغيرة ، التي تكاد شهقتها تُسمع ، فإن الغرفة كانت باردة ، وموحشة . حين فتحت حوّا الخزانة أول مرة لتنظيفها ، هالها

الفراغ الكبير في بطنها . جثم في قعرها لحاف وبطانية فقط ، لم يُستخدما منذ زمن ، ووسادة مغلفة بكيس نايلون استلقت في قاع الخزانة . علاّقات الخشب اليتيمة من الملابس طقطقت مع فتح الباب ، كهياكل عظمية . خافت حوّا . أغلقت باب الخزانة شبه الفارغة ، وفرّت من الغرفة ، سادّةً بابها وراءها . كانت واثقة أنها رأت شبحاً قابعاً في الخزانة . قالت ذلك لشقيقتيها عفاف وساجدة فصدقتاها . حين اعتادت حوّا على الغرفة ، التي كانت تضطر لتنظيفها ، حرصت على أن تظل بعيدة عن الخزانة . شيء واحد كان يستوقفها : الطفلة الفرحانة . دقّقت حوّا في الصورة جيداً . لم تكن الطفلة تشبه ست قمر . بل لم تكن تشبه أي بنت تتخيّل أنها رأتها . كانت الصغيرة أجمل من أن تكون حقيقية .

ثم تأتي مرات لا تكون فيها الست قمر هي الست قمر التي تعودت عليها حوّا . تصحو من نومها كدرة . تدخن سيجارة على الريق ، تتبعها بسيجارة ثانية وثالثة . ثم تسعل مرات كثيرة متتالية ، فتُحشر روحها في حلقها الجاف وتُعتصَر . تعبُّ القهوة مرة واحدة . تخاصم الفطور وتشيح عن الغداء ، وتلازم غرفة النوم ذات السرير المفرد . تجلس على طرف السرير . تسند رأسها على حافته المرتفعة . تحضن إطار الصورة ، أكثر مما تحتضن الصورة نفسها . تشدّ ظهر البرواز إلى صدرها ، فيما تظل الطفلة بالعينين السماويتين الضاحكتين والأسنان اللبنية النظيفة تنظر بعيداً ، مفصولةً تماماً عن ست قمر .

في البداية ، كانت حوّا تخاف على ست قمر . كانت ترى ست قمر تذهب كأنها ترحل . وكانت تخشى عليها ألا تعود ؛ فقد كانت تظل على حالها هذه ساعات ، وأحياناً طول اليوم . تعلّمت حوّا ألا تحكي معها أو تناديها أو تحاول استرجاعها إلى عالمها المألوف .

تنظف حوّا البيت وتطهو ، ثم تنجز أعمال الخياطة المتروكة لها وأعمالاً أخرى يفترض أن تقوم بها ست قمر ، دون أن تفتح ست قمر فمها ودون أن يبدر منها ما يشي بأنها تحسّ بما حولها . عيناها تظلان متجمدتين ، ثابتتين ، تريان دون أن تريا حقيقةً . تكون كأنها غادرت الدنيا تاركةً وراءها قطعة جسد لا قيمة لها كبيرة . من وقت لآخر ، تشقّ حوّا باب الغرفة الموارب لتتفقّد ست قمر . تراها على قعدتها إياها ، تعبط ظهر الصورة ، صافنةً في لا شيء على وجه التعيين . تقترب منها ، تسمع أنفاسها الهادئة المنتظمة ، فتتأكد أنها لا تزال بخير في تلك اللحظة ، حتى وإن لم تكن واعية تماماً . وقد تدخل عليها فتراها نائمة ، جسدها المنسلخ عن روحها مرخي على السرير ، فتُمدِّدها على جنبها برفق ، تفرد ساقيها ، وتغطيها . تحاول حوّا أن تنتزع الصورة منها ، لكن ست قمر تشدّها إليها ، سادرةً في عالمها الآخر لم تزل ، عاقدةً ذراعيها بإحكام فوق البرواز كأنها تخشى أن تفقده أو أن يُنتزع منها انتزاعاً . حين تفيق ست قمر أخيراً ، ترجع إلى دنياها كأنها لم تغِب عنها لحظة ، وتعود غرفة النوم ، بالسرير المفرد ، إلى وحشتها السابقة ، فيما يظل وجه

الطفلة ذات الأسنان اللبنية يتفجر من السعادة . وتظل الصغيرة ، على ما يبدو ، تضحك حدّ القهقهة التي تفرط معها الروح ويسيل اللعاب الطازج حيياً ، حتى عندما تغلق حوّا الغرفة بالمفتاح ، بناء على تعليمات ست قمر ، التي لم تكن تسمح لكائن من يكون بدخولها .

غرفة النوم الثالثة ، والكبيرة نسبياً ، خصّصتها ست قمر ورشةً للخياطة . كانت فيها ماكينتان ، واحدة يدوية والثانية أحدث ، تعمل بالكهرباء . وكانت هناك طاولة للقص ، مصنوعة من خشب الزان والسوّيد ، أقرب في تصميمها إلى مكتب طويل ، رُكِّبت في جانبيها مجموعة من الرفوف والأدراج ، التي امتلأت بعلب مواسير الخياطة ، مختلفة الأحجام ، وبكل درجات الألوان وظلالها ، والأزرار والسحابات والمشابك وأمتار من شرائط الدانتيل والتنتنة وشرائط القياس وعلب الدبابيس والإبر وبقايا قطع من قماش الفازلين وشرائح إسفنجية رقيقة وتشكيلة من مجلات الموضة . بالقرب من الزاوية ، عند فم الباب ، ربضت صوفا خضراء . على طول حائط ، وقفت خزانة بأربعة أقسام ، اثنان منهما خُصِّصا لتعليق الفساتين والتايورات الجاهزة للتسليم ، أو تلك التي دخلت مرحلة التشطيبات النهائية ؛ وتألف القسمان الآخران من عدة رفوف ذات مدى وارتفاع عميقين ، ارتصّت فيهما عشرات الأكياس من الأقمشة ، التي كانت تتكاثر يومياً ، غُرست في ثغورها أوراق فيها ملاحظات وأسماء ومقاسات صاحباتها .

زُوِّدت الغرفة الفسيحة نسبياً بأربعة أضواء نيون أسطوانية طويلة ، بضياء أبيض ساطع ، ما جعل إنارتها في الليل أقرب إلى نور النهار الصافي . سجادة عسلية مطبَّعة بالأخضر الزيتي والأحمر الناري غطت منتصف مساحة الغرفة ، كانت حوّا تنظف ما يعلق بها من وبر أقمشة يومياً بالمكنسة الكهربائية . في إحدى زوايا الغرفة ، وقف قاطع خشبي من أعواد الخيزران ، بأربع درْفات قابلة للتحريك والفتح والإغلاق . شكّلت المساحة الصغيرة خلف القاطع ركناً للقياس . كانت هناك مرآة بيضاوية باستطالة مثبتة على منصَب وشمّاعة ملابس . كانت النسوة يتوارين خلف الدرفات الخيزرانية لقياس فساتينهن ، في البروفة الأولى أو النهائية . ولم يكنّ يخفين إثارتهن حين تنزلق القطع المقصوصة والمخيطة حديثاً فوق أجسادهن ، بالروائح المختلطة للأقمشة تفور في الهواء من حولهن ؛ نشنشة القماش تناغش أسماعهن ، فتُطرَب لها خيالاتهن ، كاتمات آهات الوخز إذ تُشكْشِك الدبابيس لحومهن الحارة . في أحيان كثيرة ، كانت حوّا تساعدهن في ارتداء فساتينهن ؛ بعضهن يقفن أمام المرآة مبهورات بإطلالتهن ، وبعضهن كأنهن يتعرفن على أنفسهن للمرة الأولى ؛ تمسح أبصارهن الهيئات البهيّات في المرآة ، طولاً وعرضاً ، كأنهن يردِن القبضَ على اللحظة إلى الأبد ، دائخات بعبق النسيج ، حديث القطاف والقصّ والحبك ، لا يُردِن أن يفقدن اللحظة السحرية .

تعلمت حوّا أشياء كثيرة من ست قمر . تعلّمت أخذ

المقاسات ورسم الباترون الأساسي ، وإن لم تكن ست قمر تأخذ بمقاساتها ورسوماتها في البداية ، مكتفية بمعاينتها والتحقق منها . لشهور ، قنعت حوّا بالمهام البسيطة ، كالسراجة ، وخياطة الأزرار والمشابك ، وتركيب السحابات ، وتركيب الفازلين على الياقات وأساور الأكمام ، وتثبيت الكتافيّات المحشوة بإسفنج رقيق ، وتنظيف حواف القماش بالمقص المشرَّم أو حبكها يدوياً . كانت حوّا تستمتع بلقف الثنيات بالغرزة المخفية ، مظهرة دقةً متناهيةً ومهارةً استثنائية في تثبيت كل أشكال الغرزة المنمنمة ، غير الظاهرة ، من المصلَّبة إلى رِجْل النملة ، فعضّة السمكة ، حسب تعليمات ست قمر . تأخرت حوّا قبل أن تنتقل إلى رسم الباترون على القماش ، ثم القص وتجميع قطع القماش وخياطتها .

لكن حوّا ، وإن بلغت بعد سنوات مهارة ست قمر أو درجة قريبة منها ، لم تكتسب الدرجة ذاتها من الحساسية المفرطة إزاء القماش ، وقطعاً لم تكن حوّا لتعيش القماش ، هي التي تعاملت معظم سني خياطتها مع أرخص أنواع الأقمشة وأكثرها استهلاكاً . بلغت حساسية ست قمر للقماش درجة فتنت معها حوّا نفسها . وفي بعض النهارات غير الضاغطة ، أو التي يخفّ فيها دوس قدميهما على الماكينتين ، كانت ست قمر تستمتع حين تختبر حوّا في القماش ، وتستمتع أكثر حين ترسب حوّا في الاختبار . كانت ست قمر تقرب قطعة قماش إلى أنف حوّا ، في اختبار شمّ كأنها تستنطق طبقات الرائحة الجوّانية .

«شو بْتِشبَه الريحه؟» تظل حوّا تتنفّس قطعة القماش، طيّاتها وثنياتها وتموّجاتها، فلا تشمّ سوى القماش، تقول لست قمر ببراءة. «خطأ!» تردّ عليها ست قمر، منتشيةً إذ تطوّق أنفها رائحة البخور أول اشتعاله في المخمل، ورائحة هواء أيار متنقّلاً بين بتلات الزنابق والجوري والياسمين في الحرير والساتان والشيفون، ورائحة الفاكهة المجففة في الأورغنزا والغيبير والدانتيل، ورائحة ترف معتّق، شائخ أحياناً، في الأقمشة المقصّبة والمُشكْشَكة والمطرَّزة، ورائحة بخار الكستناء المشوية في الجوخ والتويد، ورائحة الجمرات الهاجعة، نصف المشتعلة، في الفرو والموهير، ورائحة أوراق الأشجار المتقصّمة في القطن والكتان، ورائحة الحشائش المغسولة بالماء في الجيرسيه، ورائحة البلاستيك المصنَّع حديثاً في النايلون والبوليستر.

لكن ست قمر أعطت حوّا مرّة درجة عشرة من عشرة، وهي تضحك بملء قلبها، حين سألتها عن رائحة قطعة قماش، بدت كما لو أنها دُكّنت في الكيس الذي جلبته صاحبتها لسنوات. دسّت حوّا نصف رأسها في الكيس. تنشقّت الرائحة ملياً، وحين أخرجت رأسها من الكيس، استحضرت كل مخزون الروائح لديها حتى طلعت بالتقييم، الذي وصفته ست قمر بالمدهش: كانت الرائحة تشبه رائحة المجاري الفائضة في الزقاق المؤدي إلى بيتهم في مخيم البقعة لأكثر من أسبوع، خاصة في فترات الظهيرة اللاهبة والشمس تضرب مجرى النهير الأسود الراكد.

إلى جانب براعتها ، التي بزّت بها خياطات كثر في زمانها ومكانها ، عُرفت ست قمر بذوقها الفريد وحسّها الجمالي الفرداني ، خاصةً في اللمسات الأخيرة التي تحدث فرقاً . تخطت سمعتها صويلح ، فكانت النسوة يأتينها من كل نواحي عمّان . وكنّ يستجبن لملاحظاتها وتصوّراتها الجلية جداً في رأسها في اختيار التصميم بما يتوافق مع نوع القماش وتفصيلة أجسادهن . في كثير من المرات ، كان رأيها يأخذ طابعاً ديكتاتورياً غير قابل للنقاش ، ونادراً ما كانت النسوة يجادلنها في الموديل الذي تراه مناسباً أو في الخامة المواتية ؛ لأن «ست قمر تعرف أكثر» . وإذا صادفَت من إحداهن عناداً ليس في محله ، أو إصراراً غبياً من النوع الذي كانت تصفه بـ«التناحة» ، فإنها ببساطة كانت تشتغل القطعة من «قفا يدها» ؛ ويغيب قلبها ، كما نظرتها الجمالية ، عن الشكل النهائي للتصميم ، فلا يحمل اللمسة القمرية الأثيرة . وإذا ما بلغ نزقها منسوباً فائضاً ، ركنت ست قمر قطعة القماش على حالها كما استلمتها لأيام ، حتى إذا جاءتها الزبونة للبروفة ، تعتذر لها كونها لم تتمكن من تفصيلها ، متحجّجةً بأي كذبة . وأحياناً كان يحتدم النقاش بين ست قمر والزبونة ، فترمي ست قمر قطعة القماش في وجه المرأة لتخرج الأخيرة من بيت ست قمر شبه مطرودة .

لم تكن حوّا تروم نهاية اليوم أو تستعجله في بيت ست قمر . لكن عزاءها أنها كانت تعود إلى بيت أهلها آخر النهار

بكنوز صغيرة ؛ فقد كانت ست قمر تسمح لها بأن تأخذ «بواقي» الأقمشة ، التي لا يُرتجى منها شيء . كانت حوّا تتوق للحظة التي تفرز فيها «البواقي» في البيت ، وكثيراً ما وقعت على لُقى ثمينة ؛ فتقضي جانباً من يوم الجمعة في خياطة فساتين لدمى بنات الجيران ، تبيع الواحد منها بشلن أو ببريزة ، وقد يصل ثمن الفستان إلى عشرين قرشاً ، حسب نوع القماش والتصميم وشغل اليد . في مرة ، خاطت جهاز دمية كاملاً ، من ثماني قطع ، بما فيه فستان زفاف من الشيفون والدانتيل الأبيض مع طرحة وتاج صغير من السلك ، رصّعته حوّا بخرزات زجاجية ، لبنت كانت ترتدي فساتين قصيرة وصنادل ملونة ، جاءت مع أهلها من السعودية في إجازة الصيف ، وحلّوا ضيوفاً مكرَّمين ومحتفى بهم عند أقربائهم في المخيم . أمّ الطفلة ، التي ارتدت عباءة حريرية سوداء ، فاحت منها رائحة عطر شرقي نفّاذ ، كاشفةً عن يدين بنقش حناء داكن ، باذخ ، بخواتم ذهبية كثيرة زيّنت أصابعها ، دفعت لحوّا ورقةً حمراء جديدة ، غير مثنية ، من فئة الخمسة دنانير . لم تصدق حوّا نفسها . وظلت الورقة الحمراء ، جديدة وغير مثنية ، ليوم وبضع ليلة ، قبل أن يسحبها والدها منها ويثنيها ثلاث ثنيات ، ويودعها في جيب قميصه . لم تكن لدى حوّا ماكينة في البيت ، فاعتمدت على حياكة الفساتين الصغيرة يدوياً ، باستخدام غرزة النبّاتة ، التي تشبه غرزة الماكينة ، وهي غرزة كانت تنهكها ، وتستنزف أصابعها ، وتُصلِّب عنقها ، إذ تظل

منحنية على القطع المنمنمة بالساعات . ومع ذلك كانت تستطيع حياكة عشرة فستانين وربما أكثر في اليوم ، ما جعل والدتها تعفيها من بعض أشغال البيت مقابل دخل إضافي له حاجة ماسة دائماً .

تذكر حوّا يوم وقعت على ربع متر من قطعة مخمل ثمينة بلون أزرق نيلي . فُتِنت بها . أرَتْها لضحى التي كانت تستمتع بمتابعة شقيقتها تخيط الفساتين الصغيرة من أقمشة لمّاعة وبرّاقة . «إيش رأيك؟» سألت ضحى ، فنوّر وجه الصغيرة التي تمدّد هيكلها الحاتّ فوق الطرّاحة . انثال القمر من النافذة على القماشة ، فاختالت ظلاله المفضَّضة على موج قطعة القماش الليلي الساكن ، وغدا أزرقها أكثر ثراءً . أعملت حوّا خيالها الطازج على القطعة الغالية ، فخرج من يديها وإبرتها الحثيثة ، الدؤوبة ، الصبورة ، المحِبَّة ، فستان مصغَّر طويل ، بصدر وخصر ضيقين ، وتنّورة عريضة زمّتها من عند نهاية الخصر ، ما أعطاها حجماً . ركّبت للفستان كمّيْن منفوشيْن ، بسواريْن عريضيْن طرّزتهما بدمع اللؤلؤ ، كما طرّزت حافة الياقة الدائرية بصفّين من دمع اللؤلؤ . فاضت مشاعر ضحى من الفرح ، عندما حضن الفستان قوام دميتها الناحلة . بدت الدمية ، التي انعكس اللمعان غير السافر للزرقة المخملية المهيبة على بشرتها البلاستيكية الشاحبة أميرة ؛ أميرة مترفِّعة ، مغرورة ، جميلة ، وسعيدة ، كأن الدنيا كلها لها . ظلت ضحى تنام وتصحو وتحيا يومها ، وفي كل ما تبقى من أيامها ، برفقه أميرة المخمل . كانت

تحضنها إليها بشدة كأنها تخشى أن تؤخذ منها . في ليالي كثيرات ، التمست ضحى من الوبر الحريري للنسيج حياةً مديدة . قالت لها عفاف وساجدة إن المخمل قد يذوب أو يبهت لونه من التصاقه طول الوقت بيديها المعروقتين ، لكن ضحى لم تتخلّ عن أميرتها . وظلت تنام وتفيق معها . حتى عندما اشتعلت الحمى في جسدها ، وأكلت النار رأسها ، لم تفلت أميرتها من حضنها . وحين طلع الصباح ، فبردت أخيراً ، وتوقّفت عن الحياة ، سحبت عفاف أميرة المخمل بصعوبة من ذراعي شقيقتها العوديّتيْن المتشابكتين فوقها . بضع دمعات لؤلؤ ، أفلتت من ياقة الفستان ، متدحرجةً على الأرض ، ومعها تدحرجت دمعات ساخنات من عيني حوّا .

في البداية ، كانت حوّا تتقاضى خمسة دنانير في الأسبوع من ست قمر . وكانت تعطي الفلوس كلها لرابعة ، وكان موسى يأخذ ما يستطيع أن يأخذ منها . بعد أربعة شهور من عملها ، زادت لها ست قمر أجرتها الأسبوعية إلى ثمانية دنانير . فرحت رابعة بالزيادة وأخفت أمرها عن موسى ، الذي اكتفى بالسلبطة على الدنانير الخمسة أو معظمها . ثم صارت ست قمر تنقد حوّا عشرة دنانير ، فأخفت حوّا الدينارين الجديدين عن رابعة . وحتى حين صارت تتقاضى خمسة عشر ديناراً في الأسبوع ، كانت تناول والدتها عشرة دنانير ، متكتِّمة على الخمسة دنانير وعلى الفلوس الأخرى التي كانت تتحصّل عليها من بعض زبونات ست قمر السخيات ، لقاء قهوتها

الشهية التي تعدّها لهن والتي تصبّها في فناجين بيضاء مذهبة ، تقدّمها مع حبة معمول أو كعك بعجوة وكأس ماء على صينية مزيَّنة بقماشة من الدانتيل السكّري ، بحسب مكانة الزبونة لدى ست قمر ؛ أو لقاء إشرافها على البروفات النهائية ، من تضييق وتوسيع وتقصير وتطويل ، بعدما باتت ست قمر تركن عليها في مهام خياطة كثيرة .

تذكر حوّا ذاك الكنز الذي هبط عليها ، من حيث لم تحتسب . كانت تجلس على الأرض ، كعادتها ، تضبط ذيل فستان لزبونة لها وزنها ، تدعى ست فريال . حفظت حوّا الاسم لأنه عنى كثيراً في حينه . فالست فريال كانت تأتي إلى بيت ست قمر في سيارة سوداء ، يقودها سائق خاص . وحين كانت السيارة تقف عند مدخل العمارة ، تغلق الشبابيك والأبواب المفتوحة تباعاً ؛ وبالكاد يدخل أحد العمارة أو يغادرها . كانت ست فريال تبدو وهي واقفة شجرةً مفرَّعة ، ضخمة ، فيما بدت حوّا ، الجالسة أرضاً ، نبتة قزمة . كانت في أواخر أربعيناتها ، شقراء ، بشعر ذهبي خالص ، وعينين زرقاوين دائريتين صغيرتين ، لم تشُبْهما أية مسحة لون أخرى ، أشبه بخرزتين . كانت تتكلم بلهجة أردنية ثقيلة ، أقرب إلى البداوة . عرفت حوّا لاحقاً أنها شركسية ، وأن زوجها ، علي بيك ، كان يحتل منصباً رفيعاً في الدولة . كانت حوّا تنحني عند قدمي ست فريال ، تثبت الدبابيس في ذيل فستان طويل من الحرير والشيفون فصّلته لترتديه في زفاف ابنتها . وكانت ست فريال

تصف لست قمر ولحوّا ترتيبات الزفاف . لم تبدُ ست قمر مهتمة بمعرفة التفاصيل قدر حوّا التي كانت تصغي بانتباه، للمرأة التي عكست هيئتها عزّاً وجاهاً ، وهي تصف فستان زفاف ابنتها الذي أوصوا عليه من باريس . حين انتهت حوّا من تثبيت الذيل ، تأملت ست فريال إطلالتها الباهظة في المرآة ، ثم فتحت جزدانها ، وأخرجت ورقة من فئة العشرة دنانير ، فردتها بيديها ، ثم رمتها من علٍ في حِجْر حوّا . لم تصدق حوّا ، التي كانت لا تزال تجلس على الأرض ، نفسها . أكثر ما كانت تتحصّل عليه من زبونات ست قمر نصف دينار ، وأحياناً نادرة دينار . لكن عشرة دنانير ، هكذا! نظرت حوّا إلى ست قمر ، كأنها تستأذنها ، فأغمضت الأخيرة عينيها علامة الموافقة . حين كانت ست فريال تأتي ، تستقبلها ست قمر بنفسها عند الباب ، وتودّعها بنفسها . حتى إذا أصغت إلى صوت كعب حذائها يتلاشى على الدرجات تدريجياً إلى أن يختفي تماماً ، بصقت على الباب .

كانت حوّا تشتري بما تحوّشه من فلوس سوتيانات من القطن والدانتيل المقوّى ، بأكواب عميقة ، بالإضافة إلى بلايز وبنطلونات ضيقة ترتديها تحت الجلباب ، كانت تقول لوالدتها إن ست قمر تعطيها ملابسها التي ضاقت عليها . كما اشترت أحذية ، وعطوراً مقلّدة ، وأصابع أحمر شفاه ، وكريمات ذات ملمس مخملي ، وعلب بودرة ، وأقلام كحل . وحين كانت تعود إلى البيت تتدلى من كتفها حقيبة يد سوداء تفوح منها

رائحة جلد صناعي، أو صندل حليبي بإبزيم ذهبي جانبي، تقول إن ست قمر أعطته لها. وعندما أبدت رابعة دهشتها من قيام ست قمر بالتخلص من أحذية وصنادل جديدة تماماً، صارت حوّا حين تشتري حذاء أو صندلاً جديداً تدعك النعل بالأرض الخشنة ليتجرّح، فيبدو الحذاء أو الصندل ملبوساً.

كانت حوّا تخبئ زجاجة العطر وعدة مكياجها في إحدى خزائن المطبخ في بيت ست قمر. في الصباح، وحين تفرغ من إعداد قهوة ست قمر وترتيب البيت، كانت تغسل وجهها، وتفرد شعرها الأصهب، وترفعه نصف رفعة إلى الجانبين، وتثبته بدبابيس ملونة، فيما يتدلى من الخلف كشلال يصل إلى نصف ظهرها. ثم كانت تضع الكريم على وجهها، وتكحّل عينيها وتحمّر شفتيها وتبودِر خديها، وتوزع بخّات من العطر عند جانبي عنقها وأول صدرها. يكون الكريم أكثر كثافة والكحل أكثر سماكة، والبودرة أكثر توهجاً وأحمر الشفاه أغزر لوناً، والعطر أصخب في الأيام التي كان مراد يأتي فيها لتبديل أسطوانة الغاز. لكن أياً ما كان عليه الحال، لم تكن حوّا تنسى أن تخلع وجهها الجميل، وجهها الذي تحبّ، آخر اليوم وتتركه في بيت ست قمر، قبل أن تستعيده في اليوم التالي.

تعلّمت حوا من ست قمر فضيلتين: الماء وفيروز؛ فكانت ست قمر تصحبها مرة كل أسبوعين أو ثلاثة إلى مسبح مغلق؛ فتسنّى لحوّا أن تتعايش مع لحمها، أو ما بان منه، وسط طوفان من اللحم العاري لنساء وبنات من كل الأحجام. كانت أجمل

لحظات الماء تلك التي تطفو فيها على ظهرها . ففيها تخفّ ، كما تتخفّف من شقاءاتها وأثقال حياتها ، وترقّ ، وتكاد ببعض الخيال المستَحثّ والرغبات المكنونة تطير . كانت حوّا تشعر بضربات الماء الخفيفة على لحمها ، وكانت أشبه بأكف ملساء ، بضّة ، تدلِّكها بلطف . عندها ، كانت الأوجاع كلها تمضي أو على الأقل تنكفئ . في البداية ، استحت حوّا أن ترتدي المايوه الذي جلبته لها ست قمر . كان المايوه من قطعة واحدة تقاطع فيه اللونان الأسود والأحمر . غصبتْها ست قمر على ارتدائه . لم تستوعب حوّا كيف تطلب منها ست قمر أن تشلح السوتيان والكلسون وترتدي المايوه على اللحم مباشرة . اعتقدت أن هذا وحده أكبر عيب . وقفت في مساحة القياس الضيقة ، خلف القاطع ، في غرفة الخياطة ، تعاين المايوه الذي بدا في يدها صغيراً وضيقاً قبل أن يُمطّ على طول محيط جذعها ، راسماً تفصيلة قوامها . قماشته المتينة المصنوعة من النايلون والليكرا بدت طبقةً أخرى من اللحم فوق لحمها الأصلي . في المرآة ، رأت حوّا تقاسيم جسدها أول مرة ، هي التي كبرت ليس فقط على إخفاء جسدها ، وإنما مخاصمته وقهره . شيء ما جعلها تعاين لحمها البائن ، المتفجِّر ، مكتمل التشكّل ، خارج حدود المايوه الضيق ، إذ تكشّفت ساقاها وذراعاها وأعلى صدرها ونصف ظهرها على الأقل . وهي تتفحّص لحمها ، فكأنما كانت تتأمّل ذاتها . نادت عليها ست قمر كي تُريها المايوه ، فقالت لها إنها لا تريد . صرخت فيها ست قمر آمرة ، فقالت لها حوّا

بصوت مختنق إنها لا تستطيع . أزاحت ست قمر القاطع الخشبي ، فرأت حوّا متقوقعةً على الأرض ، ملفوفة على نفسها . سحبتها من ذراعها إلى أعلى ، فانبسط لحمها شبه العاري ، وعيناها تغالبان البكاء . تفحصت ست قمر لحم حوّا غير مصدقة . بقع بنفسجية داكنة مزرقّة في مطارح ، ومصفرّة في مطارح أخرى مع لطخات حمراء ، تفشّت في معظم مساحات لحمها ، كغيوم منفلشة ، وإن تركزت في فخذيها وأعلى ذراعيها ، بينما تجاورت خطوط عريضة متقاطعة على طول ظهرها العاري ، أشبه بالخطوط الناجمة عن ضرب عصا خيزرانية أو سوط . «شو هاد؟!» سألتها ست قمر غير مصدقة ، فاختصرت حوّا الأمر بكلمة واحدة : «أبوي!»

أما فيروز فكانت تصدح طول اليوم في بيت ست قمر ، لدرجة لم يعد معها صوتها ضيفاً عابراً أو دخيلاً . كانت ست قمر تحتفظ بحقيبة جلدية ، فيها عشرات الشرائط لأغنيات فيروز . كل شريط له علبة ، وكل علبة تحمل صورة فيروز وأسماء الأغنيات . لم تسكت فيروز يوماً عن الغناء في بيت ست قمر . وحين كانت ست قمر تضطر أحياناً إلى إيقاف المسجِّلة للتعاطي مع زبوناتها وكلامهن الكثير ، المتداخل ، فإن فيروز كانت تظل عالقةً في رأسها . وفي مرّة ، تعطّلت مسجِّلة ست قمر لأيام ، فشعرت حوّا بأن رأسها يكاد يهوي في فراغ كبير . قالت ذلك لست قمر ، فأيّدتها . لكن ست قمر لم تبدُ مضعضَعةً تماماً لغياب الصوت مؤقتاً ؛ ففيروز ، كما قالت لحوّا ،

كانت في لحمها . لم تكن ست قمر تغني مع فيروز ، أو تدندن من ورائها . كانت تصغي بروحها ، بكل دقائق روحها ، وأحياناً في الأغنيات التي تطويها غلالة شجن ، كانت تبدو وأنها ترتقي عذابات شاهقة ، أو تتدحرج بقسوة على سفح آلام متجددة .

هناك أغنية ، أكثر من أية أغنية أخرى ، يوم تطرق سمعها تترك ست قمر كل شيء لتعيش الموسيقى والكلمات التي يبدو أنها مصفّاة تماماً من البهجة ، جامعةً كل الحزن الذي يمكن تصوّره . «بيْتي أنا بيْتَكْ وْما إلي حَدا ، منْ كتِرْ ما نادَيْتَكْ وِسع المَدى ، وِسع المَدى ، وِسع المَدى . . نَطَرْتَكْ عَ بابي وعَ كِلّ البْواب ، كَتَبْتَلّكْ عَذابي عَ شمْسِ الغْيابْ ، عَ شمْسِ الغْيابْ ، عَ شمْسِ الغْيابْ» . تغمض ست قمر عينيها ، تستحضر صورةً بعيدة أو تقنص لحظةً مستحيلة . ومع هبوط النغم والإيقاع في «وِسع المدى» و«عَ شمْسِ الغْيابْ» تدريجياً قبل أن يعلوَ الصوت ثانيةً في مَدَّة طويلة ، مقطّرة ، ترشَحُ منها رنّةٌ مجلَّلةٌ بالصدى لتلتفّ النغمة في النهايات ، تراها تستجمع أنحاء جسدها كأنها تخشى أن ينفرط ، فتضمه إلى بعضه ، تزمّ كتفيها وترفعهما إلى أعلى وتُميل رأسها . وإذ تجول رياح الصوت في بئر كيانها وتصول في قاع روحها ، تهتز ، فتتوكأ على أقرب شيء . ومع «لا تِهْمِلْني ، لا تِنْساني ، ما إلي غَيْرَكْ لا تِنْساني» ، تهرق ست قمر شلالاً من الدموع .

ثم بلغت حوّا مع الفيروزيات في بيت ست قمر مرحلةً لم

تعد تميز معها ما إذا كانت فيروز تغني أم لعلها أخذت استراحة ؛ فصوتها دخل رأسها وعشعش في لحمها هي أيضاً . ويوم تزوجت نظمي ، شعرت حوّا في بيته الناشف ، الخالي من الأغنيات ومن كل شيء آخر تقريباً له علاقة بالحياة ، أن ذاتها قد تهوي في فراغ مظلم في أي وقت ، وأن صمتاً موجعاً ، تجمّع من أقاصي الكون كلها يطوّقها ، وها هو يحفر في نفسها . كان قد مضى شهران لم تسمع فيهما فيروز ، وقد بدأ صدى صوتها يبهت مداه في لحمها . طلبت من نظمي أن يشتري لها مسجِّلة ، فرفض ورماها بصفة اعتبر أنها تليق بها : فاجرة . اكتفت حوّا بزيارات فيروز لها ، على غير موعد محدد ، في صباحات الراديو . وبدا لحوّا أن فيروز صارت تتعمد أن توّقت زياراتها لها في اللحظات التي تبدأ فيها روحها تتصحّر ، أو تجرفها سيول الكآبة . فكانت تتدخل لإنقاذها في اللحظة الأخيرة .

لم يعرف أحد روايةً موثّقةً عن الست قمر . بقدر ما كانت امرأة ذات شهية مفتوحة للحياة الهنية والقهوة المُحوَّجة وملمس النسيج الثمين والطعام سخي الكلفة ، كثير الإضافات ، وهواء نيسان الصباحي الذي يداعب شعرها ، بقدر ما كانت مغلقة على حياتها هي ، وعلى ماضيها تحديداً . لا تذكر حوّا أن الست قمر تكلّمت معها أو مع أحد عن أصلها أو أهلها ، أو البلاد التي يُفترض أنها جاءت منها ، ولم يحدث أن تطرّقت إلى حدث أو شيء وقع في الزمن الماضي ، كما لم تذكر يوماً

اسم شخص تقاطعت حياتها مع حياته بأي طريق . كانت الستّ قمر تبدو غصناً مقطوعاً من شجرة ، لكنها غصن متين ، مورقٌ بطريقته ، وغصن صلب ، متشامخ ، مُتعالٍ ، صاعد نحو السماء ، عصيٌّ على الكسْر أو الانحناء . على الأقل ، هكذا كانت حوّا تراها ؛ حوّا التي تخيلت أنها يمكن أن تكبر يوماً ما ، تجبِّر غصونها التي تهشّمت مراراً ، لتكون مثل الست قمر . لقد تمنّت حوّا جداً أن تكون قمر ؛ أن تشبه البنت أمّها .

من وقت بعيد لآخر ، يطرق الماضي بابها ، فتضطر ست قمر إلى استقباله مرغمة . لكن اللقاء يظلّ قصيراً ، متوتراً ، وحتماً غير قابل أن يمتدّ وقتاً أطول من اللازم . نسوة غريبات ، مغلّفات بجلابيب داكنة ، كحليّة في الغالب أو بنيّة أو رصاصيّة ، تصل إلى الكاحل ، تتبدّى أسفلها جوارب سوداء من النايلون المعتم ، وإيشاربات بيضاء أو بيج سادة ، يبدين تائهات ، أو كأنهن قادمات من سفر طويل يقفن على الباب . تعرف حوّا أنهن لسن زبونات ، إذ يكنّ منطويات الأكتاف بحقائب يد يضعنها تحت آباطهن حذرات ، متردِّدات . تقودهن إلى صالون استقبال الضيوف ، فيجلسن على طرف المقاعد ، حريصات بألا يخسفن الإسفنج المتماسك للكنبات بأجسامهن ، المثقلة ، المنهَكة . تقدِّم لهن حوّا الماء البارد ، فيتجرّعنه دفعةً واحدة شاكرات ، حامدات . وحين تأتيهن ست قمر أخيراً ، يقفن وجلات ، كأنهن يعتذرن لها عن الجلوس دون إذن . لا تتكلم معهن ست قمر ، التي تشيح

بروحها بعيداً ، كما ترتدي وجهاً مغايراً ؛ وجهاً مستلَفاً من ألم بعيد لم يُمحَ بعد . قد تحاول الغريبات التطرُّق إلى أناس بعيدين ، لكن ست قمر توصد قلبها في وجه أخبارهن . تعطيهن مالاً مطوياً في ظرف ، فيأخذنه خجلات ، خافضات الأبصار ، متمتمات ، وإن لم يكنَّ يتعفّفن كثيراً ، مودِعات الأظرُف في حقائبهن بسرعة وببعض اللهفة . ثم تعطيهن ست قمر ظهرها ، فيعرفن أن الزيارة انتهت . حتى إذا ما غادرن ، تحكم ست قمر إغلاق الباب على ماضيها ثانية .

من الروايات الكثيرة ، متباينة التفاصيل ، التي كانت زبونات الست قمر يتداولنها ، في همس خبيث فيما بينهن ، عرفت حوّا أنّ الصبية اليتيمة قمر جاءت من الشام لتقيم عند خالتها المسنّة في إربد ؛ وأن الحسناء الدمشقية ، الساحرة ، أنيقة المشية ، فتنت الولد وأبا الولد في حيّها . ثم جاب صيتها كل إربد ونواحيها كخياطة شاطرة ؛ فكانت النسوة يتوافدن على بيت خالتها ليرين أصابعها الصغيرة ، السريعة ، الرشيقة ، تحوِّل الأقمشة ذات الاحتمالات الهائمة إلى قطع فنيّة . وبينما كانت النسوة يطرقن باب الخالة من الصباح ، حاملات معهن أكياساً تختصر أحلامهن في الحرير والساتان والدانتيل والشيفون والمخمل العزيز ، متزاحمات على مقاعد الصالة ليستأثرن بخدمات قمر قبل غيرهن ، فإن الرجال كانوا يطرقون باب الخالة في المساء وبإلحاح ، طالبين يد قمر . من بين رجالٍ كثر استقتلوا في طلب ودّها ، وبينهم وجهاء عشائر وبكوات

وأصحاب عطوفة وحاملو شهادات علمية وشباب وسيمون طامحون ، وبعضهم جاهر بغرامه كأن القلب لم يعشق سواها ، وقع خيار قمر على الحاج فيصل ، أبو زيد ، أحد أكبر تجار الحبوب في المدينة . كانت مفاجأة الناس كبيرة ؛ لا لأن قمر أخذت أبو زيد وإنما لأنها أعرضت عن طُلاب كثر ، لا يقلّون عن أبو زيد مالاً ومكانةً ووجاهة وولهاً . بل إن معظمهم كانوا أصغر منه سناً وأحلى شكلاً بكثير ، وأوقع أثراً في نفس صبية في ملاحة قمر ، كما قد يُتوقَّع .

كان أبو زيد رجلاً مهيباً ، مديدَ البنية ؛ حين يمشي يبدو كأنه جدار هائل يتحرك . ترمّل مرتين ، وتركت له زوجتاه ستة عشر ولداً وسبع بنات ، بذروا له اثنين وثلاثين حفيداً ، وكان يكبر قمر بأكثر من خمسة وأربعين عاماً . نقم أبناء الحاج وبناته وأحفاده وأشقّاؤه وشقيقاته على الساحرة الصغيرة التي خطفته . وكانت نقمتهم عليها مضاعفة ، لأن الحاج عاف حياته ما قبل قمر ، وكل شيء ليس له علاقة بقمر . عاش أبو زيد مع ساحرته الصغيرة ثلاث سنوات ، ثم مات . لم تكن قمر قد بلغت منتصف عشرينياتها ؛ أرملة ، تضاعفت فتنتها ، وأضحت امرأة أكثر اكتمالاً وأنوثة . لملم أبناؤه وبناته حاجياتها القليلة ، أعطوها مصاغها ، وحصتها من الإرث ، كما ادعوا ، وطردوها . كانت قمر دفنت خالتها قبل عام من رحيل الغالي ، كما كانت تصف أبو زيد ، فلم يبق لها مكان في مكان شعرت نساؤه فيه بتهديد أكبر من وجودها الآن بعدما فقدت حصانة

رجلها ، فيما اتّقدت جمرات الرغبة في صدور رجالات المكان ، وهي جمراتٌ لم تخمد يوماً .

لكن الحكاية الأصلية ، وتفاصيلها الحقيقية ، ظلت مصرورةً في قلب قمر ؛ يزورها طيفها في الزمان اللاحق ، فتغمض جفونها على حبٍّ رهيف . سمّاها أبو زيد قمر الشام . ثم عزّز ملكيته العشقية لها بأن صار يناديها «قَمَري» . كان عاشقاً لها كل يوم وكل ساعة ؛ عشقها في الصباح حين كان يفيق على رائحة بشرتها النبعيّة ، وشعرها المضوَّع بياسمين الشام ، وعينيها الناعستين كثيفتي الرموش تلتصقان بوجهه على الوسادة ، فتقطر قهوتهما السابحة في بياض قطني فسيح في عينيه اللتين لا تشبعان من النظر فيها ؛ وعشقها في المساء حين ترتمي بقامتها الململمة ، التي تبلغ أقل من نصف قامته ، عليه فتُطوى فيه تماماً ، ويبتلعها ، وتكون هي مطمئنة طالما أنها متدثّرة في روحه ، مختبئة في جوفه ، هو حوتها النبيل ، حوتها الهائل الجبّار ، فيما تزكمه رائحة المستكة الطالعة من جسدها ، فيغيب وإياها في كينونة واحدة .

كانت قمر تعمل في الشام لدى آرتين ، أشهر مصمِّم وخياط أرمني في دمشق ، اقتصرت خدماته على نساء يقطن في بيوت وفلل محصَّنة يخشى الذباب الاقتراب من أسوارها . وإذ كثرت قائمة زبوناته صعبات الإرضاء ، صار يعتمد في أشياء كثيرة على أشطر صبية لديه في «الأتيليه» : قمر . كانت قمر في السادسة عشرة ، يوم أرسلتها زوجة أبيها للعمل عند

آرتين . لم يُخفِ آرتين إعجابه بجمال الصبية وذكائها . ولم يحتج إلى وقت كبير كي يكتشف أن زوجة الأب أرادت أن تتخلص من الصبية التي فتنت الجميع بحُسنها ، بحجة أن دخل أبيها لم يعد يكفي العائلة . وبعدما باتت أجرة قمر ترفد الأسرة التي ضاعفت زوجة أبيها عدد أفرادها بذرية متجدّدة ، صار عملها ضرورة ، أغلقت معها زوجة الأب الباب في وجه عرسان رأت أنهم قد يكونون سبباً أكيداً في إغلاق حنفية الفلوس التي كانت تدفق في بيتها . ويوم وقع آرتين على موهبة قمر في رسم تصاميم أزياء مبتكرة ، صار يأخذ هذه الرسومات بنفسه إلى زبوناته . وحين تبيّن قدرة قمر على التعلّم بسرعة ، لم يستشعر في ذلك أي تهديد له ، بل أفرد لها مساحة وفيرة كي تبدع في الرسم والقص والخياطة ، وحتى في التشطيبات النهائية التي تستلزم دقةً وخبرةً وحصافة لم تعكس سنها على الإطلاق . وإذ لمست قمر من جانبه عطفاً عليها ، بدا لها أصيلاً ، ومحبَّةً وكرماً ، وفلوساً فاضت عن حاجتها خبأت قسماً منها بعيداً عن زوجة أبيها ، عملت في أتيليه آرتين كأنه ملكها ، خاصة وأن آرتين ألمح لها ، وإن من باب التشجيع أحياناً أو من باب المزاح ، بأنه قد يورِّثه لها .

في البداية ، كانت قمر ترافق آرتين إلى بيوت زبوناته ، يستقبلهما عند الباب خدم أنيقون وخادمات مهذبات يقودونهما إلى صالات فسيحة وجدت قمر صعوبةً في حصر محتوياتها والإحاطة بالترف الكثير من حولها . بل إن قمر

كانت تقول لآرتين إنها لو تُرِكت في أي من هذه البيوت وحدها لاحتاجت شهوراً قبل أن تستدل على مداخلها ومخارجها ، هذا إن لم تضع أصلاً . فكان آرتين يؤيدها ضاحكاً . ثم بلغ من اعتماد آرتين عليها أنه بعد عامين من العمل لديه ، صار يرسلها إلى كثير من زبوناته لوحدها ، فتريهن تصاميم مقترحة ، أو ترسم تصوراتهن التي تشذّبها وتنقّحها بخيالها المنظم ، مظهرةً صبراً هائلاً في امتصاص نزق النسوة المرتبط على الأرجح بالثراء والفراغ وخيانة رجالاتهن لهن ، وتبدّل أمزجتهن وتحول آرائهن بين لحظة وأخرى . كانت قمر حريصة على أخذ مقاساتهن بدقة ، وهي عملية لم تكن سهلة ، بالنظر إلى تعليمات وأوامر ونواهٍ كثيرة كانت تتلقّاها في آن واحد ، مع اضطرارها لتعليق مهامها في حال انصرفن فجأة لقضاء حاجة ليست مستعجلة ، أو للردّ على التليفون ، أو ببساطة لمجرد شعورهن بالضجر . ومع ذلك ، غالباً ما كانت قمر تصيب هدفها مباشرةً ، ملبية تطلّعاتهن من البروفة الأولى ، مغتبطةً إذ تقرأ الرضا والإعجاب في وجوههن ، حتى وإنْ لم يقررن لها بذلك . تعلّمت قمر في هذه الحقبة التاريخية الموجزة من حياتها آداب خنوع كثيرة ، منها الجلوس على طرف الكنبة ، وضم الساقين إلى بعضهما ، وبسط اليدين مقلّمتي الأظفار على الحضن ، وعدم شرب ما يُقدَّم لها إلا بمقدار رشفة أو رشفتين ، حتى وإن كان زورها متشقّقاً من العطش . كما تعلّمت ألا تتلفّت حواليها في دخولها وخروجها ، وألا تتطفّل

عيناها على المكان ، وألا ترفع بصرها أبداً في وجه الزبونة ، وأن تظل عيناها خفيضتين على الدوام ، تريان القاع وحفنة سنتيمترات قليلة إلى أعلى ، حسبما يقتضيه الأمر . ولعل قمر الشام لم تكذب يوم أسرّت لأبو زيد بأنها لا تذكر وجوه النسوة اللاتي كانت تأخذ مقاساتهن أو تشرف على بروفاتهن ؛ فقد ضاق نطاق بصرها ليقتصر على رؤية ما يلزم .

لكن بصرها الغائب عمن حولها لم يعن بأية حال غياب بصر الآخرين عنها . تلقّى آرتين اتصالاً من منزل ناريمان خانُم ، يطلبون فيه حضور قمر على وجه السرعة . لم يطمئن آرتين للطلب . في قلبه شعر بأن خطراً ما يقف وراء ذاك البيت . فمن بين بيوت زبوناته ، لم يكن يسمح لقمر بأن تذهب إلى بيت ناريمان خانُم وحدها . وفي المرة الوحيدة التي أخذها معها هناك ، لام نفسه أشد لوم . لكن آرتين كان يعرف أنه لا يمكن أن يرد أي طلب من ذاك البيت تحديداً ؛ فقاسم بيك ، زوج الخانُم ، عادة ما كان وراء طلبات من هذا النوع . كان آرتين يدرك ذلك تماماً . لكنه كان يدرك في الوقت نفسه أنه لا يستطيع أن يمنع قمر من الذهاب إلى هناك . كانت يد قاسم بيك طولى في مؤسسات الدولة الخفية أو بالأحرى أقبيتها . ويقال إنه كان يدير شعبة الأمن السياسي في البلد ، فتخطت سمعته جدران الزنازين السرية والحجرات تحت الأرضية ، لتبلغ آذان الماشين فوق الأرض ، ما دبّ الرعب في القلوب الوجلة أساساً . من بين القصص الكثيرة التي تداولها الناس عن قاسم

بيك ، والتي تدخل في باب الأسـرار العظمى ، أنه أشـرف بنفسه على التحقيق مع ابن شقيقته ، الطالب الجامعي الذي كان يوزع منشورات لخلية شيوعية ، وأنه بسط أصابع يد الفتى ، شديد الشبه بخاله ، على الطاولة أمامه ، وقام بنفسه بسحقها بمطرقة ثقيلة ، أمام صغار الضباط الأمنيين والمحققين . أطلق الفتى ، الذي غاب عن الوعي ، صرخة انمزعت معها روحه . حتى إذا استعاد وعيه ثانية ، سدّد الخال له ضربة أخرى سحق معها عظام يده كلها . كان قاسم بيك من الأسماء التي لا وجه لها . كان يرى الآخرين ، والآخرون لا يرونه . وقد رأى قمر ، ورآها جيداً ، وأرادها .

حين فتح لها الخادم الباب الخارجي ، قادها عبر الصالة الرئيسية للفيلا إلى صالة أخرى ، ومنها إلى ممر طويل ، تفرّع عنه ممر أصغر ، ثم دخل وإياها غرفة ، أشبه بغرفة استقبال صغيرة ، ليقف أمام غرفة مغلقة بباب سحاب خشبي عريض ، فتحه ، وطلب منها أن تنتظر في الداخل . جلست قمر على طرف كنبة عريضة ، في غرفة شحيحة الأثاث نسبياً ، مقارنةً بأثاث الصالات والغرف الأخرى في البيت ، وحتى الممرّات . كانت غرفة مكتب على ما يبدو . وكان ظهر المكتب الخشبي فارغاً تماماً من الأوراق والأقلام والمستلزمات المكتبية . فقط جهاز هاتف أسود ، ضخم الجثة ، جثم في زاويته . إلى جانب الكنبة العريضة ، كان هناك كرسيان متماثلان من الجلد ، أحدهما خلف المكتب والثاني قبالته . وبالقرب من الكنبة

طرابيزة عريضة عليها منفضة سجائر خالية ، وضعت عليها قمر حقيبتها التي تحمل فيها معدات الخياطة . كانت الجدران كلها خالية إلا من صورة وحيدة معلّقة على أحدها لخريطة ما بان أنها قديمة . لم تكن هناك نافذة أو ستارة . كانت الجدران ملبّسة بألواح خشبية ، ما جعل الغرفة أشبه بصندوق مغلق . شعرت قمر بالخوف ، وبالبرد . خافت أكثر حين بدا لها أن أحد الجدران انشقّ عما اكتشفت لاحقاً أنه باب ، شبه مخفي ، دخل منه رجل بملامح غائمة ، نسبياً . جلس الرجل على الكنبة إلى جوارها . لم تتبين قمر وجهه تماماً ، فالغرفة كانت معتمة نسبياً . وعلى الأرجح أنها صُمّمت لتكون كذلك ، وأن اللمبة الوحيدة فيها ، التي كانت تبثّ حزمة ضوء صفراء هزيلة ثُبِّتت في موقع ما من الغرفة ، لتصنع ظلالاً أكثر من ضياء ، فابتلعتها الظلال تماماً . ثم شعرت قمر بأنها تغطس في ظلمة مطبِقة ، إذ دفعها الرجل فوق الكنبة ، وهبط فوقها . حاولت أن تصرخ ، فكمّم فمها بيده . اقترب منها ، فلمعت عيناه المتوعّدتان في الضوء الأصفر ، فيما كست الظلمة نصف وجهه . مدّت ذراعها من تحت جسده الحائطي تحاول الوصول إلى حقيبة يدها ، فضغط بكلّيّته فوقها . غابت تحته . أنينها المختنق تحت يده تقاطع مع صوت ارتطام الحقيبة ، ودحرجة علبة الدبابيس من على الطرابيزة . صوت الدبابيس تخزّ الأرضية كان كأنه طالع من جسدها وروحها ، من كل نقطة من جسدها وروحها .

في الليالي التي كانت قمر تفيق فيها مذعورة ، تصرخ من

عينين جاحظتين مغروستين في وجه مظلم تلاحقانها ، كان أبو زيد يأخذها بين يديه ؛ يمسح عرقها ، ويمطر جبينها وعينيها بالقبلات . وكان يحلف لها أن مكروهاً لن يصيبها بعد اليوم .

يوم قررت الرحيل عن إربد ، طلبت قمر من زيد شيئاً واحداً فقط ؛ طقم روميو وجولييت الذي اشتراه لها الحاج أبو زيد . كانت قد انتقته قطعة ، قطعة ، وهو الشيء الوحيد في جهاز عرسها الذي أرادت الاحتفاظ به . لم يبدُ زيد مهتماً بالاحتفاظ بالطقم ، لكنه كان يريد أن يعرف شيئاً واحداً . «ليش تجوزتي أبوي؟!» كان زيد واثقاً من أن قمر لم تتزوج أباه لفلوسه . ثم كانت تستطيع أن تأخذ أي رجل آخر لا يقل ثراءً ووجاهةً عنه ، بل كان بإمكانها أن تتزوج رجلاً أصغر سناً بكثير . كانت مثلاً تستطيع أن تأخذه هو ، زيد ؛ فقد طلب يدها قبل أبيه . وكان على استعداد كي يطلق زوجته من أجلها .

وضّبت قمر حاجياتها القليلة في حقيبتين وضعتهما في سيارة الأجرة التي كانت ستحملها إلى عمان إلى جانب صندوق خشبي فيه طقمها الخزفي . إذ شقّت زمجرة محرك السيارة مسافة التساؤل المعلّق بينهما ، نظرت إلى زيد وأجابته ببساطة :

- حَبّيتُه!

***

تُعلِّق حوّا جاكيت ست ريهام في الخزانة . ريهام مدرِّسة لغة عربية ، في أواخر عشريناتها ، لكنها تبدو أصغر سناً بسبب ملامح وجهها المائلة إلى التسطُّح الطفولي ، أو كأن هذه الملامح لم تبلغ حجمها الطبيعي الذي يُتوقَّع أن تبلغه في سن المراهقة أو بعدها ، لتظلّ عيناها الدائريّتان متّسعتين بتهوّر ودهشة مفرطة ، كأنهما متلهِّفتان على الدام ، أو تختبران الأشياء أول مرة ؛ كما يبدو أنفها خطافاً صغيراً مغروساً وسط وجهها ، فيما يتبدّى خداها سهلَيْن مسطَّحيْن ، غير متّكئيْن على أيٍّ من عظام الوجنات المهضَّبة التي يفترض أن تنبت ، كشكل من أشكال الكِبر أو النضوج الجمالي . وبشعرها البني الناعم المرسل على كتفيها ، رافعةً أحياناً جانبيه خلف أذنيها ، لتكشف عن أقراط ناعمة على هيئة نجمات أو زهرات صغيرة أو مجرد خرزات دائرية تلمع ، تبدو من ذوات المقاس المحيَّر . تغتبط حوّا حين تأتيها ريهام ، يسبقها عطرها ذو الرائحة المسكيّة ، تحمل لها المجلات والقصص ، سهلة القراءة .

كانت حوّا تعتقد أنها تستطيع أن تكون شيئاً ما ، ليس رائعاً وخارقاً بالضرورة ، وإنما شيء مهم ، له قيمة ، أو بعض قيمة . ولم تكن حوّا تفكر يوماً بتلك الأفكار العظيمة التي تذهب إلى أن الإنسان قد يصنع فرقاً في العالم . لكنها كانت تريد أن «تفرِق» معها ، هي . كانت تتمنّى لو أنها أتمّت تعليمها . لشهور بعد أن تُرِكت مدرستها وحيِّزها الضيق في الفصل ، ظلت تصحو في وقت الصحو المدرسي ، تتفقّد مريولها

الباهت في الخزانة، وتأسى وهي ترى بنات الحارة يَشلِن حقائبهن على ظهورهن الصغيرة، مسرعات كي لا يفوتهن طابور الصباح، بمرابيلهن المكويّة بجيوبها المطويّة فيها المناديل الورقية، والمصروف الشحيح المحسوب بدقة، وضفائرهن المذيَّلة بالشَّبَر والتي كانت لا تزال تلمع فيها رطوبة المشط العريض المبلل بالماء. كان يمكن جداً لحوّا أن تنال شهادة الثانوية العامة. ولو أن القدر اختار لها طريقاً آخر، أو زمناً آخر، لدخلت الجامعة أيضاً. وربما عملت معلِّمة، مثل ست ريهام. لطالما أحبّت حوّا لقب «أبلة» أو «مِسْ». وقبل أن تشلح المريول، دون أن تعود له ثانية، كانت تعتقد أن هذا اللقب هو قمّة ما يمكن أن تبلغه البنت.

تحفظ ريهام، التي تصفق باب قلبها في وجه عرسان كثر، شعراً جميلاً في الحبّ ومرفقاته من لوعة وحمى وأشواق ملتهبة وعذابات حميدة؛ وهو ما يعزّز من مكانتها عند حوّا التي تعتبرها من زبوناتها الأثيرات. وإذ ترى ريهام في عيني حوّا شهيةً لكلام العشق، تقرأ عليها قصائد الوله والغرام بحماسة فائضة. ولا تخفي ذهولها من قدرة حوّا على حفظ الأبيات، حتى وإن لم تفهم كلماتها تماماً. وما لا تعرفه ريهام أن حوّا تخيط الأبيات في قلبها، في غُرزات متمكِّنة ومكينة، وتردِّدها بينها وبين نفسها، كما تردِّد أغنيات فيروز التي تصدح في رأسها بصفاء، فتشعر أن الكلمات ترفعها من قاعها، تنتشلها من كمدها، وقد تنقذها أحياناً. لا تعرف حوّا كيف

يحدث ذلك ، ولا يبدو لها مهماً أن تعرف . يكفيها أن تشعر بذلك .

كان يمكن لحوّا أن تنسى مخزونها القليل من الحروف والكلمات لولا ست قمر ، التي كانت تجعلها تقرأ لها عناوين الصحيفة يومياً . لم تكن ست قمر تُظهر نزقها وتململها من حوّا حين كانت عيناها تمشيان فوق الكلمات ببطء ، تلوك بعضها في فمها ببعض العسر ، تفكّ رموزها بصعوبة . كانت تعطيها الوقت كي تفهم ، وتهضم المعنى ؛ كي تقرأ ثم تعيد القراءة . وأحياناً ، كانت تستكمل عنها الحروف الناقصة أو الملغزة ، فتمضي حوّا في طريق الكلام ، مع ست قمر ، بعثرات أقل . وإذ خفّت وطأة الحروف واشتباكاتها مع الأيام ، وباتت الألفاظ أيسر تشكُّلاً في فمها ، صارت الجُمل تسيل على لسان حوّا على نحو أسرع وأكثر سلاسة . أسرّت حوّا لريهام بأنها تحبّ القصص التي تصف أناساً تستطيع أن تراهم ، يشبهون الناس الذين تعرف ، ويحملون أسماء كأسماء الناس الحقيقيين ؛ فأكدت لها ريهام بأنها هي أيضاً تحبّ قصص الناس الذين يشبهون الناس .

تخصّص حوّا القصص لليل ، أو ما يفضل منه . وحين تدرج درجاً بطيئاً بين السطور أو تغصّ في ألفاظ وعبارات لا تلتقي مع صورة في رأسها أو لا تمسّ معنىً أو فهماً بعينه في رأسها ، تعلّم عليها بقلم رصاص ، لتسأل ريهام عنها لاحقاً .

تقضم حوّا تفاحة من تفاحات درة العين . من الغرفة

الأخرى ، يصلها شخير والدتها المتقطّع . تخمش اللبّ اليابس ذا الهشاشة غير المرمّلة ، فتدغدغ حلاوته السكرية المختلطة بحموضة عذبة لسانها . لا تستطيع أن تمنع نفسها الشغوفة من معاينة نهر البنفسج ، الدافئ ، الساكن في الكيس للمرة المئة بعد الألف . تتلصّص على تموّجات المخمل الراقدة في هدأة مؤقتة بعين جانبية ، كأنها تختلس النظر إلى شيء محرّم ، أو تتوق لاكتشاف جمال خفي في اللون المفتوح على كلّ التأويلات البنفسجية ذات المزاج الضوئي والظلالي المتبدّل . تمدّ يدها داخل الكيس بإثارة متجدّدة ؛ تحاول إيقاظ طبقات الحرير الخفية في المستويات العميقة من النسيج . نشنشة القماش مع خشخشة الكيس تحوكان موسيقى تبهج أذنها . تمرّر أصابعها بين ثنيات القماش المستكينة ، متلمسة حذراً مضاعفاً كي لا تخدش النعومة المخملية المفرطة . تسري في جسدها فجأة برودة شديدة ، تنتفض على أثرها بقوة . ثم كأن الغرفة تُليِّل عليها . كل شيء يغطس في سواد دامس ، إلا من صوبة الغاز التي تطالعها بعين حمراء . تنظر من النافذة ، فترى سحابة رصاصية ، ببقع سوداء كأنها آثار حروق في جنباتها ، ترشم السماء كلّها .

تلفُّ حوّا ذراعيها حول صدرها وكتفيها . تشعر بأن قلبها يهبط في قعر سحابة أكثر إظلاماً .

(٦)

الساعة تؤشّر نحو الرابعة والثُّلث . إحساسٌ متبخِّر بالنهار يحوِّم في الكون المتسرِّب من النافذة إلى الغرفة . نهاية اليوم ، مع ذلك ، تبدو بعيدة ؛ أو لعلَّه يُرادُ لها أن تظلَّ بعيدة .

السحابة الرصاصية ، ببقع الحروق الكثيرة المتفشّية في جنباتها ، تنقشع من السماء . لكن السماء تظلّ عابسة . بقدر ما تلحّ السعادة المُرتجاة في روح حوّا ، بقدر ما يمسك الخوف بتلابيب قلبها ، متمطِّياً داخله غيمةً محتبِسةً ، انحصر ماؤها وأملها ، متشكِّلةً من مباغتات الأيام ، متمدِّدةً ، متعملِقةً ، مستشريةً ، حتى إذا تبدّدت أخيراً ، ظلّت تخلِّف مع ذلك شعوراً بالاحتباس والانحصار ، وبليلٍ داج حتى وسط النهار ، يربض ثقيلاً في حنايا النفس ، فتهوي النفسُ معه عميقاً . . عميقاً .

رنين الموبايل يقشع السكون المتربِّص في الغرفة . صورة حفيدها عبد الله في شهره الثالث تعبِّئ الشاشة . يأتيها صوت ابنتها آية على الطرف الآخر .

انتظرت آية سبع سنوات حتى جاءها الصبي أخيراً . ثلاث بنات سبقنه ؛ حنين وداليا وجنى ، يحففْن حوّا بالحبّ والحنان والقبلات الوادعة ؛ مالئات عالمها بالدبق غير المزعج المُنكَّه

بطعم التوت والفراولة من عبوات الآيس كريم المثلجة التي تنطبع على وجهها من الشفاه الصغيرة الرطبة، والشَّعر الناعم المُسدَل على الأكتاف، والشبرات الملوّنة، والصنادل الوردية والليلكيّة والحمراء بأبازيم ذهبية وفضية، والحقائب الصغيرة المُدندشَة التي تشتريها حوّا لهن، والفساتين ذات التنانير العريضة المكشكشة، والدمى التي يضعنها في حِجر جدّتهن كي تُلبسها أروع الفساتين، فتكون حوّا في قمّة سرورها حين يلتففْن حولها عند ماكينة الخياطة، يتبعن رجلها تضغط على دوّاسة القدم، بسرعة مثيرة، فيما تضبط يداها قطعة القماش تحت الإبرة الراكضة فوقها. حتى إذا رفعت رجلها عن الدواسة، وقصّت الخيط في الدرزة الأخيرة، التمعت عيونهن وهن يرقبنها تضع لمساتها السحرية بإبرتها اليدوية على الفستان، كالدانتيل حول الياقة وحواف الأكمام، أو بعض الخرزات التي تشكّها عند الصدر، أو الكشكشة الناعمة في الذيل، أو الحزام حول الخصر، معبِّرات عن ذهولهن بـ«يا الله!»، للفرق الصريح الذي تحدثه بضع خرزات أو شريط دانتيل مقصَّب، أو حزام من بقايا شريط ستراس، فاغرات أبصارهن وأفواههن وهن يعاين دُمياتهن بالفساتين التي تفوح منها رائحة خاصة، هي مزيج من دفء ولهفة وحزوز برتقال وكستناء مُطقطِقة داخل شواية الفرن وشذا ماء الزهر الطاغي في أطباق الرز بالحليب الجاهزة في أي وقت، يشممنها فقط في بيت جدتهن؛ متأكدات مرة بعد مرة أن جَدّتهن شيء

عظيم جداً . وحين يأتين مع أمهن لزيارتها ، تستشعر حوّا أقدامهن في الطريق تتراكض مع اقترابهن من باب البيت ، حتى إذا فتحت لهن ، ارتمين على حضنها الشاسع الذي يسعهن كلهن ، فلا يفِضْن منها .

وفي الوقت الذي كانت فيه آية تشتاق للصبي ، وبشدّة ، كانت البنات لاهيات عن اشتهاء أمهن للذكر ؛ غير ملتفتات إلى أنها أرضعتهن حليباً هزيلاً ، من القهر ؛ سعيدات بالكنوز التي كن يتحصّلن عليها من جَدّتهن التي جعلتهن محبوبات كأكثر ما يمكن أن يكون عليه الحبّ . طيلة السنوات الفائتة ، وقفت حوّا موقف المتفرِّج من توق آية للصبي . لم تواسِها ولم تخفِّف عنها . وعلى أية حال ، لم يعنها كثيراً قدوم الصبي ، وإن لم تظهر ذلك لابنتها التي كانت تقضم روحها حين تحمل ، وحين تلد . وإذ خافت آية ألا يأتي الولد أبداً ، فإن حوّا خافت فقط على بنات آية أن يُفْقَدن .

- كيفها ستي؟

تسأل آية عن رابعة . «نايمة» ، تجيبها حوّا ، قبل أن تضيف اللازمة إياها : «الحمدلله على كل شي» . لم تكن آية معنية كثيراً بجدّتها . وسؤالها عنها من قبيل ما يدرج على اللسان دون وعي . حين تزور أمّها ، تنظر إلى رابعة المكوَّمة فوق السرير كامرأة غريبة ، قبيحة ، مثيرة للشفقة . ولم تكن تحضنها أو تقبّلها ، ولم تكن تتوجّه إليها بالكلام ، أي كلام ، من قبيل التفاعل مع شخص حيّ . ويوم تطلب منها حوّا أن تساعدها

في حملها إلى الحمام كي تحمّمها ، ترفض . تتقزّز ، تقول لحوّا . فتضطر حوّا إلى أن تحملَها بين ذراعيها ، تمشي فيها بثقل بيِّن ، ينهدُّ معه ظهرها وكتفاها ، فيما تتشبّث بها رابعة مرعوبة . لكن آية وإن لم تكن تمانع في مراقبة حوّا تطعم رابعة أو تناولها المناديل المبللة - من على مسافة ذراع مشوبة بكثير من القرف - لتمسح بها عورتها وعجيزتها ، فإنها لم تكن تطيق الاقتراب من نايفة ، جدة أمها .

كانت آية تسمّي نايفة الغولة . وفي يوم ، رأت آية الغولة ، التي نهشها الزهايمر وانطفأت جذوة إدراكها وتآكل دماغها بالكامل ، تجثم فوق صدر حوّا ، تطبق على عنقها بيديها القويتين ، وتزمجر برعب بصوت مقتلَع من مَحجرَ عمرها البعيد ، حتى أوشكت الحياة أن تخرج تماماً من عيني حوّا اللتين جحظتا كأنهما كانتا تبصران روحها وهي تغادرها مودِّعة . لم تحاول آية أن تخلِّص أمها من تحت الغولة . ببساطة ، تركت البيت ، وأخذت تركض في أزقة المخيم . ظلت تركض من زقاق إلى زقاق ، دون هدف ؛ لم تكن تريد أن تتوقّف ، لعلها تصل إلى نهاية الحياة ركضاً ، أو لعلّ الحياة كلها تنتهي ، وهو أمر لم يكن ليؤسيها .

تذكِّر حوّا ابنتها بالغداء :

- تنسيش يمّه بكرة! عامْلِة كوسا علشان البنات!

تكتفي آية بـ«ممم!» تأكيداً . تحاول حوّا أن تبدو أكثر تهلّلاً وهي تسأل آية :

- وكيفو عبّود؟

حين تتصل حوّا بآية أو تتصل آية بها، تكون الأم مشتاقة لابنتها، وملهوفة عليها. لكن حين يجيئها صوتها المُطفأ في كل مستويات مشاعرها، تحسّ حوّا بأن ابنتها موجودة في آخر الكون، وأنها لا تمشي نحوها إلا كي تبتعد عنها. لا تتحدّث آية على الهاتف كثيراً. وإن تحدّثت فإنها لا تقول شيئاً كبيراً أو ذا قيمة أو حتى شيئاً عادياً، من نوع الكلام الذي يُقال بين البنات المتزوجات القاطنات خارج المخيم، في ضواح متواضعة في عمّان، وأمهاتهن القابعات منذ الأزل في المخيم، حتى وإن تجاوز طموحهن حارات البؤس والأزقة الموشّاة جنباتها بمياه الصرف الصحي.

لم تعرف حوّا ماذا تريد آية، لكنها كانت تعرف ما لا تريد. ويوم اشتهت ابنتها الصبي، فإنما لأنها لم تكن تريد البنت. كانت آية تقول لحوّا إنها تكره نفسها، وأنها لا تريد أن تكون ما هي عليه. لم تعرف حوّا ما إذا كانت ابنتها أحبتها هي أمّها، كما يليق بالحب العظيم بين البنات والأمهات أن يكون، وبدروها خشيت أن تسألها ذلك. من ناحيتها، أحبتها حوّا بكل ما تستطيع، وحمتها قدر ما تستطيع، وبكل ما لديها من أدوات - وهي شحيحة - لكن ذلك، على ما يبدو، لم يكن كافياً. لم تعرف حوّا إذا كانت آيتُها وقعت في الحبّ، أو تمّنت رجلاً، أو امتلأت تخيّلاتها الجانحة بابن الجيران، أو تاقت نفسها لرائحة معجونة بالتبغ وكريم الحلاقة الطازج وماء

الكولونيا البارد ، أو سلّمت حالها لشعور ما سرّي ، عذْبٍ ومدغْدغ ، أو انساقت لعاطفة تدلّت من غصن عالٍ في شجرة حرمان سامقة . وحين كانت تسير بجانب آية في الطريق ، كانت حوّا ترى عيون الفتية والرجالات تلحق ابنتها ، لكن عيني آيتها كانتا تظلان ساهمتيْن ، كما مشاعرها . وكانت آية وهي تبصر الآخرين كأنها ترى وجوهاً ممسوحة أو مفرغة من قسماتها ، بل لا شيء كان ينعكس في عينيها ، أبداً كما لو أنهما زجاج معتم أو مرآة مغبَّشة . كانت آية صبية مليحة ، وحتى بعد أربعة بطون لا تزال ملاحتها بادية ، ولا يزال جسمها ملموماً ومضبوباً . لم تشبه أمها إلا في بشرتها الفاتحة . أخذت من أبيها عوده الفارع ، وإن كانت صبّتها أكثر تناسقاً منه . أما عيناها فكانتا ملونتين متقلِّبتين ، بين الخضرة اليانعة والأخضر الضبابي والرمادي بمسحة حدّة . كانتا تشبهان عيني نايفة .

كانت آية قاسية . روحها جفّت منذ كانت طفلة . وكل محاولات حوّا لتطرية روحها وتليينها لم تُجدِ نفعاً . تلقّت حوّا عن ابنتها لسعات حزام نظمي في مواسم استرجاله وشراسته . كانت تغطيها بكل جسدها . وإذ كبر جسد البنت ، فصغُر جسد الأم كبطانية مفرودة فوقها ، بسطت حوّا روحها حوالي ابنتها ، فدثّرتها تماماً . وما كان يخيف حوّا أن ابنتها لم تكن تشفق عليها ، هي أمها ؛ فبينما كانت ضربات نظمي تنهال فوقهما ، ليتشقّق معها لحم حوّا وترتجّ عظامها ، كانت الصغيرة

آية تجمع كل أطرافها، وتنكمش تحت أمها، فلا يطولها تقريباً سيل السياط المنهمر عليهما.

من طاقة صغيرة تصنعها ذراع حوّا الملفوفة فوق وجهها، تسدِّد آية بصرها في عيني نظمي. يصرخ فيها كي تخفض بصرها، لكن بصرها يظل شاخصاً نحوه، متحدِّيةً، فيتنزّل في ذراعه كلّ الحقد في العالم، يُترجمُ في بطْشٍ أشدّ، تتحول معه ضربات الحزام إلى أسياخ حامية تخترق طبقات لحم حوّا وعظامها وروحها. «نَزْلي عِينكْ يا بنت!» يظل نظمي يصرخ، صوته الخشن يتداخل مع لسعات الحزام تمزق الهواء قبل أن تشعِل في بدن أمها نيراناً هائجة. ترجوها حوّا كي تزيح بصرها عن نظمي، رحمةً بها هي على الأقل، لكن عيني آية تظلان مثبَّتتين عليه، لا تغمضان، لا تطرفان، ولا تنزاحان عنه، في لحظة تكاد تكون دهرية. وإذ يصاب نظمي بالسعار، فيدفع بكلتا قدميه بطانية اللحم بعيداً عن آية، تظل نظرات ابنته مغروسة فيه، كوَتَد عنيد. وحين تحاول حوّا أن تفترش نفسها فوق هيكل ابنتها لتغطيها ثانيةً، تدفعها آية بنفسها بعيداً عنها، كي تظل بمواجهة نظمي لوحدها؛ عيناها الحادتان الجافتان، اللتان نشفتا من الماء والضياء، مصبوبتان في عينيه المرتعدتين، متلذِّذة في استفزازه ورفع درجة ضراوته كي تبلغ مداها، فيما تنوح حوّا من على بعد، ترجوها عبثاً أن تخفض بصرها:

– أبوسْ إيدِكْ يمّه نَزْلي عِينكْ! مِنْشان ألّله يمّه وَطّيها! أبوسْ رِجْلِكْ يَمّه نَزْليها!

حتى إذا فرغ نظمي منها ، متداعياً على الأرض ، منهكاً ، نهضت آية كأنها لم تتحطّم . لكن حوّا كانت ترى بوضوح مؤلم أن شقْفةً من روحِ ابنتها كانت تُبتر يوماً بعد يوم . ومع ذلك ، ظلت حوّا بطانيةً لآية ، حتى حين تزيحها آية عنها .

يوم تقدّم يوسف لخطبتها ، وافقت آية دون تردّد . كانت زبونة عند حوّا قد رشّحتها لأمّه . لم تعرفه آية ، لم تره من قبل ، وحتى إنها لم تتحدّث معه إلا بعد قراءة الفاتحة . طلبت منها حوّا أن تفكر في الموضوع ، إذ كانت لا تزال في العشرين ، نالت للتوّ شهادة الدبلوم في التربية من كلية جامعية متوسطة . لم تشأ آية أن تفكر كثيراً . اقترحت عليها حوّا أن تجد عملاً أولاً . لكن آية قالت إنها لا تريد أن تشتغل ، ولو تُرك الأمر لها لما تعلّمت ربما . والحق أن حوّا ارتعبت حين ألمح نظمي إلى أن المدرسة مضيعة لسنوات البنت ، وأن الأجدى لآية أن تتعلم الخياطة كأمها ، حين شاهد ابنة الثماني سنوات تخيط بقايا قطعة قماش بإبرة تتحكّم فيها بسلاسة ودراية ؛ فما كان من حوّا إلا أن انتزعت الإبرة من يد ابنتها ، وغزّتها في بطانة كفّها ، فنفر الدم منها ؛ ففهمت آية أنها لن تترك المدرسة مبكراً .

كان يكفي آية أن خطيبها بخِلقْة وشخصية محايدتين ؛ فلا يحبّب الآخرين به ولا ينفّرهم منه تماماً ، ويتمتّع ببنية جسدية غير مترهّلة وأسنان معظمها كاملة في فمه وغير منخورة كي تقبل به . كان يوسف معلّم مدرسة ، وهي وظيفة ضمنت لها أن يحافظ على الحدّ الأدنى من النظافة اليومية ،

أول اليوم وآخره ، فلا يدخل عليها ببقايا شحم عالق على شواربه الكثّة ووجه دهني معروق . كان حليق الذقن والشارب ، بنظارات طبية ذات إطار رقيق وعدسات صغيرة ؛ يكتفي بمزيل العرق عطراً رجالياً ؛ يرتدي قمصان بيضاء وزرقاء وبيج مقلمة في الغالب على بنطلونات من قماش الجوخ المختلط بالبوليستر ، وأحذية رسميّة ، سوداء وبنيّة غامقة بأربطة هزيلة ، مصرّاً على تلميعها ببويا الكيوي الشمعية . كان يُدرِّس الرياضيات في مدرسة تابعة لوكالة الغوث في مخيم الحسين ، ويسكن بأجرة معقولة في شقّة معقولة في النزهة ، ويخطِّط كي يبني بيتاً مستقلاً على قطعة أرض يملكها بالشراكة مع إخوته الثلاثة في طريق المطار .

بزواجها ، كانت آية ستدخل بيتاً يخلو من روائح أقمشة مكدَّسة تنطق بروائح ناس المخيّم وأحلامهم المقنّنة . في بيتها ، لن تضطر لأن تنهض في منتصف الليل أو آخر الليل ، وكل الليالي الطويلات ، على صراخ نايفة وخبْطها وركْلها وضرْبها لكل ما يقع في يدها . ظل صراخ نايفة يخترق ذات آية الخانقة ، الحاقدة ، حتى حين اشترت حوّا لها ولقيس سدادتين للآذان على شكل سماعات تغطي الأذن بطبقة سميكة من الفرو ، يلبسانها عند نومهما . ولن تنتظر أيضاً آخر النهار ، وآخر كل نهار ، على أمل ألا يعود نظمي إلى البيت ، تسبقه بذاءة لسانه موزِّعاً الشتائم الوسخة على أولاد الحي الذين يلعبون الكرة في الحارة ، قبل أن يدخل ويرتمي بزفارته على الكنبة ،

الماء على البابور ، وتدفئ الحمام ، وتحمِّم عايد . في الثالثة عشرة من عمره ، كان عايد ذا عود هزيل ، ضئيلاً لا يزال ، منكمشاً بطبيعته ، متقوّس الكتفين ، برأس فأري مثلّث . وحين كبر ، استطال كثيراً ، لكن ظهره لم يستقم تماماً ، وكتفاه ظلتا قريبتين من صدره ، كما ظل يقرض الناس والأماكن بنظراته التي ترتفع بحذر من القاع إلى أعلى ، قبل أن تعود إلى القاع ثانيةً ؛ وهو أمر جعله ماكراً ، وخبيثاً ، وإن ظلّ مع ذلك جباناً .

خاطت حوّا كيساً كبيراً من المشمَّع ، ألبسته فرشة عايد . فلم تعانِ كثيراً في تنظيف الفرشة ، مكتفيةً ببشكير مصوْبَن أو ليفة مبلَّلة بالماء وصابون الغسيل ، تمر بها فوق سطحها البلاستيكي لتمسح عرق البول ، قبل أن تمسح بقايا الماء والصابون بخرقة جافة . حين كان المشمَّع يهترئ ، بين فترة وأخرى ، فتنشع الفرشة ، ويترنَّخ إسفنجها بالشخاخ ، تضطرّ إلى خياطة كيس جديد من المشمَّع . لكن المأساة الحقيقية كانت في غسْل الأغطية ، خاصة في صباحات الشتاء ، التي تُصادَر فيها الشمس أو تُحتبَس خلف السحاب ، أو في أيام المطر الهادر ، فتظلّ اللُحف والبطانيات منتقعةً بالماء لأيام ، تخزّن عطناً ، وتبخّ عفناً . اقترحت حوّا على والدتها أن تأخذ عايد إلى الطبيب ، كي يسدّ له «حنفية الشخاخ» ، كما وصفت الوضع . لكن عايد رفض ، دون أن يعني هذا أنه كان يشعر بالخجل أو الخزي من طوفان البول شبه اليومي ، حتى مع تنبيه حوّا له بأن يقلِّل من شرب العصير في النهار ، والامتناع

عن شرب أي شيء بعد الثامنة مساء ، مواصلاً تجرّع ليترات من العصائر الصناعية المحلاّة في النهار وثلاث قناني بيبسي – على الأقل – في المساء ، كان يشتريها سراً ، ويدفن الزجاجات الفارغة في إحدى قوارير النباتات الميّتة على السطح .

لا تعرف حوّا متى توقف عايد عن بلل فراشه ، ومتى توقف والدها عن تمزيق بدنه بالقشاط . لم تعد تدثّر شقيقها بجسمها بعد زواجها ، فكانت تطرق صباحاً بيت أهلها بعد أن يكون موسى قد غادر البيت . وفي كل الأحوال ، فإنه من المؤكد أن القشاط الذي طَرِيَ جلدُه واهترأ لم يتقاعد إلا بعد وفاة والدها ، مستلقياً في رفٍّ الخزانة كأفعى خاملة لم يَعد يُسمع لجلدها كَشيش . ولا تستطيع حوّا أن تحدد كيف انتُخبت هي لتكون بطانيةً لشقيقها ، تدثّره بلحمها وشحمها البنّاتي اللّدِن . كل ما تعرفه أن عفاف وساجدة لم تتدخلا لنجدته من البداية . ويوم تزوجتا ، كأنهما نجدتا نفسيهما من موسى ورابعة ونايفة وعايد ، وحتى لطفي ، الذي عاش محاذياً حوائط البيت وأرضه ، أكثر مما حاذى بشره ، عائشاً في البيت كأنه لا يعيش فيه . انقطعت عفاف وساجدة عن الحياة التي عرفتاها في المخيم بعد الزواج ، كأنهما ما عاشتا هناك ، أو كأن المكان ، الذي انتهك لحميهما وروحيهما ، ما وُجِد أساساً . وبالطبع من غير المتوقَّع أن تكونا تصالحتا معه أو حاولتا ذلك . وإن حدث وأن زارتا والدتهما مضطرّتين ، حدّ أن تكونا مكرَهتيْن أحياناً ، في المناسبات القهريّة وفي الملمّات

خصوصاً، جلستا في طرف المكان، وتكلّمتا في حواف الموضوعات، وأكلتا القليل جداً مما يُقَدَّم لهما، وظلّ عيالهما الكُثر ملتصقين بهما، دون أن تسمحا لهم باستكشاف بيت المخيم والمخيم نفسه، فحالتا بالتالي - أو هكذا خالتا في اللاشعور - دون تمدُّد أحاسيسهما في المكان ودون مراكمة أي عاطفة.

كان زوج عفاف يعمل سائق حافلة ركّاب في شركة نقل عام في إربد، فسكنت في أطراف المدينة. أما ساجدة، فسكنت في بلدة الضليل، في الزرقاء، حيث عمل زوجها مشرفاً في مزرعة أبقار تابعة لشركة لإنتاج الألبان هناك. فكان بُعْد المسافة بين مكانيهما ومكان بيت الأهل سبباً لهناءتهما الزوجية، إن لم يكن السبب الوحيد. لكن ساجدة وعفاف لم تنقطعا تماماً عن مخيم البقعة أو حارة واحدة فيه، كانت محتمَلة بالنسبة لهما، إذ كانتا تأتيان حوّا في بيتها بالمخيّم، كلّ حين وحين، تحملان أكياساً من الأقمشة الرخيصة كي تفصلّها لهما.

تسألهما حوّا ما إذا توقفتا عند بيت الأهل، فتهزّان رأسيهما أن «لا»، دون أن يصيبهما أي مغص في الضمير من تنصّلهما من الواجب العائلي التقليدي.

توقفت حوّا عن تحميم عايد حين أتمّ عامه الرابع عشر. حدث ذلك فجأة، يوم رفعت عنه البطانية ذات صباح، فرأت أمامها فتىً طويلاً، بشعر كثيف في ساقيه وذراعيه، وظِلّ

شارب ولحية خفيفة، متناثرة، في وجهه المليء بالحبوب. قالت لوالدتها إن عايد أصبح رجلاً؛ فأجابتها رابعة وهي تلوك قطعة خبز حاف، دون أن تنظر في الرجل الذي صار: «وشخّاخ». لكن حوّا واصلت تنظيف فرشته وغسل بطانياته وحملها ونشرها على السطح وهي حبلى بآية، وبعد أن ولدت آية، ثم توقفت قبل بضعة شهور من ولادة ابنها قيس. كان صباحها يقصر، ومهامها تتضاعف؛ فقد كان يتعين عليها أن تحضّر الفطور لنظمي، ثم ترتّب البيت على عجل، وتركّب الطبخة على النار، في نصف طهو، وتنظف آية، ثم تذهب إلى بيت أهلها، تحمل آية وبطنها المنتفخ، لتنظّف فراش عايد وتغسل بطانياته، قبل أن تنطلق في الباص، مع آية وحقيبة غيارات آية وبطنها الضاغط على أنفاسها، إلى بيت ست قمر في صويلح.

كان عايد في الخامسة عشرة حين ترك المدرسة. لم تشأ رابعة أن يترك المدرسة، إذ كانت واثقة أنه لن يفلح في أي شيء، والمدرسة - في أسوأ الأحوال - كانت ستلمُّه من الشارع. لكن عايد، الذي لم يتحمّس للصف والدرس، أراد أن يعمل «كونترول» حافلة؛ فحَلُم بعشرات الدنانير الخضراء يحملها في يده، مصفوفة طولياً على طريقة حمل «الكونترول» للفلوس؛ كما حَلُم بباكيت المالبورو الأحمر، يبين طرفه من جيب بلوزته، مستعرضاً سجائره أمام موظفي الحكومة وطلبة الجامعة، المنحشرين في المقاعد غير المريحة، القانعين بتدخين

سجائر جولدستار وفيلادلفيا التي يُسمع صوت احتراق نشارة التبغ فيها ؛ كذلك حَلُم بطالبات الجامعة والكليات ، تهفهف روائح العطور الرخيصة وبودرة الوجه الطاغية في طلوعهن الحافلة ونزولهن منها ، مرتطماً ببروزاتهن ، قاصداً أن يبدو ذلك دون قصد . اشتغل عايد كونترولاً لأكثر من عامين على خط صويلح - الجامعة الأردنية ، وحمل دنانير كثيرة فردها وثناها طولياً في يده ، ممرِّراً ديناراً أو دينارين من الغلّة اليومية إلى جيبه . وحين كثرت شكاوى البنات منه ، وبعضهن كن يبصقن في وجهه حين يحاككهن ، أو يجسّ صدورهن بكفه مدعياً الميلان المفاجئ ، حد السقوط عند توقّف الحافلة فجأة ، حمله طالب جامعي من بلوزته ، كفأر ، وجرّه من آخر الحافلة إلى أولها ، ثم فتح الباب فيما كانت الحافلة تمشي ، وألقاه منها ، ليتدحرج على رصيف مترب ، ومنه نزولاً في وادٍ صخري ، دون أن يتدخل السائق أو يخفف من السرعة فيما بدا كما لو أنه قرر أن يتخلص منه بعدما صارت الغلّة تنقص أكثر من دينار أو اثنين في اليوم .

احتاجت كسور ساقه ثلاثة شهور كي تلتئم ، ضاع خلالها حلمه بالدنانير الخضراء ، المفرودة طولياً ، لا يملّ كيّها وتمليسها بأصابعه ، يهرشها بأظفر خنصره ، الذي أطاله وبرَدَه لهذا الغرض . لعامين فيما بعد ، تنقّل عايد بين عدد من محال الخضار في سوق المخيم ، يكنس أرضياتها من القشور والثمار العفنة ، ويفرز السحّارات والكراتين ، وينسّق تلال الخضار

والفاكهة فوق المصاطب ، ويهشّ الذباب عنها . ثم عمل مع بائع خضار متجوّل على سيارة «بيك أب» تجوب أحياء صويلح ، ينادي عبر السماعة على الخضار والفاكهة وأسعارها ، حتى إذا استوقفته إحداهن من النافذة أو من باب البيت ، سبق أبو عصام ، سائق «البيك أب» وصاحبه ، إليها لتكون له أفضلية معاينة المرأة ، التي تطلب رطل بندورة أو خيار ، فيما لا تزال تسوي حجابها أو غطاء الصلاة الفضفاض الذي ترتديه فوق فستان البيت المنزلي . وكثيراً ما كانت نفسه تُترِع يوم تحمل نسائم الصباح غطاء الصلاة ، فيرتفع كمظلة كاشفاً عن ذراعين كثيفتي اللحم ، تنزان عرق البيت والطبخ ، وصدر عامر بالخِلفة الوفيرة ، فيما يجس أمامها حبّات الباذنجان التي تطلب معاينتها للمخلل أو المقدوس أو المحشي ، في إيحاءات مكشوفة بفجاجة ، جعلت إحداهن ذات مرة ترمي باذنجانة في وجهه .

ويوم أنزله أبو عصام في الطريق بعد أقل من عام ، بعدما فاضت تجاوزاته مع نساء البيوت الخالية من رجالاتها في الصباحات عن الحدّ ، تنقّل بين أشغال عدة ، فعمل في معرّش بطيخ ، ثم في مخازن مطحنة توزع القهوة والزعتر والبهارات بالجملة على محال السوبرماركت ، ثم حارس إسكان قيد الإنشاء ، حتى إذ لفظته الأماكن كلها ، أخذه لطفي كي يعمل معه في كراج السيارات . لم يظهر عايد أي رغبة في العمل ، مستصعباً القيام بأبسط المهام الميكانيكية . شكا معلّم الكراج للطفي أخاه ؛ فهو كسول ، وبليد ، وكثير التذمّر ، وكثير الأكل .

فتوسط لطفي أخيراً عند الحاج أبو عبادة كي يعمل عنده، مشرفاً على الساحة التي خصصها لبيع السيارات المستعملة. وكانت للطفي كلمته المسموعة لدى أبو عبادة. فمن خلال الكراج الذي يعمل فيه، كان يتولى كل أعمال الصيانة والتصليح لسيارات الساحة.

اعتقد عايد أن ساحة السيارات، التي تضاعف حجمها بعدما ضمّ أبو عبادة إليها قطعة أرض أخرى في أطراف المخيم، هي جنّته الموعودة. بجانب وظيفته الأساسية في إدارة الساحة وتنظيم استقبال السيارات وتوزيعها، سمح له أبو عبادة بنصب كشك صغير فيها لبيع القهوة والشاي والسجائر للباعة والدلالين. وكان يأخذ «إكراميات» من الجميع. وفي الليل، وقبل أن يأتي الحارس، كان يتفقد السيارات التي ترك أصحابها مفاتيحها معه، وتلك التي طوّر مهارته في فتح أبوابها بسلك معدني، منقّباً عن الشلنات والبرايز والدمى المحشية وشرائط الكاسيت والأمشاط وفراشي الشعر والبُكل وعلب الأدوية، فوق المقاعد وتحتها وفي الجيوب الداخلية وفي الصناديق الخلفية. كان يأخذ كل ما تقع يده عليه، يجمع الحاجيات في كيس، ويفرزها في البيت. ذات مرة، وقع على زجاجة عرق نسيها صاحبها في صندوق سيارته، تجرعها في الليلة ذاتها، حتى إذا جاء الحارس وجده ممدّداً على الأرض بالقرب من الكشك، شريطاً بشرياً هزيلاً، نافضاً سكون الليل بشخيره.

لكن اللقية الأعظم كانت شريط فيديو، عثر عليه عايد

محشوراً تحت سجادة مثبتة أسفل مقعد سيارة مرسيدس . لم يحمل شريط الـ«في إتش إس» أي كتابة أو وصف لمحتواه . فوجئ حين شاهد ما فيه في بيت صديق له . كان شريط فيديو منزلياً ، مستنسخاً عن الأصلي . تم التسجيل ، على ما بدا ، من زاوية واحدة وثابتة ، وفي غرفة لم يكن فيها سوى صوفا عريضة ، ومرآة جانبية طويلة مثبّتة على الحائط ؛ كأنها وُضّبت لغرض التصوير . رجل وامرأة ، تعرّيا أمام الكاميرا ، واعييْن تماماً لزاوية التصوير ، قبل أن يشتبكا جسدياً ، وقوفاً ، متهزهزيْن ، بحماسة مفرطة من الرجل ، وبعض التخاجُل من المرأة ، التي كانت عينها تراوح بين الكاميرا والمرآة ، تراقب شكل لحميهما المتعانقين . كان الرجل ، الذي لم يتخط الثلاثينات من عمره ، وقد دلّ قوامه الصلب المشوق وملابسه التي خلعها تباعاً بأنه ذو وفرة ، يعطي تعليمات لامرأته التي دلّ لحمها هي الأخرى على أنها من بيت فيه يُسر وبحبوحة كيف تقف ، فتكون شهوتهما في عين الكاميرا تماماً ، متحاككيْن برانيّاً ، متمنّعيْن عن الالتحام الكامل عمداً ، مماطلين إطفاء نارهما بمائهما المستعرة ، قبل أن يدفع الرجل فتاته برفق فوق السرير ، هابطاً فوقها ، لتسجّل الكاميرا ارتجاز جسديهما ، مع تداخل فحيحهما ، الذي غمط الغبش والتشويش في بعض أجزاء الشريط صفاء الصوت والصورة ، إلى أن ذابا في ارتعاشة هائلة ، كاتميْن صرخة خلاصهما .

رفض عايد اقتراح صديقه بأن يصنعا نسخاً من الشريط

لبيعها . أراد أن يحتفظ بالشريط لنفسه بعض الوقت ، قبل أن يقرِّر بشأنه . بعد يومين ، توقّفت سيارة أبو عبادة الأودي البيضاء عند مدخل الساحة ، فركض عايد لاستقباله . أثنى أبو عبادة على حسن إدارة عايد للساحة ، كما وصله من ناس كثر . ثم مال عليه هامساً من بين بخار كأس الشاي التي قدمها له بأنّ شيئاً لديه ربما يودّ أن يعطيه له . فهم عايد ما يلمح إليه أبو عبادة . فأعطاه شريط الفيديو الذي كان يحتفظ به داخل درج مغلق في خزانة المؤن الصغيرة داخل الكشك . وأقسم له برحمة أبيه بأنه عثر عليه صدفة في سيارة تركها صاحبها مفتوحة ، وأنه فكّر بأن يعدمه كي لا يقع في يد الشخص الخطأ . ضحك أبو عبادة ، مثنياً على ما وصفها بـ«أمانته» . ثم نقده عشرة دنانير مكافأة ، وطلب منه أن ينسى أمر الشريط تماماً . حين نهض ليمشي ، استدار أبو عبادة جهة عايد ، قائلاً :

– يعني يلّي خايف على شرفُه ما يِفْضَحِشْ حالو . . مُشْ هِيك ولا أنا غلطان يا عايد!

«عدّاك العيب يا معلّم!» قال له عايد . ثم كان أبو عبادة صريحاً ومباشراً حين قال لعايد بأن السيارات التي تدخل الساحة ملكه ، هو أبو عبادة . «بس الشلنات والبرايز ونصيّات العَرَق حلال عليك» ، ربّت على كتف عايد غامزاً ، وانسحب بالشريط يطويه تحت عباءته البنية التي كان يرتديها فوق بدلة رسمية . كان أبو عبادة قد خلع زيّه الأفغاني بعد سنوات قليلة من وصوله الأردن . في البداية استبدله بالدشداشة الخليجية ،

ثم اعتمد البدلة الغربية فوقها العباءة، مع حطّة الرأس المرقّطة والعقال، ما أضفى عليه طلّة مشيخيّة. خلال أسبوعين، كانت نسخ من شريط الفيديو، الذي يظهر فيه مذيع برامج معروف في وضع فاضح مع مغنية شابة تبيَّن أنها زوجته، تُباع على البسطات.

تزوج عايد أسما، بنت خالته. اعتقدت رابعة أن الزواج سوف «يربّيه». ثم اكتشفت أن «المرَا» و«الخِلفة الكثيرة»، لن تصلحا حاله فعلياً. قرشه كان قليلاً، وإن توفّر ضيَّعه خارج البيت، وما كان يدخل به البيت تضيِّعه أسما بسوء تدبيرها. سكن عايد وزوجته مع رابعة في بيت المخيّم الذي خلا من موسى والبنات، وذلك في تدبير مؤقّت، ما لبث أن بات دائماً، بعد ولدين وبنتين كرّتهما أسما تباعاً. ورغم أن رابعة هي التي سعت في زيجته، وانتخبت له أسما بنفسها - فما كانت لتجد أفضل من ابنة أختها - فإنها كانت دائمة الشكوى منها؛ كسولة وتِنْحة مثل زوجها، كانت تقول عنها لحوّا. ثم إن «لسانها طويل». لكن رابعة لم تكن تستهجن لسان أسما شديد المَضاء. فلسانها طلع من فمها، وهي عروس، ومن يومها لم يخفّ تطاولها على عايد. كما أن سكوت عايد عليها بدا مفهوماً ومتوقّعاً. وحين كان عايد ينقضّ عليها، في غضباته الكثيرة، رافعاً كفه كي يهوي بها على وجهها، كانت أسما تقف قبالته، متحديةً، وقد جحظت كل قسماتها: «اضربْ.. اضربْ إذا كِنَّك زَلَمِة!»، فتظلّ يد عايد معلّقة في الهواء، قبل

أن تسقط إلى جنبه ، خانعة . حتى إذا صفق باب البيت وراءه ، فتحت أسما يديها ، رادحةً أمام رابعة : «هاظْ يَلّي كان ناقِصْ» . لم يكن قد مضى على زواجهما أيام حين خرجت أسما من غرفة نومها تهم بالولولة ، فهجم عليها عايد من الخلف وأوقعها أرضاً ، مكمِّماً فمها وأنفها بكفه . فإذا هدأت ، رفع يده قائلاً برجاء : «اسكتي!» ثم وضع في يدها ورقة بعشرة دنانير وخرج دون أن يرفع بصره في عروسه أو في رابعة .

وضعت أسما العشرة دنانير في عبها ، معاتبةً رابعة بالقول :

- الله يسامحِكْ يا خالتي! مش كان حكتيلي إنو ابنِكْ شخّاخ!

حدث ما كانت حوّا تخشاه ؛ فقد سحب عايد ابنها قيس إليه ، رغم سعيها المستميت كي تشدّه إليها أو إلى لطفي . بكثير من العصْر والضّغْط ، أنهى قيس الثانوية العامّة يحمل شهادة «توجيهي راسب» . كان أبو عبادة قد طرد عايد أخيراً من ساحة السيارات ، بعد أقل من ثماني سنوات . من جديد ، خان عايد الأمانة . وهذه المرّة لم يغفر له أبو عبادة «جريمته» ، كما صنّفها . توقّف رجلان من طرف أبو عبادة عند كشك عايد في ليلة شتوية كاتمة ، يسألانه عن أكياس البودرة الأربعة ، التي عثر عليها في الإطار الاحتياطي لسيارة الهونداي الفضية . حلف عايد برحمة أبيه أنه لا يعرف شيئاً عن الأكياس التي يتحدثان عنها . غرس أحد الرجلين سكيناً قصيرة ، غليظة ، مشرشرة في فخذه اليمنى ، ثم جذبه إليه وفحّ في وجهه

قائلاً : «بِسَلِّمْ عليك الحاج أبو عبادة وبِبَلْغَكْ إنّو المرّة الجاي رَحْ تيجي الضربة في مكان تاني» . تداعى عايد على الأرض ، فحشى الرجل الثاني فم عايد بالتراب ، قبل أن يدلّهم أخيراً بلسانه المعفَّر بالرمل على مخبأ الأكياس .

لزم عايد البيت شهوراً طويلة ، معتمداً على المصروف الذي كان يخصصه لطفي لوالدته ، فذهبت رابعة بنفسها إلى لطفي ترجوه أن يجد «شغلة» لأخيه . لم يبدُ عايد راغباً في العمل في ورشة شقيقه ، الذي بات المسؤول الأول والأخير فيها ، بمباركة حميه وابنيه . لكنه مع ذلك لم يعرض عن الفلوس التي كان يضعها شقيقه في يده من وقت لآخر ، فيما باتت لاحقاً حقاً ثابتاً له . تنقّل بين عشرات سيارات الأجرة ، التي كان يتضمّنها من أصحابها ، ممارساً من خلالها هوايته في التحرّش بالنساء والبنات اللاتي يتوقّف لهن في الشارع انتقائياً ، متلصّصاً عليهن من مرآته وهن منزويات في المقعد الخلفي ، أو في مشاحنة السيارات الأخرى في الطرقات ، مبدِّداً معظم ما كان يجمعه في اليوم في سداد المخالفات والتجاوزات وتكبّد كلفة الأعطال الكثيرة التي يلحقها بالسيارة .

يوم جاءه قيس ، فتح له عايد الباب مؤهِّلاً ، مرحباً . كان قيس قد تعلّق بهند ، ابنة عايد ، وهو تعلّق ناسب عايد كثيراً ، فخطّبها له ، رغم اعتراض اسما وحوّا . لم يكن قيس أتمّ عامه العشرين . وكانت حوّا تعرف أن عايد لن يأخذ قيس لابنته «ببلاش» . واكتشفت أن الخطوبة كانت ستكلفها نصف سيارة

أجرة . فقد خرج عايد على قيس بمشروع شراء سيارة أجرة ، يعملان عليها بالتناوب . اقترح أن يدفع ابن أخته الدفعة الأولى ، على أن يتقاسما سداد الأقساط من دخْل السيارة . رفع نظمي يديه عن الموضوع . قال لابنه صراحة إنه بما أن خاله أعطاه ابنته ، فليدفع هو له . حملت حوّا نفسها وذهبت إلى لطفي ، ترجوه ألا يترك قيس لعايد . لكن لطفي فعل ما يفعله دوماً ؛ «ما في فايدة» ، قال لها ، وأعطاها ثلاثة آلاف دينار ، قيمة الدفعة المطلوبة للسيارة ، كي تعطيها لقيس .

كانت حوّا تحبّ لطفي ؛ لقد كان طيباً ، عاش صبياً شبه مكتف «في حاله» ، وشاباً طموحاً شبه مقتدر «في حاله» ثم رجلاً متمكّناً مقتدراً و«في حاله» أيضاً . كان يعطي ، دون كرم كبير ، ويحبّ دون كثير ارتماء على من يحبّ . لم يكن ذا وجود نافر أو طاغ في البيت ؛ كان ذا صوت خفيض وحركة خفيفة ، تكاد تكونُ غير محسوسة ، وهو أمر قد يبدو مستغرَباً بالنظر إلى بنيته الضخمة ، التي فاقت ضخامتها بكثير بنية والده وشقيقه عايد ، والأكثر مدعاةً للاستغراب ربما أنه لم يكن كثير الانتشار في أي مساحة يحتلّها . لم يتدخّل يوماً لإنقاذ عايد ، أو ليتلقّى عنه سياط والده أو بعضاً منها . ويوم كان والده ينزل بالقشاط على حوّا في غالب الصباحات ، وعلى عفاف وساجدة في غالب المساءات ، كان لطفي يبدو متألماً بحق ، وتكاد تُشاهَد دمعة تنطف من عينه ، لكنه مع ذلك ، كان يظل واقفاً في مسافة بعيدة نسبياً تتيح له التفرُّج والتوجُّع دون أن يحول بين

والده وشقيقاته ، ودون أن يتلقّى عنهن الضربات والركلات أو أثراً منها . ثم صار ينطلق إلى عمله أوّل الصباح ، وقبل الجميع كي لا يجد نفسه ، هو الفتى الطيِّب العاجز ، مضطراً للتفرُّج والتوجُّع عن بعد . كما صار يعود إلى البيت آخر المساء ، حريصاً على ألا تلتقي عيناه عيون شقيقاته المنهنهات من العياط ، وقد نالت أجسادهن حصتها من السَّحق . كان يذهب إلى عمله نشيطاً ويعود منه ، منهكاً جائعاً ، فيقبل على الأكل بنهم ؛ وفي آخر الليل ، يظل متكوِّماً أمام التلفزيون حتى يسقط نائماً ، شبه ميت . لم يكن يحكي مع أحد ، ولم يكن أحد يحكي معه إلا بما يلزم . «هاتْلَكْ خَمِسْ ليرات!» كان موسى يطلب منه دون أن ينظر إليه ، فيعطيه لطفي الليرات الخمس مبادلاً إيّاه عدم النظر . في البداية ، حاول لطفي ألا يبدو سريع الاستجابة مقاوماً طلبات موسى التسلُّطية ، مجادلاً ، متباطئاً ، ببعض المراوغة أحياناً ، لكنه وجد في الاستسلام أخيراً بعض الراحة . «بِدْنا عَشِرْ ليرات» ، كانت رابعة تطلب منه ، فيناولها الفلوس غير حريص على أن يسمع الأسباب الموجبة لطلبها ؛ «عَشَان فاتورة الكهربا» أو «بِدْنا نشتري كاز للصوبة» ، أو أي سبب آخر لم يكن يعنيه كثيراً أن يعرفه . أُوكل إليه شراء مونتهم الشهرية من لحم ودجاج ، فلم يشكُ ، ثم تُركت له مسؤولية تسديد فواتير الكهرباء والماء ، فلم يعترض أيضاً طالما أنه ظل بمنأى عن أوجاع البيت الجوانيّة .

عمل لطفي في ورشة أبو كرم صبياً ميكانيكياً ، أظهر براعةً

وسرعةً لافتتين في تعلُّم الصنعة . ثم صار ميكانيكياً شاباً في الورشة ، يقصده أصحاب السيارات المعتلَّة بالاسم ، واضعاً يده على موطن الاعتلال من التشخيص الأوّلي . ثم صار مشرفاً على الورشة ، فطلب أبو كرم يده بنفسه لابنته سحر ، التي تطلّقت من ابن عمّتها بعد أقلّ من عام من زواجها به . كان لأبو كرم ولدان ، لم يكونا متحمِّسين تماماً للعمل في ورشة أبيهما . كرم ، الكبير ، كان الأكثر تأنّفاً من الفضاء المسود في ورشة أبيه وعرق الصبيان الحامض وبشراتهم المشحَّمة وقرقعة المعادن وضجيج النفخ والطَّرق وحشرجة محرِّكات السيارات وأبخرة العوادم وقيء الأجزاء الداخلية للسيارة من زيت وماء ، مع إقراره بأن الورشة أنفقت عليه في تعليمه المكلف في أميركا . أما الصغير ، أشرف ، فالتهى بمشاريع تجارية عبثية ، كثيراً ما اضطرّ أبو كرم معها للتدخُّل للجمه أو إنقاذه .

بتزويج ابنته الوحيدة من لطفي ، ضمن أبو كرم أن تظل الورشة تدرّ ما يكفي للإنفاق على أسرته وابنيه وطموحاتهما المتهوِّرة وأسرتيهما ومعيشتيهما العمّانية المكلفة . أسكن أبو كرم زوج ابنته في شقة بناها فوق بيته في الكمّالية . لم يُبدِ ابنا أبو كرم حماسة لزوج شقيقتهما . لكن لطفي عرف ببساطة كيف يُحيِّدهما في البداية ، قبل أن يكسبهما إلى صفّه بالاعتناء شخصياً بسيارتيهما وسيارتي زوجتيهما ، متولِّياً أعمال الصيانة والتصليح وتركيب كافة أنواع الإكسسوارات بنفسه ؛ كما عُرف بولائمه السخية التي كان يدعو إليها أبو كرم

وابنيه وأبناء عمومتهم ، حتى إنه بنى غرفة كبيرة على السطح ، أشبه بقاعة احتفالات فيها مطبخ وحمام للضيوف ، فرشها بطقمي كنب ومقاعد وطاولات ، وعلّق على حائط شاشة تلفزيون ضخمة ؛ فكان رجال عائلة أبو كرم يتجمعون عنده لحضور مباريات الدوريات الأوروبية وبطولات كأس العالم ؛ لا يتوقفون خلالها عن شرب الشاي والقهوة وتدخين الشيشة التي يعدها لهم ، متفقداً بين صياح هدف محتمل وآخر الجمرات ، مثبتاً أنه لا غنى عنه وسط قوم لا يشبهونه إطلاقاً .

حين كان لطفي يتوقف بسيّارته أمام بيت أهله في المخيم ، مع زوجته وأولادهما الثلاثة ، كان يحمل معه رزمةً من البرايز الجديدة ، بالمعدن الأبيض شديد السطوع ، مرصوصةً بإحكام داخل لفّة ورقية ، أشبه بأصبع شوكولاتة ، يفضّها ، موزّعاً البرايز على أولاد الحارة ، الذين يتجمّعون حوله ، فيضمن على الأقل ألا يمرِّر أحدهم ، حنقاً أو غِلاً ، مسماراً على جنبات سيارته المرسيدس الزيتية ، خادشاً بدنها الصقيل ، أو يضرب بكوعه إحدى مرآتيها الجانبيتين عمداً ، فيخلعها .

كان لطفي يعتقد أن المصاري تحلّ أصعب المشكلات ، وهو اعتقاد برهن صحّته في معظم الحالات . بعد وفاة والده ، صار يخصّص مصروفاً شهرياً لوالدته . وحين لجأت إليه رابعة يوم أرادت أن تزوّج عايد ، كي تنتزعه من حضن جنكيّة كان يلفي إليها ، أعطاها ألف دينار مهراً لأسما ، واشترى للعروسين غرفة نوم ، كما وضع في جيب عايد خمسمئة دينار لزوم تجهيزات

العرس . ثم حين قصدته فوزية ، زوجة عمّه خليل ، كي يجد «تصريفة» لجدّته نايفة ، تدّخل بقوة الفلوس .

كانت فوزية قد ورثت من نايفة ، التي سكنت معها في بيت العائلة الكبير في المخيم ، صناعة الجبنة النابلسية . حين كانت نايفة في أتمّ رشدها وجبروتها ، لم تكن لتنافسها أيّ من نسوة المخيم ونواحيه ، ممن جايلنها عمراً وخبرةً ، في صنعتها . من جانبها ، ظلّت فوزية الحاذقة وفيّةً لأدوات نايفة الأولى ومذاق جبنتها الشهية التي تشي بترف المكوّنات وذاك الحسّ القروي المنزلي الطاغي . وحين استوطن الزهايمر عقل نايفة ، فضمر إدراكها وطاشت حواسها بالمطلق ، تأخّر الناس قبل أن يكتشفوا أن جبنة أم موسى ، التي لا تماثل أي جبنة أخرى ، ليست من صنع أم موسى حقيقة . وحتى حين آلت السمعة في نهاية المطاف إلى فوزية ، ظلت تُعرَف بجبنة أم موسى ، وهو أمر جعل الرزق يدقّ باب فوزية كأيام نايفة وأكثر . شكت فوزية للطفي «عمايل» جدّته «الخرفانة» . في مرة هجمت عليها بسكّين تقطيع قوالب الجبن تريد أن تطعنها في رقبتها ، لولا رحمة الله وستره في اللحظة الأخيرة ، كما قالت واضعةً يدها على صدرها ، مستغفرةً ، شاكرةً ربَّها ، حامدةً . وفي مرة بصقت نايفة في قدر حليب كان يسخن على النار . أما الكارثة ، فكانت يوم شخّت في أحد قوالب الجبن . «وهاظ رزقْنا يا لطفي . . يِرْضيكْ ستّكْ تشخّ في رِزِقْنا!» ، ضربت فوزية كفاً فوق كف ، محذرةً - همساً - من مغبة التضحية برزق عيالها ،

كأنها كانت تخشى أن يتسلّل صوتها من حوائط البيت الهشّة للناس في الشارع فيعرضون عن جبنتها من مجرد التفكير بأن نجاسةً ما لحقتها .

عرض لطفي على شقيقه عايد أن يأخذ جدّته عنده ، ويتكفل هو بمصاريف رعايتها والاهتمام بها . لكن أسما رفضت ؛ إذ هبّت في وجه عايد وهدّدته أمام رابعة ، التي آثرت الصمت وإن بدت مؤيِّدة لموقف كنّتها الغاضبة ، بأن تترك له البيت مع الأولاد في اللحظة التي تدعس فيها نايفة عتبة الباب ؛ «والله حتى لو عطانا لطفي ثُقْلها ذهب!» ، قائلةً بحزم . ولم تنسَ أسما أن تضيف غامزة ، مسدِّدةً إصبعي يديها الوسطيين في وجه عايد : «مُشْ ناقِصْني أُخْرى شخّاخين!» وكما كان متوقعاً ، كانت نايفة من نصيب حوّا . لم يبذل لطفي أي جهد في إقناعها ، فحوّا لم تستطع أن تمنع نفسها من الإشفاق على جدتها ، حدّ البكاء الحارق ، وهو ما أثار دهشة لطفي ونبش خزياً قديماً موءوداً في ذاكرته ، يوم كان يظل في الحمام ، مستبطئاً الخروج ، يخزّ أذنيه صوت شبشب نايفة يصلي لحم حوّا الطري ، فينخر صياح شقيقته المغمّس بالألم قلبه . لم يعترض نظمي على استضافة نايفة في بيته ، متولياً بنفسه الاتفاق مع لطفي على الكلفة المالية المترتبة على هذه الاستضافة . قال نظمي إن نايفة تحتاج إلى مساحة رعاية خاصة ، لا يستطيع بيته الصغير أن يوفرها لها ، فانتقلوا إلى بيت أكبر في المخيم ؛ فاعتبرت حوّا أن البيت الجديد قد يكون

الهبة الوحيدة لها من جدّتها ؛ لا لأنه أكبر فقط وإنما لأنه جاء في نهاية زقاق ، ما جعل نوافذه تُفتح من زاويتين على الأقل على الطريق ، دون أن يكون محاصراً ، حدّ الاختناق ، بالبيوت حواليه من الزوايا الأربع . كذلك كان البيت أكثر ارتفاعاً عن الأرض من بيتها القديم الواطئ ، فلم تعد أمطار الشتاء ومجاري الجيران الطافحة في الأزقة تغزوهم .

خصصت حوّا غرفةً لنايفة وضعت فيها سريراً طبياً اشتراه لطفي وخزانة غيارات ، حرصت على أن تكون أبوابها وأدراجها مغلقةً بالمفاتيح ، محتفظةً بالمفاتيح الكثيرة في سلسلة علّقتها على مسمار في الحائط بعيداً عن يد نايفة . خلعت حوّا درفتي النافذة الزجاجتين ، بعدما كسرتهما نايفة بلكمة قوية من يدها العريضة ، مادةً ذارعها عبر فراغات شبك الحماية الحديدي ، لتشد حجابات النساء وشعور الرجال المارين في الطريق ، وركّبت شباكاً سحّاباً من الزجاج المقوّى ، غير القابل للكسر ، يُفتح ويُغلق بواسطة زرّ أمان ، كما استبدلت شبك الحماية بآخر فراغاته ضيقة ، فلم تعد نايفة تستطيع أن تمدّ يدها بين تجاويف الشبك تصطاد بها مارة الطريق ، وإن ظلت تواصل الطرق على الزجاج المقوّى بكلتا يديها الغاضبتين . مع حصارها في غرفتها ، محدودة المحتويات ، ازدادت شراستها ؛ فكانت تكمن على الأرض خلف الباب ، حتى إذا دخلت حوّا تحمل لها الطعام ، هجمت عليها وأوقعتها أرضاً ، ثم رمت جسدها الثقيل فوقها ، لتستصرخ حوّا طلباً للنجدة . كان قيس يحاول

أن يرفع جدته عن أمّه ، لكن نايفة كانت تدفعه بيدها الجبّارة بعيداً ، فيقع على ظهره ، شاتماً ، لاعناً أسلافها ، لينهض ويعمل فيها ضرباً وركلاً ، فيما تصيح حوّا فيه كي يتوقّف . تعلّمت حوّا فيما بعد ألا تستنجد بأحد ، فإذا ما جثمت نايفة فوقها ، استسلمت ، دون أن تصرخ ودون أن تقاوم . وفي مرات كثيرة ، كانت حوّا تشعر بأنها ميّتة لا محالة ، وما استمرارها في العيْش إلا لأن نايفة تخور قواها ، فترتخي ذراعاها الملفوفتان حول عنقها ، أو لأنها قد تشخر وهي جاثمة فوقها ، وتغطّ في نوم فجائي ، فتنسحب حوا من تحتها بحذر شديد .

كانت نايفة دائمة الطرق والضرب والصراخ ؛ تطرق أبواب الخزانة ، وتضرب باب الغرفة الثقيل الموصد ، وتزعق في ساعات النهار حتى تكاد حنجرتها تتمزّع ، وتظل تطرق الأبواب طرقاً عنيفاً وتصرخ صراخاً هائجاً مسعوراً طول الليل حتى تخال حوّا أنها سوف تفرط أخيراً . زبونات حوّا كن يجفلن من صياح العجوز المرعب . ومع سطو نايفة على معظم وقتها وطاقتها ، تراجع شغل حوّا ، فيما أمعن نظمي في ابتزاز لطفي ، زاعماً أن الثلاثمئة دينار التي كان ينقدها لهم شهرياً لم تعد تكفي ، مؤكداً أن الله في عليائه لا يقدر على نايفة وشراسة نايفة . «خذوني لبيتي . . رجعوني لبيتي!» ، كانت نايفة تنادي . وكانت حوّا تستغرب حنين جدّتها لبيتها في المخيم ، الفائح بالحليب والمنفحة والخثرة . لكن حوّا دخلت على جدّتها ذات مغربية ، فوجدت أصابعها مدماة ، وقد غرستها في

أحد الحوائط . كانت تحفر الحائط بأظفارها ، فحتّ الطلاء المهترئ وهتّت أجزاء من القصارة ، وتعرّى ليتكشّف لحم الطوب القاسي . نزفت أصابع نايفة دماً ، فيما غمرت الدموع وجهها ، وهي تعاين الجدار العاري ؛ «هاظ مش بيتي! هاظ مش البيت يلّي بنيته!» مواصلةً المناداة والبكاء : «وين بيتي؟ خذوني لبيتي! من شان الله ودّوني لبيتي!» .

ثم بعدما فقد عقلها المتآكل أي قدرة له على تحريك أعصابها وتوجيه أعضائها ، سقطت نايفة أرضاً . حدث ذلك في يوم لم يبدُ وشيكاً . دخلت حوّا على جدّتها تحمل لها الفطور ، فوجدتها واقفةً في منتصف الغرفة ، كأنها كانت تبحث عن شيء يسندها . حاولت نايفة أن تشدّ جسمها إليها ، مخافة أن يفلت منها ؛ رفعت هيكلها إلى أعلى ما يمكن أن يصل إليه طولها الهائل ، متحاملةً على ارتجافةٍ مزلزلةٍ سرت فيها ، ثم وقعت ؛ القامة الضخمة ، السامقة ، المتجبِّرة ، طاغية اللحم والعظم ، سقطت أرضاً ؛ تداعت طولياً ، كبرج صخريّ شُفِط من أسفل إلى أعلى ، أو كناطحةٍ لُغِّمت من القاعدة ، فانهارت مرة واحدة . واكبت سقوطها صرخة نابعة من روح روحها ، اهتزّ لها الفضاء من حولها والفضاءات المجاورة . كانت تلك صرخة نايفة الأخيرة .

لعامين أو أقل قليلاً ، لزمت نايفة السرير ، لم تكن تفتح فمها إلا لتصدر غمغمةً أو أنيناً ، ساقاها مرفوعتان إلى بطنها ، وذراعها ملمومتان ناحية صدرها . تناقص لحمها ، وسقط عنها

الشحم ، واستحالت هيئةً عظميةً ، بوجه شبحي غاصت فيه عيناها في محجريهما ، وبرز جبينها المستعرض المنتفخ ، ونتأ فكّها مؤطَّراً بوجنتين مجوَّفتين ، واستطال ذقنها المدبب ، وتحوّلت شفتاها إلى خطّيْن مزغبيْن ، مستغنيةً عن طقم أسنانها تماماً ؛ فكان رأسها يبدو وهي نائمة ، عيناها مغمضتان وفكّها مرخي وتجويف فمها مفتوح كثقب ، أشبه بجمجمة لبقايا كائن بشري شهد أهوالاً قبل موته . كانت تنكمش على نفسها ، مفزوعة ، كلّما حاول أحدهم الاقتراب منها ، لكنها كانت تبدو أكثر انبساطاً واطمئناناً بوجود حوّا قريبة منها . كانت حوّا تطعمها وتسقيها ، وتحفِّضها ، وتغيّر لها ، وتحمّمها ، وتركِّب القسطرة البولية في مثانتها ، وتنظِّف كيس البول ، وتخرِج بيدها البراز المتكدّس في أمعائها الخاملة ، وتعالج التقرُّحات المتشكِّلة في ظهرها وحول منطقة العُصعص ، حتى تلك النخرية منها ، فتنظِّف الخمج والصديد المتجمّع فيها ، وتطهِّرها ، وتغطِّيها بالضمّادات الرقائقية ، التي تغيِّرها باستمرار .

في آخر صباح لها ، بعد أيام من الأنين ، كانت حوّا تسقيها ماء بالحقنة ، حين أطلقت نايفة شهقةً قوية ، جحظت معها عيناها . مدّت يدها الراجفة إلى وجه حوّا . «الله ييسِّر طريقك يا ستّي» . مسحت حوّا دمعات سريعات طفرت من عينيها .

أخيراً ، وقعت يد نايفة .

***

طَرقات عجولة على الباب تسحب حوّا من سحابتها. تخضّ كيانها خضّاً عنيفاً. لا يمكن أن يكونا عايد وقيس؛ فهما لن يأتيا قبل العِشاء. تتلاحق الطَّرقات، كأن يدين وقدمين تركل الباب المعدني. تسرع حوّا كي تفتح قبل أن يوقظ ضجيج المعدن والدتها. تقف لجُين ذات الستة أعوام، ابنة جارتها أم زياد، تحمل كيساً كبيراً، تلهث، فمها ينضّ عن هوّة عريضة يعزّز اتساعها فقد عدد من أسنانها الأمامية. تأخذ حوّا عنها الكيس الثقيل، متعجِّبةً كيف سارت الصغيرة طول الطريق من بيتهم في المخيم إلى بيتها، قاطعةً ما لا يقلّ عن ثلاثة أزقة. تتبع لجُين حوّا إلى الغرفة الرئيسية. تخلع الصغيرة التي يبدو أنّ هيكلها الضامر تقلّص أكثر مع ثقل الكيس والهواء البارد المتكثِّف مع العصرية حذاءها، وتهرع نحو الصوبة، مقرِّبةً يديها نحو العين الحمراء، كي تمتصّا بعض الدفء، فتسكب الحرارة بعض لون في وجهها، الذي لا يزال ينفض عن قسماته شحوب البرْد. تفرك أصابع قدميها، من داخل جوربيها المثقوبين، بعضها ببعض، وتبدو منتشيةً بالحرارة التي تدبّ فيها.

تفرز حوّا محتويات الكيس: جلبابان يحتاجان إلى تقصير الذيل والأكمام، مع تعليم مواضع التقصير بالدبابيس، وتنّورة تلزمها بطانة، ومريول مدرسة جاهز مع قطعة قماش من النوع نفسه كانت أم زياد قد أوضحت لها من قبل أنها تريد خياطة القطعة على مقاس المريول الجاهز. في الكيس أيضاً خمسة بنطلونات ولادية، بعضها يحتاج إلى تركيب سحابات جديدة

بدل القديمة المخلّعة أو المعطّلة أو العالقة، وأخرى إلى تلبيس رُقعات في أماكن التمزيق غير القابلة للرّتق أو المعالجة، خصوصاً عند الأفخاذ والرُّكب. بينما تتفقد حوّا مواقع التمزيق في البنطلونات، ينزاح بصرها نحو لجين التي ترمق بطرف عينها جاط الفواكه. «مدّي إيدك!»، تشير لها حوّا إلى الصحن الذي تشعّ وجنات التفاحات والرمّانات فيه. لا تظهر الصغيرة أي تمنّع، تنتزع أكبر تفاحة وأكثرها احمراراً، وتخمشها. «بتْحِبّي الرمّان؟!» تسألها حوّا، فتأخذ لجين رمّانة تمور حُمرةً دموية، تقلّبها بيديها، قبل أن تحشرها في جيب بنطلونها، محدثةً تورُّماً هائلاً أعلى فخذها.

في السنوات الأخيرة، زاد شغل حوّا، وماكينتها اليدوية التي استبدلتها بعد أعوام قليلة من زواجها بأخرى تعمل بالكهرباء، وتعطّلت مرّات وصلّحتها مرّات ومرّات قبل أن تستبدلها بأخرى أحدث، لم تتوقّف عن الدوران. لكن الخياطة بمعنى التفصيل المحنّك، المعقّد، بالجماليّات والمهارات والفنيّات، وحتى الذائقة، التي اكتسبتها حوّا من ست قمر تراجع لصالح أشغال الخياطة الترقيعيّة أو الترميميّة، أو التفصيل ذي الأسس المتكررة، الأقرب ما يكون إلى اجترار القطعة ذاتها، في معظم المرات، أو الخياطة البدائية أو المفرطة في البساطة حدّ ألا تكون شيئاً ذا قيمة أو أي شيء على الإطلاق. الجاهز أتى على التفصيل. كانت تسمع من زبوناتها اللاتي يأتينها بملابس جاهزة، تحتاج إلى تقصير أو تطويل أو

تضييق أو توسيع أو تعديل ما ؛ ربما إضافة تنتنة هنا أو إزالة كشكشة هناك ؛ أو تركيب بطائن للفساتين والتنانير والجاكيتات والجلابيب . ثم صارت حوّا تقيِّف الملابس القديمة التي تصغر على أبدان أصحابها أو تضيق على تمدُّدِهم وتفرّعهم وتغلُّظهم ، كما تقتضي سنُّة الوجود المكلِفة ؛ فتنفخ حياةً في فستانين انقرضت موديلاتها ، أو تمدّ في أعمار بنطلونات بناتية وولادية ، متناقلَة بين الإخوة .

وهناك بالطبع موسم المدارس ، وما يجلبه لها ذلك من أكداس من الأقمشة الزرقاء والخضراء التركوازية ، تخيطها ضمن قوالب جاهزة للمرايل المدرسية ؛ حتى إنها تعرف مقاسات بنات حارتها والحارات المجاورة من النظر ، وأحياناً من المرحلة الدراسية ، حتى حين يبلغن فجأة ، فيستطِلن ويتضخّمن ، وتنضج صدورهن وتُحبْحِب وجوههن ويبدأ الشحم ، الناجم عن حرارة الاكتظاظ والحشْر في البيوت الضيّقة وسوء التغذية ، بالتكدُّس في أحواضهن وأفخاذهن .

ثم وقعت حوّا على باب رزق جديد ، دلّتها عليه جارتها أم سعيد . صارت تشتري أقمشة «ستوكات» من القطن والكتان ، بالكيلو ، سادة ومقلّمة ومطبَّعة ، تقصّها وتخيطها شراشف أسرّة مفردة ومزدوجة ، بمطّاط في الحواف أو دون مطّاط ، كما تخيط معها أكياس وسائد ، تبيعها بالقطعة أو على شكل أطقم . لكن بضاعتها التي كانت تلقى الطلب الأكبر ، من زبونات المخيّم وخارج المخيّم ، هي الشراشف التي تخيطها من قماش كتّاني

متين ، قابل للدّعك ، تبطِّنها بالنايلون السميك المقاوم للتفسّخ ، الذي يصمد فلا يهترئ عند غسيله مرّات عديدة . ومع زيادة الطلب على شراشفها المشمَّعة ، التي تخيطها بأحجام ومقاسات متنوِّعة ، لتَنْفق الكبيرة منها قبل الصغيرة ، صارت حوّا تشتري الأقمشة والنايلون على هيئة رولات ، تصفُّها طولياً فوق مصطبة خشبية بالقرب من الخزانة في غرفة النوم .

جاء باب الزرق الجديد ليعوِّض بعض الشيء ، ذاك الذي سُدَّ ، وبقسوة ، برحيل لطفي قبل نحو ثلاث سنوات . في ذاك المساء النيساني ، المشحون بالإثارة والشاي والمعجَّنات والمكسَّرات ، طازجة التحميص ، وقرقرات الشيشة ، ببخار معسّل التفاحتين والورد والفراولة ، متكثفاً أمام شاشة التلفزيون العملاقة في قاعة الضيافة في بيته ، اتّقد لطفي حماسةً ، فقفز من على الكرسي من الفرح الشديد ، بعدما انتهت المباراة التي جمعت بين ريال مدريد وبرشلونة في بطولة كأس إسبانيا بفوز الريال بهدف مقابل لا شيء . من شدة الفرح سعُل ، ثم اشتد سعاله ، فاحمرّ ثم ازرقّ ، ثم سال العرق مطراً غزيزاً من وجهه ورقبته وصدره ، ثم صرخ بأن سكيناً تشقَ صدره ، ثم لم يعد يتكلم ، فيما ظلت عيناه اللتان قاومتا الإغماض تحاولان ، عبثاً ، التعلّق بذيل الحياة المنسحبة منه . كان لطفي في أواسط خمسيناته يوم مات .

لكن باب الرزق الجديد بالكاد سدّ هُوىً كثيرة ، من بينها هوّتان فاغرتان لعايد وقيس اللذين كانا دائمي التلكُّؤ عندها ،

يجلسان منكّسي الرأس ، كأنهما منكسران ، أو محطّما النفس ، وإن كان ذلك ليس على حساب شهيّتهما ، مبادرين بسؤالها أولاً عن الطعام ، أي طعام في البيت ؛ ومهما وضعت أمامها ، فإنهما كانا يأكلان بشراهة ، كأنهما جائعان منذ مئة عام ، مفترسيْن الهبْرات الكبيرة ، قبل أن يأتيا على قطع اللحم الصغيرة ، ومن ثم المرَق والرّز ، وتوابع الطعام الأخرى ؛ حتى قطع المخلَّل كانا يقرشانها بنهم . حتى إذا امتلآ تماماً ، وغسلا بطنيهما بالبرتقال ، وتمزمزا بالشاي وافر الحلاة ، ارتديا وجهيهما العاجزين ، ثانيةً ، مع مسحة بؤس وبلاهة ، فارديْن كفيهما الفارغتين أمامها ، يشكوان أعطال سيارة الأجرة وكلفة تصليحاتها الخيالية ، ودفعات السداد المتأخرة عليهما .

جزعت حوّا حين كانت ترى قيس ، يوماً بعد آخر ، يشبه أباه . حتى شكله كان مثله ، حد التطابق ، كما لو أنه نبت من فرعه الرفيع والأجوف ذاته ، دون أدنى تعديل أو تقويم أو إعادة تشكيل . لكن الشبه المؤلم تخطّى الشكل الخارجي ؛ فقد ضاهى قيس أباه في دناوة النفس ؛ فشقّ عليها أن تكتشف أن أيام عمرها التي أنفقتها في تجنيب قيس الانزلاق في محيط وضاعة الأب وخساسته ضاعت . وفي مرة ، جاءتها أسما ، زوجة عايد ، تشكوه لها . وصفت لها بحرقة كيف هجم قيس على ابنتها هند ، ولم يمض على عرسهما شهران ، فلفّ سنسال الذهب حول عنقها ، حتى كادت روحها تطلع ، قبل أن ينتشه ويبيعه . تحسست حوّا عنقها براحة يدها ، مزدردةً لعاباً عالقاً

فيه بصعوبة ، ثم أغمضت عينيها على صورة لا تزال تفاصيلها التي أعقمت روحها ماثلةً في ذهنها ، لتفتح عينيها على رعب حي . حاولت أن تطرد الصورة فلم تنجح كثيراً . ظلّ الألم يحزّزُ عنقها حتى بعد وقت من مغادرة أسما بيتها .

يوم تطلّقت حوّا من نظمي ، لم يبدُ قيس شديد التأثر . وحتى عايد لم يلعب دور الشقيق الغيور . وإذا كان الطلاق بالنسبة لها انعتاقاً لروحها ، مع أنها لم تسعَ إليه ولم تطلبه ، فإنه بالنسبة لقيس ، كما لعايد ، انعتاقٌ لفلوسها التي تجمعها بكثير تعب قبل أن «يتسلبط» نظمي عليها . لقد وجدا في طلاقها باباً أوسع لهما يطرقانه بأحقيّة أكبر ، ممتشقيْن سلطة الأخ وسلطة الابن وسلطة الحاجة المكرَّسة وسلطة الانكسار ، إذ يستحيل الانكسار عنفاً ، وسلطة الهزيمة المترعة جمعياً .

تنتهي حوّا من حصر محتويات الكيس الثقيل . تقول لها لُجين مزهوّةً إنها سبقت إخوتها إلى الكيس . تبتسم حوّا ، وهي تفتح جزدانها ، لتناولها بريزتين . تمسح الصغيرة يدها من دبق التفاح ببلوزتها الصوفية الموبّرة ، تعاين اللمعان العزيز للبريزتين ، ثم تضعهما في جيبها الآخر .

تقع حوّا في قاع الكيس على قطعة قماش صغيرة ؛ فَضْلَة لا تزيد على ربع متر ، من الساتان الأبيض الحليبي مطرَّز بخرزات مائية منمنمة . تقلب حوّا فَضْلة القماش بين يديها . تحني لُجين نظراتها ، علامةً على الرجاء ، وهي تطلب من حوّا أن تخيط فستان عُرس لدميتها . إذ تُزهر الصورة في رأسها ،

وتُضاء النشوة في عينيها ، تجمع الصغيرة المتحمِّسة ، المستدفئة ، خصرها بين يديها وهي تصف تصميم الفستان ؛ تريده بخصر ساحل ضيق ، وبتنّورة نافشة ، بطبقات وطبقات وطبقات من «النفّاش» تحته ؛ «هاااااالْقَدْ!» ترسم الصغيرة بكفيها شكلاً دائرياً مستفيضاً ، فيما تبدو عيناها كأنهما معلّقتان في سحابة نقية البياض . بعد كل تلك السنوات ، لا تزال حوّا تعيش متعةً من نوع خاص في خياطة فساتين الدمى . وكثيراً ما تجد في الخيالات اللدنات الجامحات للطفلات ، اللاتي يرسمن بأيديهن في الهواء صوراً للفساتين المشتهاة ، تعويضاً عن تصحُّر خيالات النسوة وانكفاء رغباتهن .

تُنزل حوّا لجُين من سحابتها العالية إلى أرض الغرفة ، وتسألها بجدّية مختلَقة : «طيِّبْ وين النفّاش؟!» تتبدّد الصورة المثالية في رأس الصغيرة ، قبل أن تقول مستسلمةً : «خلص . . مُشْ لازم نفّاش» . لكن حوّا تطمئنها ضاحكة : «بيِنْفَعِشْ فسطان عرس من غير نفّاش . أنا عندي نفّاش!» تؤطِّر الابتسامة ، التي لم يشوِّهها غياب بعض أسنانها ، وجه لجُين . «ورَحْ أخيِّطلها طرْحة كمان» . تجمع لجُين إليها جسمها المشوق ، تريد أن تنطّ من الفرح ، لكنها كأنها تخشى أنها لا تصدق . تسأل حوّا برجاء الحصول على «نعم» يقينية ، ومؤكِّدة :

- عن جدّ؟

- عن جدّ .

- طرحة ، طرحة؟!

- طرحة ، طرحة!

- وطويلة؟

- وطويلة .

- قدّيشْ طويلة؟

- قد ما بدّك .

- هااااااالْقَد!

تذهب عينا لجُين إلى جاط الفواكه ، ثم تسأل حوّا :

- معْلِش أوكِل أُخرى تفاحة؟

تمرِّر حوّا يدها الدافئة فوق فَضْلة الساتان الحليبي ، بالخرز المُنمنم يناغش أصابعها . تخمش لجُين وجنة تفاحة أخرى ، فتعبق رائحة اللبّ المسكَّر ، مشدود البشرة ، في الجو .

من الشباك ، تتسلّل عتمة نهاية النهار ، ترخي غلالتَها الرمادية الراعشة على فَضْلة الساتان ، فتنطفئ الخرزات المائية القزحية .

(٧)

تُلقم حوّا والدتها تفّاحة مهروسة . تستبطئ رابعة عمليّة المضغ ، ليظلّ اللبّ المجروش فترةً أطول في فمها . «زاكي يمّه؟» ، تسألها حوّا ، وهي تراقب وجهها يرتدي رخاوةً أكبر . تدير رابعة رأسها ناحيتها . تهمهم ، فيما تنزّ عيناها بريقاً خاطفاً . تسقيها حوّا بعض الماء ، وتمسح ما يسيل منه على ذقنها ورقبتها . تضبط وضعيّتها ، شبه الممدَّدة ، على السرير ، رافعةً رأسها على وسادتين . «أفتحْلِكْ التلفزيون يمّه؟» تُقلِّب حوّا بين القنوات ، ضمن خيار محدَّد يضمّ قائمةً بالقنوات التي تعرض المسلسلات العربية والتركية . حين تمرّ على مشهد للسلطانة هويام في مسلسل «حريم السلطان» مستلقيةً على سرير ضخم وسط بهرجة لونية ، تهمهم رابعة ، فتتوقّف حوّا عند المشهد قائلةً : «هاي مِنْعادة يمّه! شُفْناها امبارح» . تواصل رابعة همهمتها ، فتجيبها حوّا : «طيِّب ، زيْ ما بِدّك» . بعينيها الخضراوين ، اللتين تفحّان رغبةً ، وشعرها الناري المتّقد ، الذي يبرِْز وجهها ذا الأبهة السلطانية والجمال الفخم ، يحتلّ وجه هويام الشاشة العريضة . تخاطب السلطانة رابعة ، فتنصاع لها رابعة دون جدال .

انطرحت رابعة على الفراش بعد نحو عام من موت

لطفي ، كــانت خــلاله تبكي كل الوقت ؛ تبكي في طلوع الصباح وفي استشراء النهار وفي امتداد الليل . بل إن أسما أكدت لحوّا أن دموع رابعة تنزل وهي نائمة . أكلّ هذا الحزن على لطفي؟ تساءلت أسما كما حوّا . لا تذكر حوّا أن والدتها تعلّقت بأيٍّ من أبنائها ؛ كانوا كأنهم فُرضوا عليها ، كفرْض الحياة نفسها عليها . والمؤكد أن الحبّ ، حبّ الرجل وحبّ الابن والابنة وحبّ العيش وحبّ الشيء ، أي شيء ، لذاته ، عاطفة غير مدرَكة لدى رابعة .

يقيناً أن لطفي لم يكن استثناءً في حالة اللاحبّ هذه . ومع أنه كان يعطي رابعة الفلوس ، في صباه وفي شبابه ثم في شيبته التي لم تطُل ؛ في يُسره القليل ثم في يُسره الكثير ، فإن الأكيد أن الفلوس التي كان يضعها في يدها أو في يد عايد أو حتى في يد نظمي ، يوم رعت حوّا نايفة ، لم تكن دليل حبّ ، ولا حتى عطْف ، ولا استجداء للرضا . كان لطفي يشتري بالفلوس بُعده عنهم . وحين كان عايد وقيس يذهبان إليه منحنييْن ، مطأطئَي الكرامة ، واطيَي النفس ، خفيضي البصر ادعاءً للمذلّة ، لم يكن لطفي يجادلهما أو يسعى إلى أن يفهم منهما تفاصيل كثيرة ، كما لم يكن يطيل الحديث معهما . بل كان يستعجلهما كي يطلبا ما جاءا لأجله ويغادرا . كان يستطيع أي أحد أن يأخذ منه أي شيء ، شريطة أن يمضي . بذلك ، عاش لطفي حراً ، محلحَل الروابط ؛ أو هكذا خال .

لماذا لم يمُت من قبل؟ تساءلت رابعة . فبُهتت حوّا ، حين

كانت تزور والدتها في شهور البكاء الطويلة، فسألتها غير مصدِّقة:

- لطفي؟ معقول يمّه؟

لكن رابعة أدارت عينيها الطافيتين في دموعها بعيداً عنها قائلة:

- موسى!

أخذت نايفة رابعة لابنها لأن أباها كان الوحيد في مخيم الفارعة بنابلس الذي قبل بموسى. كانت رابعة الوسطى بين سبع بنات، كلّهن لم يتزوجن. طمعت نايفة في رؤية شقيقاتها الأخريات. لكن والد رابعة قال لها: «هاظ الموجود عندي لابنك». في الخامسة عشرة، لم تكن رابعة جميلة. لكنها كانت ناهضة، أو هكذا بدت، بثدييها المضغوطيْن تحت فستانها، الجاهزين للإرضاع، وبلحمها المتكدِّس أعلى ذراعيها البيضاوين اللتين كُشفتا لها مع أجزاء أخرى ذات دلالة من جسدها خصيصاً كي تعاينها نايفة. كانت تفوح بعرق المرأة، لكن في عينيها كمنت تلك النظرات الساهمة، اللاهية، الغافلة، لطفلة. على الأقل كانت رابعة شيئاً يستطيع موسى أن «يعبث» فيه، دون أن يحدث ضرراً؛ فكّرت نايفة. ثم إن الزواج كفيل بأن يلمّه من الأزقة الحرجة كما ينزله عن أسطح البيوت.

يوم تفقّدتها نايفة بعد شهر من زواجهما، سألتها عما إذا «حوّشت» شيئاً في بطنها. قالت لها رابعة، دون أسى، إن

موسى لم يقربها ، وأنه في الأوقات التي يكون فيها في البيت يقضي معظم وقته على السطح . كان موسى نائماً حين جلست نايفة فوقه وغرزت أسنانها في خدّه المفلطح . حاول موسى أن يتحرر من نايفة ، وقد غاصت صرخاته في جوفه ، لكنه تكلبش تحت جسدها الثقيل ، ولم تنهض عنه إلا حين تفجّر الدم من وجهه ، ملوِّثاً أسنانها . نزل موسى أخيراً عن السطح ، وبعد ثلاثة شهور حبلت رابعة بلطفي .

لم تحبّ رابعة خِلْفتها ؛ وحين كانوا يفدون إلى الحياة ، بأجساد هلامية وأرواح غير ملوّثة بعد ، كانت تراقبهم يكبرون ، من بعيد لبعيد . لم تتوقف كثيراً أمام احتياجاتهم ؛ لم تسألهم عن سبب ضحكهم الشحيح ؛ كما لم تتوقف عند دمعهم الذي هطل غزيراً ، مريراً . لم تؤرِّخ للحمهم ، الذي شطّ واشتطّ في زوايا البيت الضيق ؛ لم ترصد الكلمات الأولى التي درجت على ألسنتهم ؛ لم تهبّ لتأخذ بأيديهم حين خطوا أول مرة ، وحين وقعوا في خطوهم الجديد لم تمدّ يدها لهم ليقفوا ويخطوا ثانية ؛ لم تطفئ الحمّى المشتعلة في أبدانهم الصغيرة في ليالي الشتاء القارصة ، بل إنها لم تلاحظها في الأساس ؛ لم تفزع لعطشهم ولم تهرع لتسد جوعهم ؛ لم تأسَ كثيراً لضمور أرواحهم ؛ لم تحزن كثيراً لانحطاطهم ؛ لم تعش لنفسها وفي الوقت نفسه لم تعش لهم .

حين تدفّقت نسوة المخيم إلى بيتها يعزينها بفقد ضحى ، سألنها عما حدث ، فالتفتت إلى عفاف وساجدة وحوّا ، اللاتي

ذابت عيونهن من البكاء ، كي يشرحن للمعزيات كيف ماتت شقيقتهن الصغرى . ثم حين سألتها النسوة عن عمر صغيرتها ، نظرت رابعة إلى حوّا ، فأكدت لها ولهن أن ضحى كانت تبلغ من العمر ست سنوات وعشرة شهور وتسعة عشر يوماً ؛ فهزّت رابعة رأسها كأنها تسمع عن بنت مسكينة لا تعرفها ، ماتت صغيرة ؛ صغيرة جداً . لكن رابعة أحبّت الحبَل ، وتمنّت لو أنّ بطنها ظلّ منفوخاً ، يحمل طفلاً لا تلده ، أو ورماً ، طيلة العمر . كان موسى يقرف منها أثناء حملها ؛ فلم يكن يقربها . وهي كانت تقرف من نفسها بين خواء في البطن وآخر . وفي الفترات التي كان فيها بطنها خالياً ، كان موسى يرتمي فوقها كتلةً إسمنتيةً لزجةً ، باردةً ؛ فتغمض عينيها وتوصد مناطق الإحساس في جسدها ، حتى إذا نهض عنها ، وقد تكثّفت أنفاسه الحامضة فوق لحمها ، استفرغت .

لم تبكِ رابعة عندما مات موسى . لم تشهق بالعبرات المحبوسات في روحها . ظنت نسوة المخيم أن جفاف عينيها له علاقة بالصدمة المؤلمة . قالوا إنها سوف تبكي بعد حين ، حين ينفضّ الناس من حولها . لكن رابعة تأخرت كثيراً قبل أن تنفرط عيناها اللتان طويتا قهراً مُجَلْجِلاً فتذرفا دمعاً سيّالاً على الموت الذي تأخّر كثيراً .

كانت حياة رابعة قد أصابها قحطٌ عظيمٌ مع موسى ، حتى إنها لم ترسم لنفسها أي احتمالات أخرى لحياة ممكنة في خيالها . ثم حين رحل ، ضرب حياتها فيضان من المشاعر

الحزينة، الكئيبة، المقيتة، جرف روحها، أو ما بقي منها. لسنوات بعد وفاته، كانت تمشي بجسد زائغ في البيت؛ تميل في سيرها؛ تشعر بأنها دائخة؛ يغشى الغبش بصرها وسمعها؛ وتوشك على السقوط، فلا تجد شيئاً تستطيع أن تستند إليه. ثم صارت في السنوات الخمس الأخيرة تمرّ برجفات موجزة، أو هبّات برْد، بعضها خفيف أقرب إلى تماس كهربائي عابر، تسبِّب خدراً في ذراعها أو تنميلاً في ساقها؛ وأخرى قوية، تجمِّدها في مكانها، تحاول معها أن ترفع رِجلها، لكن قدمها تستحيلُ جذع شجرة ثقيلاً، لا يمكن زحزحته. ثم في صباح عادي، اختلط فيه صوت الغسالة الدائرة، ذات الحوضين، مع صوت الماء المتدفِّق من حنفية المغسلة فوق طشت فيه بندورة، وقفت رابعة في المطبخ تحمل كأس ماء. كانت أسما تغسل حبّات البندورة تشكو لها، كالمعهود، عايد؛ «كل يوم مشكلة مع السيارة، وكل يوم مخالفة، وكل يوم بيِطْفَح قنينة عرق، ويا دوب يكفيه كيلو لحمة لحالو في اليوم، والسيجارة بتِنْطفيش في إِيده، ولما بطلب منّو فلوس للبيت، بِقولّي من وين أجيبلك!» مضيفةً، «وكأنو مكانش مكفينا عايد إِجانا قيس أُخرى!» كانت أسما تفرك بقايا طين عالق بجلدة البندورة القاسية، حين علَّقت: «جيزة الندامة!» اشتبكت كلمات أسما الحانقة مع صوت الماء النازل من الحنفية وصوت الغسالة. ثم ناص صوتها، فيما علا صوت محرك الغسالة، ليستحيل كالهدير المجنون في أذن رابعة. تحول وجه أسما إلى كتلة

هلامية كبيرة ، تتحرك في الهواء بلزوجة . حاولت رابعة أن تمدّ يدها أمامها كي تقبض على أي شيء ، فوقع الكأس من يدها ، متهشّماً ، ثم انهارت فوق قطع الزجاج .

وكما توقّعت حوّا ، جاءتها أسما تشكو قلّة حيلتها أمام الواقع الجديد . وفي النهاية «هاي أمّك!» قالت لها . كانت الجلطة عنيفة ، قاصمة ؛ شلّت رابعة وعطّلت نصف حواسها . بعد ثلاث سنوات من رحيل نايفة ، كانت حوّا لا تزال تحتفظ بسريرها الطبي . وحين مدّدت رابعة فيه ، صارت تنتظر موتاً قد يهلّ قريباً .

ترفع حوّا صوت التلفزيون ، فتملأ الكلمات والمشاعر المدبلَجة فضاء الغرفة ذات الهواء المتجلّد . تفرك أعلى ذارعيها . «بردانة يمّه؟» ، تسأل رابعة ؛ لكن حواس رابعة ، أو ما تعمل منها ، تظلّ ملتصقةً بالشاشة فائضة الألوان . تنحني حوّا فوق الصوبة لتشعل عيناً ثانية ، فتحجب بجسدها ، المديد حتى في انحناءته ، جانباً من الشاشة . تُميل رابعة رأسها ، محاولةً أن تتبع ببصرها الصورةَ المتواريةَ خلف حوّا . تتداخل همهمتها مع محاولات حوّا المتكرِّرة قدح شرارة العين الثانية . «حاضر يمّه ، حاضر» ، تبتعد حوّا عن مرمى بصرها بعد احمرار اللهب في العين الثانية . تبدو رابعة راضيةً ، مرتاحةً ، شبعانةً ، مُكنكنةً ، مغمورةً بالنظافة وببودرة بيبي جونسون التي تعفّرت بها جعدات اللحم المطويّة في رقبتها ؛ عيناها تلهجان بالعاطفة الدافقة من التلفزيون . تنسحب حوّا من الغرفة ، تاركةً لرابعة

العشقَ في حجرات القصر المغلقة ونار الصوبة ، تلحقها الأصوات الشامية المركَّبة فوق الأصل من شقٍّ الباب الموارب .

يسقط الغروب من الشباك ، فتُسفح القتامةُ على حوائط غرفة المعيشة . تعاين حوّا السماء الجافة تماماً ، من أي أثر لماء محتمل ، ثم تسدل ستارة النافذة بقلق ، وببعض هلع خفي . تشعل إضاءة النيون في الغرفة . تنظر حواليها . ثلاثة أكياس فاغرة على طاولة القصّ تنتظرها . تعاين الكتابة ، بخطّ يدها البدائي ، على الأوراق المثبتة على أطراف الأقمشة المطوية داخلها . تحمل الأكياس ثم ترجعها مكانها . أشياء كثيرة يجب أن تقوم بها . تفتح أحد أدراجِ الطاولة ، ثم تغلقه . تحاول أن تصوغ فكرةً واحدة ، واضحةً في رأسها ، لكنها تعجز عن استدرار ملمح فكرة . لا تستطيع أن تفعل شيئاً . الليل يهبط في قلبها قبل أن يهبط في الطرقات ؛ تتبعها أقدام غامضة ، تدوس على ظلال قلبها ، فتتوجّس .

تحمل حوّا كيس مخملها وتضمّه إلى صدرها . تتنشّق ثراء بنفسجه الغامق ، العميق ؛ فيما تُدغدغ نشنشته ، الأقرب إلى الحسيس المشحون بالتوْق ، سمعها ؛ فتطمئنّ إلى حين . لا تستطيع أن تقاوم الشوق الذي يهجس به طقم إليسا في الكيس الآخر . تتمنّع قليلاً قبل أن تفتح علبة المجوهرات ، كأنها لا تريد أن تكافئ شوقها بسرعة . وحين تفتحها أخيراً ، يدفق اللمعان الأصفر الحيي في عينيها . يعانق قلبها بريق الذهب الذي لا يبدو رخيصاً . ثم تغلق العلبة بسرعة كي لا يتبدد

البريق . تفتح الخزانة ، الخاصة بأشغال الخياطة ؛ تستل مفتاحاً صغيراً من عبّها ، تفتح به درجاً من بين ثلاثة أدراج داخلية . في الدرج ، يقبع صندوق خشبي صغير فيه رزمة فلوس هزيلة ، وسنسال ذهبي قصير ، ينتهي بقلب محفور أهداه لها منير . تلتفت حولها ، كأنها تريد التأكد من عدم وجود عيون خفية أو خيال ما يترصّدها في الغرفة ؛ تطبع على صفحة القلب قبلة خاطفة ، خجلى ، ثم تودعه في الصندوق ثانية . تتناثر في الدرج ، إلى جانب الصندوق ، أوراق وفواتير تزيحها حوّا جانباً ، مفسحة مكاناً كافياً لعلبة طقم إليسا . تمسح ظهر العلبة ، وتهمُّ بأن تغلق الدرج ، حين تقودها يدها ، كما في كل مرة تفتح فيها الدرج ، إلى الوجه الخبيء .

من تحت القماشة التي تبطِّن أرضيّة الدرج ، تسحب حوّا الصورة بحذر . هي لشاب في أواخر العشرينات أو أوائل الثلاثينات . العينان الداكنتان في الوجه يانع الأمنيات ، الذي تنبض ملامحه بثراء الأبيض والأسود تطالعانها ، كما في كل مرّة ، دون حياديّة ؛ أحياناً تعاتبانها ، وأحياناً تحاولان أن تشاركاها سراً بعيداً ، وفي أحيان تراوغانها ؛ ثم حين تسبح حوّا عميقاً في العينين ، تستطيع أن تلمح لمعةً مختزنة . الشفتان المسطَّحتان تندّان عن نصف ابتسامة ، ونصف بوْح ، ونصف امتلاء ، ونصف فرح ، ونصف حياة ممكنة . يبدو أقرب إلى طفل سائر إلى الرجولة ، أو رجل عالق بطفولته . من جهة ، يمكن أن يكون فتى مأخوذاً باللهو حتى أبد الآبدين . ومن جهة

أخرى ، يمكن جداً أن يكون عاشقاً ممسوساً . وسط مشاعر كثيرة مختلطة ، غائمة في الصورة ، يبدو الوجه المائل ، التائق إلى الأفق ، المتكئ على يد مضمومة ، غافلاً عن الأيام الآتيات .

وقطعاً ، بأيّ شكلٍ من الأشكال ، لم تشِ الصورة ، التي بدا صاحبها مطمئناً نوعاً ما ، بفقْد ؛ فَقْد عظيم .

***

بعد زواجها ، عملت حوّا لدى ست قمر نحو أربع سنوات ، تقطع يومياً الطريق إياها من بيتها في المخيم إلى بيت ست قمر . اقتضى طقسُ الطريق المشيَ حارتين ترابيتين قبل الوصول إلى بيت أهلها في صباحات البول الكثيرة ، ثم ثلاث حارات أخرى ، قبل الوصول إلى موقف الحافلات في مدخل سوق المخيم ، تنوء في الأثناء بوجود نظمي العالق بها حتى حين تغتسل في الصباح لتطرح - بكثير قرف - أثرَه عليها ، وعفونةً منزليةً مستقرّةً في حواشيها تنفضها في سيرها . كانت تحمل معها بطنها ، الذي ثقل مرتين ، مرة بحبلها في آية ومرة بحبلها في قيس ، وفيما بين الثقلين ثقل آية الرضيع إذ كانت تحملها وهي تقطع الأزقة المترَبة صيفاً والمطيّنة شتاءً .

في العامين الأولين استعادت حوّا الحياة الجميلة في بيت ست قمر ، التي خشيت أن تفقدها بعد زواجها . لم تحاول أن تعبث بترتيب الحياة ؛ فكانت في البدء تهوّي البيت من رائحة

السجائر البائتة ، كما كانت تفعل منذ الأزل ، ثم تعدّ قهوة ست قمر ، تقدمها لها في الصينية ذاتها وفي الفنجان ذاته مع حبة شوكولاتة ، قبل أن تجهّز الفطور ؛ فتجلسان قبالة بعضهما إلى طاولة المطبخ الصغيرة امرأتين جائعتيْن ، نهمتيْن ، تثيرهما رائحة الخبز والجبنة المغلية والأومليت وأقراص الفلافل الساخنة . ثم كانت حوّا تنظّف البيت ، وفق جدول تنظيف أسبوعي ، تتناوب فيه بين الغرف ، مع ترتيب وتكنيس غرفة الخياطة يومياً ، وتنظيف الماكينة ، وحصْر الشغل ، حسب الأولوية ، وتنظيم استقبال الزبونات ، وتحديد مواعيد التسليم ، وأخذ المقاسات ومتابعة البروفات ، والقيام بأعمال الخياطة الأساسية ، من سراجة ولقْط ، وتشريم حواف القطع المخيطة ، أو حبْك الحواشي والأطراف ، وفَزْلَنَة الياقات وأساور الأكمام ، وفتح العراوي وتركيب الأزرار والسحابات ، وكيّ الفساتين والتايورات قبل تسليمها .

لم يتراجع نشاط حوّا وهي حبلى ، حتى حين بلغ بطنها أنفها . ثم حين ولدت آية ، نهضت من سرير النفاس بعد أسبوعين . كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تبتعد عن ست قمر ، أو لا تريد . «ست قمر بْتِستَغْنيشْ عني!» قالت لنظمي ؛ حاملةً رضيعتها معها ، موزعةً جسدها ، الذي اكتسب بعد الزواج والولادة طراوةً ولدونةً أكبر ، بين تنظيف البيت وأعمال الخياطة ورعاية آية . وحين مشت آية ، حرصت حوّا على أن تبعد يدها الفضولية عن التحف الزجاجية الكثيرة ، الثمينة ،

موصدةً دونها أبواب الغرف التي يحظر دخولها . سمحت ست قمر لحوّا بأن تُنيم آية في غرفة النوم المفردة . وكثيراً ما كانت حوّا تلمح ست قمر تجلس على طرف السرير ، تعاين وجه آية بتعابيره الحيادية المغمضة ، فتتخيّل حوّا أن آية كان يمكن جداً أن تكون أتت من بطن ست قمر ، كما أتت هي ، حوّا ، في حلم ما واشتهاء ما من بطن ست قمر .

لم تبدُ ست قمر منزعجةً من الفوضى التي كانت آية تحدثها في البيت ؛ حتى حين غافلت أمّها ذات صباح ولحقت بها إلى الصالون ، لترتطم بمزهرية تقف على طرابيزة وتوقعها أرضاً ، محدثاً تحطّمها صوتاً قريباً من الانفجار . بكت حوّا ، وطلبت من ست قمر أن تخصم ثمن المزهرية من أجرتها . لكن ست قمر التي كانت تدخن سيجارتها الصباحية الثالثة على الريق ، هزّت رأسها بلا مبالاة ، قائلةً دون أن تنزاح عيناها عن ملاحقة لا شيء من النافذة منذ ساعة وأكثر : «عادي . . هاد مش أول شي انكسر» .

اكتشفت حوّا بعد شهور قليلة أنها لم تحتج إلى أن تتعلّم أشياء جديدة . لكنها أخفت ذلك عن نظمي ، حريصةً على أن تظلّ حياتها الجميلة مع ست قمر أزليّة ، حتى وإن بدأ يتنامى في قلبها جزعٌ لم تعرف كنهه آنذاك . من ناحيته ، لم يكن نظمي مهتماً بمتابعة تطور مهارات حوّا في الخياطة ، ما دامت ترجع إلى البيت قبل المغرب ، فتطهو له بعد عودته من الملحمة ، وتحضّر له الشاي وتسالي السهرة التي تجمعه

بـ«الهَمَل» على شاكلته ، كما كانت حوّا تعتبرهم ، وما دامت تناوله آخر الأسبوع خمسة عشر ديناراً ، مُخفِيةً عنه عشرة دنانير أخرى من أجرتها الأسبوعية من ست قمر ، وما دامت ماكينتها تدور ، فيما تسمح به بقية يومها ، على أشغال خياطة بدائية لنسوة المخيم ، فكان صوت الماكينة في غرفة نومها يتداخل مع أصوات رجالات السهرة في الغرفة الأخرى ، الذين لم تكن أحناكهم تهدأ عن الطقّ والجرْش والطحْن .

صارت ست قمر تنام متأخّراً وتفيق متأخّراً . وحين كانت حوّا تفتح باب البيت في الصباح ، تستقبلها سحبٌ من دخان السجائر البائت ، مهيأة للانقضاض عليها ، فتنقبض نفسها للسواد الذي يصبغ هواء الصالة المخنوق . حتى حين كانت حوّا ترفع الستائر وتفتح الشبابيك لتغتسل الغرفة بالهواء الخارجي ، فإن السواد لم يكن يتبدد بسرعة ؛ كما ركدت رائحة الدخان في البيت ، معشعشةً في الحوائط ، رابضةً على الكنب ، ناخرةً حتى الخشب . استفحلت مساحة ذرور الرماد ، التي كانت حوّا تجمعها من على كنب الموريس والطرابيزة ، مع فيضان المنفضة بأعقاب السجائر . إلى جانب سجائر الليل الطويل ، صارت ست قمر تدخن نصف باكيت سجائر على الريق ، وتشرب ثلاثة فناجين قهوة . وعند الفطور ، صارت تكتفي بالتدخين ، تراقب حوّا تأكل بنهم . ثم لم تعُد ست قمر تجلس إلى طاولة المطبخ ، فتوقّفت حوّا عن تحضير الفطور .

«أعمِلّكْ سندويشة؟» تسألها حوّا مشفقةً عليها ، لكن

ست قمر تسحب نفساً طويلاً من سيجارتها ، دون أن تردّ على حوّا ؛ عينها تتبع من النافذة ظلاً يظهر في الطريق ، فتمدّ رقبتها متوقةً ، قبل أن ترجع نظراتها إليها خائبة . في بعض النهارات ، ترافق فيروز صفنات ست قمر وسهومها في «ورقو الأصفر شهر أيلول» ، التي تظل المسجّلة تلوك الورق الأصفر الكئيب مرات ومرات . وحين يرتفع صوت فيروز ، في نغمة شجية تبلغ مشارف الحسرة ، في «رِجعْ أيلول وإنت بْعيدْ بغَيْمِي حَزيني قَمَرْها وحيدْ ، بيصيرْ يِبكّيني شِتي أيلول ويفيِّقْني عَلِيكْ يا حبيبي» ، تنفرط سبحةُ الدمع من عيني ست قمر مرة واحدة . تقف حوّا حائرة ، لا تعرف كيف تجمع حبات الدموع المفروطة .

توقفت حوّا عن تخصيص وقت كافٍ لتنظيف بيت ست قمر بعد تراكم أشغال الخياطة ، وبعدما وجدت نفسها مضطرةً للجلوس معظم اليوم خلف الماكينة لتحلَّ رِجلها محل رِجل ست قمر . في الظروف العادية ، كانت حوّا تفرز الأقمشة ، حسب الموديل وموعد التسليم ، لتقوم ست قمر بالتصميم والقصّ ، قبل تجميع أجزاء الموديل بالدرزة ، تمهيداً للبروفة الأولى . وغالباً ما كانت البروفة شكليّة ؛ فست قمر كانت تُصيب المقاس والتصوُّر ، أيا كانت القَصَّة شائكة ومعقَّدة ، من المرة الأولى ، لتنتهي من البروفة الأخيرة وما يستتبعها من تشطيبات نهائية بسلاسة . وفيما بين البروفة الأولى والأخيرة ، كانت حوّا تتولّى معظم التفاصيل الصغيرة ، المهمّة بالقدر ذاته ، تحت عين ست قمر الخبيرة وتوجيهاتها الدقيقة .

ثم انكمش الوقت الطويل من النهـار ، المفعـم بالخلْق والتشكيل والابتكارات ، الذي تقضيه ست قمر في غرفة الخياطة ؛ فصارت تجثم على الكنبة في الصالة ، ملتصقةً بالنافذة بالساعتين والثلاث ، وجهها الساهم غاطس في سحابة رصاصية من الدخان ؛ عيناها تجوبان الفصول المتعاقبة على الطرقات ، تعاينان الوجوه الراكضة والمشاعر المطويّة . وحين كانت زبوناتها يأتينها حاملات صور تصاميمهن أو تصوُّراتهن في رؤوسهن ، لم تعد تحاول النفاذ إلى خيالاتهن ، أو تضبطها لهن ، أو تناقشهن فيما يمكن ولا يمكن ، فيما يجوز ولا يجوز ؛ باتت تكتفي بوصفهن الغائم وشروحاتهن الكثيرة ، الطويلة والمضنية ، تستقبل أفكارهن بعيون موصدة بزجاج سميك ، وفكرٍ شارد ، وقلبٍ سرحان ؛ حتى إذا جاء موعد البروفة ، صُدمت النسوة من النتيجة التي آلت إليها خيالاتهن .

أصبحت حوّا أكثر تدخّلاً في المهام الكبرى ، متوليةً القصّ الدقيق عن ست قمر التي لم تعد يداها الماهرتان ، الحصيفتان ، الفنيّتان ، المتطلِّبتان ، الحذقتان ، هما نفسهما اليدان الثمينتان اللتان جلبتا لها الحظوة عند نسوة صويلح وعمّان ونواح بعيدة . ثم في أوقات كثيرة ، كانت ست قمر تُفلت ما في يدها فجأة وتذهب إلى غرفتها ، ترمي نفسها على السرير ، موغلةً في العياط ، حتى إذا تعبت أخيراً ، نامت مهدودة . أحياناً ، كانت تتمدّد على السرير المفرد في الغرفة الأخرى ، إلى جوار آية ،

تتطلع في العينين الصغيرتين المسدلتيْن ، تشملهما بأنفاسها الحارة . وكثيراً ما وقعت عينا حوّا القلقتان عليها تحضن البرواز الذي يحتوي صورة الطفلة الذهبية الضاحكة ، وتظل قابضةً عليه حتى حين تنام ، فيما يكتسي وجهها المغمض مسحة رعب ، كأنها تخشى أن يسحب أحدهم الصورة منها .

كانت حوّا حُبلى بقيس حين أدركت أن حياتها الجميلة مع ست قمر سائرةٌ إلى انتهاء ، ليس فقط لأن معظم زبوناتها انصرفن عنها حين اكتشفن أن «صبيّتها» ، حوّا ، تقوم بما يجب أن تقوم به هي ، وإنما لأن ست قمر نفسها انصرفت عن نفسها . كانت تصفُن مليّاً ، تبلع حبوباً كثيرة ، تسهر طويلاً ، وتنام طويلاً . . طويلاً . وفي ساعات الإفاقة ، كان بصرها الذي ينحت طريقه خارج كيانها بصعوبة من داخل عينيها المجوّفتين الداكنتين يجوب الطرقات من النافذة ، تفتِّش عن شيء أو وجه أو شبح أو ظل بشري تعرفه ، فيما تقرأ لها حوّا صفحة الوفيات في الجريدة كل يوم . كانت تقرأها اسماً اسماً ، بصبر . وكثيراً ما طلبت منها ست قمر أن تقرأ اسم المرحوم أو المرحومة ثانية ، رافعةً عينها إلى سماء الصالة ، الملبَّدة بضباب الدخان ، متأمِّلةً صلةً ما أو دلالة ينطوي الاسم عليها ، قبل أن تقول لها دون أن يبدو عليها تأثُّر شديد : «كَمْلي!» .

في مرّة ، قرأت حوّا لها اسماً لا يختلف كثيراً عن كل الأسماء الأخرى في الصفحة التي تجاور فيها الأموات ، بازدحام متفاوت بين يوم وآخر ، حين توقفت ست قمر عند

اسم مطوّلاً ، أطول من أي مـرّة . طلبت من حـوّا أن تقـرأ لهـا الاسم ، مـرّة ، ومـرّة ، ومـرّة ، ومـرّة أيضـاً ؛ وفي كل مـرة ، كـانت حوا تدقّق في الاسم الثلاثي الذي يشبه أسماء كثيرة كتبت بحروف كبيرة داكنة ، معلنةً قطيعتها مع الحياة ، في الصفحات التي تجاورت فيها «يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضيةً مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» مع «من آمن بي ولو مات فسيحيا» . في المرة الأولى قرأت حوّا الاسم مع اللقب بسرعة ، وفي المرة الثانية قرأت الاسم بسرعةٍ أقل وببعض حذر ، خشية أن يكون قد أفلت من لسانها حرفٌ أو وقع جزءٌ منه بطريق الخطأ ، ثم في المرّات الكثيرة التي تلت ذلك قرأت الاسم ببطء ، وبتفصيل كبير في رسم الحروف ، على نحو غلب عليه شكّ : الحاج زيد فيصل العزام ؛ زيد فيصل العزّام ؛ زيد . . فيصل . . العزّام ؛ زيد . . . فيصل . . . العزّام ؛ زيد . . . . . فيصل . . . . . العزّام . فإذ بدا أن الاسم هو الاسم ، ثم إذ تكشّف قطعاً أن الاسم لا يمكن أن يكون إلا الاسم ، اغتسل وجه ست قمر بالدمع قبل أن تقول لحوّا : «كَمْلي!» .

ثم جاءت أيامٌ وليالٍ لم تتوقّف فيها ست قمر عن البكاء ، عيناها تسكبان جداولَ من الماء الصامت دون انقطاع ، ليظلّ وجهها في بلله الدائم كأنه موشكٌ على الذوبان التام . في آخر شتوية لها في بيت ست قمر ، دخلت حوّا غرفة نومها في عصرية استفحلت فيها كآبة النهار ، تحمل لها كوب شاي

وسندويشة جبنة ، عندما وجدتها تجلس على مقعد التسريحة ، حافيةً ، ترتدي فستاناً أسود ، انحسر أعلى ركبتيها بقليل . كان من المخمل ؛ سواده تحت إنارة الغرفة الشحيحة تحلَّل إلى ظلال تراوحت بين الأسود الدخاني ، والأسود جداً والأكثر اسوداداً . كانت تلك أول مرة ترى فيها حوّا ست قمر بالفستان . كان سحاب الفستان مرخياً ، فكشف عن ظهرها سخيّ البياض ، قطعه من الوسط إطار السوتيان الأسود . بدا الفستان القصير ، بتصميمه البسيط ، منتمياً لزمن عتيق ، ومع ذلك لم يبدُ عتيقاً . كان بلا أكمام ، وذا ياقة مقوّرة باتساع ما سمح بكشف مساحة بضّة من لحم صدرها المبرقش بالزهري المحمر في بعض أجزائه . بطنها ، الذي انفلش وتدوَّر في السنوات الأخيرة في قوام تفاحي مترهّل تكرمش بين طيّات الفستان . فردت ست قمر كفّها فوق صدرها ، متأمِّلةً في المرآة ، غير المحايدة ، عينيها المكلَّلتين بالسواد وجبينها المنحسر ، ووجنتيها اللتين تبقّعتا بالنمش الداكن الشائخ ، وشَعرها الذي أصابه هُزال وبهتان شديدان ، مخاطبةً حوّا دون أن تنظر إليها : «أنا كْبِرتْ يا حوّا ، كْبِرتْ» . من وسط سيول الدموع التي فاضت على وجهها ، استدارت بظهرها المكشوف نحو المرآة ، مدلِّلة على مأساتها : «حتى الفستان ما عاد يدخل فيِّي» ، ثم نشجت من وسط كلمة «كْبِرتْ» التي ظلت تردّدها : أنا كْبِرتْ . . كْبِرتْ . . كْبِرتْ . وضعت حوّا كوب الشاي والسندويشة على الكومودينو وركضت نحوها ، تحضنها بين ذراعيها . في تلك اللحظة ، التي

طغت فيها أحاسيس شتى، خشيت حوّا أن تفقد قمر، قمرها. قبّلتها من رأسها مرّات ومرّات. باست رموش عينيها، ثم انثالت على خدّيها وكل وجهها لثماً، لتختلط دموعها بدموع ست قمر. «لسّاتك قمر يا ست قمرا!» أكّدت لها حوّا وهي تحيط وجهها بكفيها. واصلت ست قمر:

- الفسطان صِغِر عليّ، أو يِمْكِنْ أنا يلّي كْبِرتْ عليه.

ثم أدنت وجهها من حوّا، هامسةً بشيء من الخوف:

- أنا كْبِرِتْ يا حوّا، وْهُوّ تْأَخرْ.. تْأَخَّرْ عليّ كْتير.

ركعت حوّا على ركبتيها أمامها. أخذت يديها المرتجفتين بين يديها وفركتهما، قائلةً:

- رَحْ أخيِّطْلِكْ فسطان مثله وأحلى!

- مخمل؟

- أغلى مخمل.

- أسود؟

- أسود زيّ الكُحل.

- وناعم؟

- ناعم، وناعم، وناعم.. يا أحْلى قمر يا ستْ قمرا!

وعدتها حوّا بأن تلفّ محال الأقمشة في عمّان محلاً محلاً، وأن تشتري لها أجمل قطعة مخمل في الدنيا كلها. رسمت لها حوّا تفصيلة الفستان الجديد، الذي يماثل القديم، مع تحديثات وإضافات بسيطة لا تسلب الفستان الأول تاريخه. توقفت ست قمر عن البكاء بعض الوقت، وإن ظلت الدمعات

واقفات على باب العين . تخيّلت قوامها البعيد ، الذي تذكره جيداً والذي لطالما رعته جيداً ، بالفستان الجديد الذي خاطته لها حوّا . وحين أغلقت حوا أخيراً السحاب ، المركّب حديثاً ، ليعانق الفستان جسدها هندسي الاكتناز ، كابتاً فورانه الداخلي ، لاجماً أجيج شهوته ، شعرت بسعادة قصوى . في تلك اللحظة المقطوفة من شجرة الخيال الوارفة ، كانت ست قمر أسعد عاشقة في كل الأكوان . حتى إذا تبدّدت اللحظة ، اختفى الفستان الجديد ، لتجد نفسها بفستان قديم ، مخمله بهت ، سحّابه عصيّ على الإغلاق ، ضاق عليها كثيراً ، يفوح بالشوق المرحَّل والورْد الذابل والحرمان . عندئذ ، أرعدت نفسها ، فسكبت دمعاً فضفاضاً .

لم تعرف حوّا لماذا كانت دموع ست قمر تسيل غزيرةً ، كأغزر ما يمكن أن تكون عليه الدموع ؛ كما لم تعرف من ذاك الذي كانت ست قمر تنتظره ولم يظهر . ولماذا لم يظهر مادامت تتوقعه؟ لا تذكر حوّا شخصاً ما جاء ثم لم يَعُد يجيء ، أو وجهاً حضر في حياة ست قمر ثم لم يحضر لأي سبب ، أقلّه ليس أثناء حضورها هي في حياة ست قمر . لم تستطع حوّا أن تتخيّل أحداً ما كان يجب أن يأتي لكنه لم يأتِ . حتماً كان سيأتي حتى وإن تأخّر . «مين يلّي تأخّر يا ست قمر؟!» سألتها . أغمضت ست قمر عينيها في المرآة متنهّدة . ما كان لحوّا أن تعرف ؛ ما كان لها أن تعرف أشياء كثيرة ، ليس في تلك اللحظة خصوصاً ؛ فكيف يمكن لها أن تعرف أن الحبّ ،

الحبّ كلّه ، يمكن أن يُخلق في ليلة واحدة .

في ليلٍ أيلولي بعيد ، فاحم السواد ، هادئ على نحو مريب ، كانت تخرقه بين لحظة سكوت وأخرى صوت طلقة مفردة ، يتبعها سكون طويل ومقلق قبل أن تخرقه رصاصات متتابعات ، تهيّأ لقمر أنها سمعت جلبةً عند باب البيت . نظرت من النافذة ، فلم تر أحداً أو كائناً ما يتحرك . حتى الشجر ، قاوم نسائم أيلول الخريفية ، مُخرِساً تمتمة ورقه ، لامّاً أغصانه الشعثاء إلى جذوعه المنكمشة . كان شغلها قد توقّف على نحو شبه كلّي مع اندلاع أحداث أيلول . ثم مع مطاردة عناصر الجيش الأردني الفدائيين في الشوارع والمخيمات وقنصهم داخل ثقوب البلدات ، لم يعد أحد يطرق بابها . رنين هاتفها الملحاح صار متقطّعاً ، متباعداً . وفي حال خاطبها صوت قلق من بئر الهاتف العميقة ، أكدت لصاحبة الصوت أنها «بخير» و«الحمد لله» ، ثم أغلقت السماعة على صمتٍ معلّق في الخارج . من وقت لآخر ، كانت جارتها شهلا المقيمة في الشقة قبالتها تزورها ؛ تشرب وإياها القهوة ، تروي لها قصصاً مروِّعة عن قتلٍ كثيرٍ في الشوارع . وضعت قمر يدها على قلبها حين حكت لها الجارة المطّلعة عن سرّ النباح الكثير الذي يسمعونه آخر الليل . عشرات الجثث المتفسّخة للفدائيين تُركت في الطرقات لتنهشها الكلاب . كانت السيجارة تحترق في يد قمر أكثر مما كانت تحترق في صدرها اللاهث وهي تستمع لوصف الجارة البشع . وما إن ملأت صورة الدم واللحم الممزق

بصرها ، حتى أغمضت عينيها في محاولة لطرد الصور المزعجة من رأسها .

نظرت قمر من عين الباب السحرية ، فلم ترَ شيئاً . قرَّبت أذنها من الباب ، شبه متيقِّنة أنها تسمع أنفاساً . فتحت الباب ، فعصف الظلام وجهها . كانت لمبة الباب الخارجي قد احترقت قبل أيام ولم تبدلها . في تلك الأيام العصيبات ، لم يعد أحد يزورها في النهار ، إلا لماماً ، وقطعاً أُغلق الليل عليها تماماً ، فلم يبدُ تغيير اللمبة مسألة عاجلة . الإنارة الشحيحة التي انسكبت من مدخل بيتها لتشمل العتبة ومحيطها كانت كافية لفضّ جانب من الظلام . تأمّلت قمر باب شقة جارتها الموصد ؛ لا أثر للحياة كمن وراء الباب . كانت شهلا قد ذهبت لقضاء عدة أيام عند أهل زوجها في الكرك . وقفت قمر عند أعلى الدرجات التي تغلّلت بالليل والصمت المراوغ . نزلت عيناها اللتان قشعتا العتمة قاع الدرجات ، حتى بلغتا الطابق الأول ، فلم تقعا على أيّ ملمح لكائن أو شبح كائن . أرسلت بصرها إلى أعلى ، عند الدرجات المؤدية إلى الطابق الثالث والأخير في العمارة ، فبدت الظلمة الجاثمة في المكان أكثر إحكاماً . عادت إلى شقّتها ، وأغلقت الباب بالمفتاح مرتين ، تلفّ كيانها رعشة عنيفة . التصقت بالباب الخشبي ، كأنها تعبطه ، أو كأنها لا تريد له أن يُفتح ثانيةً . حين استدارت ، بوغتت بشخص ظهر أمامها من لا مكان . همّت بأن تصرخ ، فضمّها بين ذراعيه ، ووضع يده على فمها ، هامساً في أذنها :

«بترجاكي!» . ظلاً على هذه الوضعية لوقت خالته دهرياً . فردت قمر كفّيها ووضعتهما لا إرادياً فوق صدره ، كأنها تريد أن تصدّه أو تدفعه بعيداً عنها ، لكنها لم تصدّه ولم تدفعه . في الحقيقة ، لم تشأ أن تصدّه ولم تشأ أن تدفعه ، ولم تشأ أن تقاوم أو تحاول الإفلات من تطويقه لها ؛ وعدم المقاومة كان إدراكاً واعياً ولاواعياً في الوقت نفسه . كان طويلاً بما يكفي كي يسحقها ؛ تماماً كما كان طويلاً بما يكفي كي يغمرها ؛ وكان شاهقاً بما يكفي كي يظلّلها ، حدّ طمسها ، كما كان شاهقاً بما يكفي كي ينحني فوقها ، فيجمعها كلّها في داخله ، يُلملم نفْسَها كما نَفَسَها ويطويها فيه . كان هائلاً بما يكفي كي يكون مخيفاً ؛ وكان هائلاً بما يكفي كي يكون مُطمْئِناً . سقطت أنفاسه في أذنها مرتعشة ، دافئة ، فيما لامست ضربات قلبه المتسارعة حواسها المستنفِرة . حين هدأ لهاث قمر وخفّت ارتجافتها ، استسلمت له . ارتخت يده التي تكمِّم فمها قليلاً ، فبدا كأنه يحضنها .

شيء آخر شعرت به قمر ، أو في الحقيقة شيء لم تشعر به ؛ إذ لم تشعر أنه يهدِّدها ، ولم تشعر أنها تريده أن يحرِّرها منه . وفي بعض اللحظات ، التي خفّت فيها وتيرة الخوف المشترك وما شابَهُ من التباس واضطراب في الأفكار ، بدا اشتباك جسديهما معاً وهما واقفان ، خلف الباب المغلق ، في الممر ذي الإضاءة الباهتة غير مقحَم ، وغير مفروض ، وغير مغتصَب . بالنسبة لقمر تحديداً ، وفي نقطة بعيدة في القعر

المظلم من تفكيرها ، اخترقت رائحة لحمه حواسها المصمَتة اختراقاً حميداً . كانت رائحة عنيفة ، قاهرة ، غامرة ، شقيّة ؛ وكانت أيضاً رائحة حييّة ، ومُخْبِيَة . همس في أذنها قائلاً ، إنه سوف يفلتها ، لكنها يجب أن تعِده أولاً بأنها لن تصرخ . أكّد لها أنه لن يقدِم على أي فعل يؤذيها ، وسوف يشرح لها كل شيء . هزّت رأسها موافقة . حين أنزل يده عن فمها متراجعاً إلى الوراء خطوة ، أحسّت قمر بنسمة هواء باردة تلفحها ، وتمنّت في أقصى نقطة في القعر الأكثر ظلمة من تفكيرها أن يعاود الالتصاق بها ، يده على فمها ، جسده يظلّلها ، ورائحته شديدة العنف تحوطها .

مدّت قمر يدها لتشعل إنارة الصالة ، لكنه طلب منها الاكتفاء بنور الممر الشاحب . طوى صوته رجاء . طلب منها أيضاً أن تغلق ستارة نافذة الصالون ، فأسرعت مبتعدةً عنه ، وأسدلت الستارة الكمونيّة على طول النافذة العريضة . حين عاينته من مسافة كافية ، بالضوء الفاهي في الممر الذي انهمر كرذاذ مطر فوق رأسه وكتفيه ، رأته أخيراً ؛ كاملاً ، مكتملاً . من جهة ، كان حقيقياً . من جهة أخرى ، إذ تقاطع الضياء والظلال على قامته كان أجمل من أن يكون حقيقياً . كان طويلاً ، رفيعاً ، دون هزال ، بشعر أسود غزير متموّج تخلّلته تحت الضوء النائص شعيرات بيضاء أعطت مظهره مزيجاً من غموض وشقاوة ، بدل أن تكسبه وقاراً متوقعاً . مال وجهه الأسمر إلى الاستطالة ، دون مبالغة . قسماته نُحتت على نحو صارم ، خاصة أنفه الذي برز في

منتصف وجهه ، دون أن يكون - مع ذلك - نافراً أو متضخّماً . عيناه البنيتان الحادتان مالتا إلى الضيق ، كأنهما تسبران عمق الأشياء طيلة الوقت . لم ينجح الشارب متوسط الكثافة وآثار لحية نابتة إهمالاً في إخفاء مسحة البراءة المتناقضة تماماً مع مظهره ، نصف العسكري ، المهَلهل .

كانت قمر لا تزال تعبّ معالمه في ظلال الضوء المتاحة ، حين قطع عليها تفحّصها قائلاً :

- آسف لأني . . . فرضت نفسي عليكِ!

لم تمنع قمر نفسها من الابتسام معيدةً كلمة «فرضت» ، التي بدا وأنه اختارها بعد تفكير ، بلهجة تهكُّمية . بادلها الابتسام ، مظهراً تفهُّماً لتأويلها المبطَّن لكلمة «فرضت» . لعلّ كلمة «أقحمت» هي الأكثر تعبيراً ، قال لها .

- وليش أنا؟ ليش بيتي أنا؟

سألته ، فأكد لها أنه كان يمكن أن يكون أي بيت آخر ، مبرراً بسخرية لم تغب عنها المرارة وادّعاء التصنُّع :

- السكون المناسب والظلام المناسب في المكان المناسب!

قال لها إنه لن يفرض نفسه عليها طويلاً ؛ يحتاج إلى أن يكون في مكان آمن ، هذه الليلة . غداً يوم آخر ، وهروب آخر . ثم كأنه استدرك معلومة مهمة :

- اسمي غسان بالمناسبة!

تفحّصت قمر هيئته ببنطلون كاكي رثّ ، من بقايا بزة عسكرية ، دون حزام ، وبلوزة قطنية بيج لا علاقة لها

بالبنطلون، وبسطار صحراوي اللون. قدرت أنه في أواخر عشريناته أو ربما أكبر قليلاً. قرأ نظراتها المعاينة، المستفسرة، فشرح لها ما اعتقد أنه أمر واضح وخمّن أنها يقيناً حزرته، فاتحاً كفّيه على جنبيه:

- أنا فدائي.

- وقبل ما تكونِ فدائي؟

أجابها كأنه يستعيد معلومةً بعيدة، غير ذات دلالة مؤثِّرة:

- مهندس.. مهندس كهربا.

- معك سلاح؟

- تْخلّصِتْ مِنّو!

ثم أضاف كي يُطمئنها:

- دفنتُهْ في مكان بعيد. لا تِقلقي!

والحق أن قمر لم تكن قلقة كثيراً، ولا حتى قليلاً، من اقتحامه سكونها وليلها وبيتها. حتى هيئته المتأهِّبة لفعل الموت أو الحياة رغم الموت، لم تربكها ولم توتّرها. ولم تكن لتتوقّف عند دواعي عدم قلقها وعدم خوفها اللذين في غير محلِّهما أو تتساءل. سألته باهتمام أصيل:

- جوعان؟

أجابها بلهفة صادقة:

- ميِّت من الجوع!

أشارت له كي يتبعها إلى المطبخ. ثم خطر له السؤال الأهم:

- ما حكيتيلي إسمك؟

كانت قمر قد أشعلت ضوء المطبخ ، فشملهما النور ، حين التفتت نحوه قائلة :

- أَمَرْ .

ملامحه في الضوء بانت أكثر حدّة ، فيما مالت نظراته إلى أن تكون أكثر شمولية واحترازاً ، بحكم عاداته القتالية . جلس إلى الطاولة ، يراقب قمر تشعل عينين من عيون الموقد ، واحدة تحت إبريق الشاي وأخرى تحت المقلاة ، التي سيُّحت فيها ملعقة سمنة ، قبل أن تكسر فوق الدهن الذي استعرت حماوته بيضتين ملأت رائحة استوائهما فضاء المطبخ . شعرت قمر بعينيه تحتويانها ، وهي تضع أطباق الجبنة واللبنة والزيتون والمقدوس ومخلّل الخيار على الطاولة . وحين وضعت أمامه الخبز ، انتبه فجأة إلى أن عينيه لم تفارقاها ، فخفضهما على الإثر . في البداية ، كان يأكل ببطء ، رافعاً بصره ، من لقمة لأخرى ، ناحية قمر التي كانت تلقم إبريق الشاي . بينه وبين نفسه ، استغرب هدوءها التام في استيعاب وجوده ، ولولا ثقته التامة بحقيقة الوضع وما هو عليه لظن أنهما سبق أن تعارفا أو التقيا . صحيح أنه لم يهدّدها ، لكنه في النهاية «اقتحم» بيتها ؛ نعم عليه أن يسمّي الأشياء باسمها ؛ وتقريباً «كمّمها» . «خايفة مني؟» سألها من وسط اللقيمات الأولى . وضعت قمر قنينة ماء بارد وكأساً على الطاولة ، وأجابته رافعةً عينيها إلى السقف لبضع ثوان ، كأنها تفتّش عن جواب معلّق هناك ، قبل

أن تردّ عليه بصيغة قاطعة : «لأ» .

أتى على ما في الأطباق بنهم . حتى إذا أكل وشرب وشبع ، حمل الأطباق الفارغة ليضعها في المجلى ، مظهراً استحياءه من تعدّيه على شيء ليس له . طلبت منه قمر أن يترك كل شيء ويذهب ليرتاح . قال لها إنه سوف ينام في الصالة ، على الأرض ، وسوف يرحل في الفجر . قادته إلى غرفة النوم ذات السرير المفرد ، موضّحةً أنه ليس من الحكمة أن ينام في الصالة المفتوحة على الباب الخارجي . لم يجادلها . جلس على حافة السرير ، مفزوعاً من نظافة الشرشف ، وجدّته . كانت الغرفة كلها جديدة . رائحة الخشب والشراشف غير المستعملة فاحت منها بقوة . استشفّ أن البيت كان كبيراً ، أكبر من أن يكون لامرأة لوحدها . ثم ذعر من احتمال أن يكون هناك أناس معها ، ولأمر ما غابوا عن البيت هذه الليلة وقد يعودون لاحقاً ، ربما آخر الليل . سألها ما إذا كان أحد يعيش معها في البيت ، فطمأنته بالقول : «أنا وحيدة!» ثم دلّته على الحمّام ، وذهبت إلى المطبخ لتُحضِر له الشاي . حين رجعت ، رأت نصف بدنه ممدّداً فوق السرير ؛ قدماه ، بالبسطار فيهما ، تدلّتا على الأرض . كان قد سقط غافياً ؛ رأسه مال فوق الوسادة ؛ عيناه الضيقتان في الصحو انفردتا في إغماضتهما ، فيما رشح فمه نصف المغلق عن ابتسامة ، كأنها زفرة الخلاص الأخير . وضعت قمر كأس الشاي على الكومودينو المجاور ، ورفعت قدميه بحذر على السرير . لم يتحرك . ذهب في نوم

عـمـيق ، جـسـده غـاص في شـبـه خـدر . فكّرت أن تخلع له حذاءه ، لكنها كانت قد سمعت أن الفدائيين ينامون منتعلين أحذيتهم . فردت فوقه بطانية خفيفة ، أطفأت النور ، وأغلقت عليه الباب .

على سريرها ، زارت قمر أفكارٌ كثيرة ، ربما كل الأفكار الموجودة في العالم ؛ حتى تلك التي بدت شاذّة ؛ بعضها تلكّأ وتباطأ ، وأخرى مَرقَت في الخاطر سريعاً . كانت الرصاصات التي تخرق سماء الليل على نحو متقطّع ، تُفزع أفكارها ، فتطير من رأسها جزعة ، وتحتاج إلى وقت قبل أن تجمعها أو تستدعيها ثانية . تقلّبت كثيراً ، اصطدمت خلالها بوجوه شتّى . رأت صبية ، بشعر أسود غزير وغرة طويلة كثيفة تغطّي جبينها وعينيها . تداعت الصبية على الأرض على ركبتيها . خرج منها صوت نشيج حاد رافقته خضّات هائلات متتابعات سرت في جسدها المنثني . انحنت قمر فوق الصبية . ربّتت على كتفها بإشفاق ، ثم رفعت الغرة الكثيفة الطويلة عن عينيها ، فذُعرت . كانت الفتاة تشبهها جداً ، حد التطابق . بكت الصبية بكاء غزيراً ، عنيفاً ، اصطبغ معه بياض عينيها باحمرار دموي . مدّت قمر يدها تريد أن تمسح دموع الصبية التي اشتبكت بدموعها ، حتى ما عادت تعرف أيّ الدموع لمن ، فمسحت وجه الفتاة كلّه من شاشة بصرها ، ليحلّ محلّ الوجه الباكي فراغ . وفي الفراغ ، هبط فوقها جسمٌ ثقيل برأس ضخم لا وجه له ؛ وعندما حاولت قمر أن تدفع الجسم الثقيل بعيداً ، بكل ما

أوتيت من عزم ويأس ، انسحقت ؛ ورنّ في أذنها صوت دبابيس هطلت شلالاً معدنياً هادراً على الأرض ، ليثقب طنينها روحها التي تقلّصت كثيراً . فتحت عينيها بجزع ؛ نفضت من أذنيها آثار الطنين ؛ نظرت إلى الجهة الأخرى من السرير المصطبغة بظلال زرقاء داكنة تسرّبت عبر الستارة نصف الشفافة من الفضاء الخارجي المُنار بنصف قمر خفِر ، فرأت الحاج فيصل ممدَّداً على ظهره ، بوجهٍ شاحب يحمل علامات النهاية الوشيكة غير السعيدة ، يداه معقودتان فوق صدره ، عيناه مُيمَّمتان شطر السقف ، فتحهما على اتساع كأنه لا يستطيع أن يصدِّق أنه يرى ما يرى .

ما كادت تغمض عينيها من جديد حتى سمعت طرقاً على الباب . نزلت من على السرير . ركضت حافيةً قاطعةً المسافة من غرفة نومها إلى الممر الفاصل بين الغرف ، فالصالة ، فالمدخل المؤدّي إلى الباب الخارجي في زمن خالته لانهائياً . في الطريق الطويلة المرهِقة من غرفة نومها إلى الباب الخارجي ، تفاجأت بستائر الصالة منزوعة ، وحتى الشبابيك تخلّعت من أطرها ، فبان تجويف هائل في الحائط ، دخلت منه رياح زرقاء هوجاء . تَسارع الطرق على الباب . حاولت أن تسرع ، لكن الريح الزرقاء دفعتها إلى الخلف ، حتى كادت تقع . كانت تلهث ، كأنها تركض في أرض قفر . وحين فتحت الباب هجمت عليها عشرات الكلاب ؛ تعالى نباحها ، وأوقعتها أرضاً ، لتمزِّق ملابسها وتغرس أسنانها في لحمها ، مُمعِنةً فيها

نهشاً . كانت الكلاب مخيفة ، كذئاب مسعورة ، سوداء حالكة ، بأحناك عريضة بارزة ، وألسنة حمراء كاللهب . من مكانها على الأرض ، لمحت زيد يقف على الباب ، نظراته مسلَّطة عليها ، فيما واصلت الكلاب نزْع لحمها عن عظمها .

صحت قمر على ضوء الفجر القرمزي الداخل من النافذة إلى غرفتها ، مفترشاً الجزء العلوي من جسمها المستلقي . قبض نباح الكلاب المتقطِّع في الخارج على حواسها . كان النباح بعيداً . حضنت ذراعيها ، فارتاحت قليلاً لفكرة أن لحمها لم يتساقط . نظرت إلى الجهة الفارغة من السرير . لم يحمل الشرشف المشدود والوسادة المنتفخة أي أثر أو جعدة دلّت على حياة بشرية من أي نوع احتلّته ، ولا حتى موت بشري . نهضت من السرير بتثاقل . كانت عطشى . مشت إلى المطبخ . ابتلعت البلاطات العارية همس قدميها الحافيتين . السكون طَمَر البيت إلا من أزيز الثلاجة . شربت الماء من القنّينة . استعادت لهاثها في الخلاء التي قطعتها في منامها . توقفت في الصالة ، التي مازال بقايا الليل يتلبّسها . أزاحت بيدها طرف البرداية ، وحاولت أن تشمل ببصرها الطريق النائم ، فعلا نباح الكلاب فجأة . كان الصوت قريباً جداً هذه المرة ، كأنه أسفل نافذتها . أرخت البرداية بوجل ، مبتعدة .

في طريق عودتها إلى غرفتها ، توقّفت عند غرفته . فتحت الباب ببطء . أرسلت نظرةً مائلة . تبيّنت جانباً من جسده المضطجع . شقّت الباب أكثر . اقتربت من سريره . هيكله في

النوم بدا أقل حجماً منه في اليقظة . استلقى كطفل أفنى يومه في اللعب ، فارتمى على السرير بملابسه منهكاً . وجهه الغافي بدا مطمئنّاً على غير ما هو متوقَّع . أدنت وجهها من وجهه ، فملأت صدرها رائحة بشرته السمراء ، المشكولة بالشمس والهواء والعراء . لم تكن الرائحة ظاهرة جداً ، ولم تكن منفِّرة ؛ كانت مخزَّنة ؛ وشت بطرقات جافة وعرق ومجافاة لحمه الماءَ منذ أيام . مدّت يدها إلى كتفه ، لكنها تراجعت . أغلقت الباب عليه وانسحبت إلى غرفتها بهدوء .

كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً ، حين دخل غسان المطبخ . رائحته المخزَّنة سبقته إليها . استدارت على صوته الذي داخله شعور بذنب :

- كان لازم أمشي!

قالت له قمر إنها حاولت أن توقظه لكنها أشفقت عليه ؛ فلقد بدا مستغرقاً في النوم . أقرّ لها أنه شعر كأنه أفاق من غيبوبة . لا يذكر متى نام ، وكيف نام . للمرة الأولى منذ وقت طويل ، شعر بأنه يسقط في النوم ، هكذا ، وأنه يغيب ، يغيب تماماً ، بل يذهب إلى آخر نقطة في الغياب دون أن يحلم ؛ دون أن يعني هذا أن أحلامه في الأيام العادية هانئة . كان عقله ، في النوم ، أسود ؛ وهو أمر - بالنسبة له - كان مريحاً ، على نحو غريب نوعاً ما . ثم كأنه تذكر شيئاً غاب عن باله ، فنظر إليها مستدركاً ، قائلاً بنبرة حملت وقعاً اعتذارياً :

- صباح الخير!

ابتسمت قمر وهي تضع الأومليت ذا القوام المتماسك في طبق مسطَّح على الطاولة ، متوسطاً مجموعة من الأطباق الصغيرة التي ضمت جبنة ولبنة وزيتوناً ومربّى مشمش وقطع مخلل خيار .

في ضوء النهار ، كانت بشرته أقل اسمراراً وأقل إنهاكاً . وجهه كان أكثر حبوراً وانبساطاً . عيناه كانتا أكثر اتساعاً ، أكثر احتواءً لها ولحركاتها ، حتى إنها شعرت بأنها توشك أن تنزلق داخله ، وتظل تنزلق حتى تصل إلى جوف روحه ، وهو أمر - لدهشتها المطلقة - لم يكن سيسبب لها جزعاً . كلامه كذلك كان أقل تحفظاً ، أكثر انسيابية . أقبل على الطعام بشهية . ثم كأنه تذكر أن صاحبة البيت ، التي فرض نفسه عليها وعلى بيتها ، لم تكن تشاركه الأكل ، دعاها . «سبقتك» ، قالت له وهي تضع ركوة القهوة على النار . سألته بينما كانت تضع فنجانين فوق صينية خشبية صغيرة :

- قهوتك كيف؟

أجابها بلقمة كبيرة محشورة في فمه :

- سادة .

اقترح عليها أن تفتح ستائر النافذة في الصالة . يجب ألا يتبدّل روتين يومها . قال لها إنه سوف يلزم غرفة النوم الصغيرة ، حتى إذا هبط الليل رحل . سألها ما إذا كانت تتوقع أن يزورها أحد ، فرفعت عينيها وقلبت فمها إشارة لعدم الوثوق . في الأوقات العادية ، تكون صالتها ملآنة بالزبونات . لكن منذ

بداية الأحداث لم تعد النساء يأتينها إلا نادراً ، وأحياناً للثرثرة فقط . قالت كلمة «الأحداث» بنوع من التشكُّك ، فشعر بأنه ربما يجب أن يشرح لها كونه مضطراً أن يكون جزءاً من هذه «الأحداث» ، وصانعاً لها . لا أحد أراد لهذه الأحداث أن تقع ، قال ؛ لقد دُفعنا إليها دفعاً . لكن في الراديو يقولون إنكم أنتم الذين دفعتموهم إليها دفعاً ، ردّت عليه . أشعل آخر سيجارة في باكيت سجائر مجعد في جيبه ، وسحب آخر رشفة في فنجان القهوة ، حين قال لها إن كل شخص يصدق ما يريد أن يصدقه .

- وأنا ما بدّي أصدق شي!

قالت له وهي تطفئ عقب سيجارتها في قاع فنجانها ، فيما أبدت رغبة حازمة من جانبها في إنهاء النقاش . عرض عليها أن يساعدها في أي شيء . يستطيع أن يجلي الصحون مثلاً ؛ فقد كان يساعد أمه في أشغال البيت . ضحكت ، معترفةً بأنها لا تستطيع أن تتخيله يحمل سلاحاً ويغسل الصحون . لم يستطع هو الآخر أن يمنع نفسه من الابتسام . كان ذلك قبل السلاح ، قال لها ، فقد تزوجت شقيقاته الخمس اللاتي يكبرنه ، حين كان لا يزال طفلاً ، فاستحق على الأثر لقب «ابن أمه» .

- وأبوك؟

سألته بنوع من الفضول . كان يجفّف الأطباق التي كانت تغسلها ويرتّبها في حامل الأواني المعدني ذي الطبقتين ، حين قال بصوت خالطه بعض كدر :

- أبويْ . . وبس!

تبعتها نظراتُه ؛ ضربت سياجاً حولها ؛ في وقوفها ، في جلوسها ، في عملها وراء الماكينة . كانت تبدو أنها تسعى للانشغال عنه بأي شيء أكثر مما كانت تقصّ وتخيط فعلياً . بينه وبين نفسه ، أقرّ بأنها كانت أجمل من أن تكون خياطة . ويقيناً كانت أجمل بكثير من أن تكون امرأة وحيدة . كانت تطوي بعض أقمشة البطانة الحريرية وترتبها في الخزانة ، عندما طرق باب غرفة الخياطة وقال لها :

- بفكِّر أتغسّل . . إذا ما عندك مانع!

وافقته . سألته عن ملابسه . تشمَّم بلوزته ، ورفع حاجبيه كأن مصدوم ، معترفاً بسخرية أن رائحتها لا تُطاق ، لكنه مضطر كي يلبسها بعد الاستحمام . ذهبت إلى غرفتها ، وفتحت درجاً من خزانة ملابسها ، وناولته بيجامة رجالية . تفحصها متسائلاً :

- هاي كانت للمرحوم جُوزي!

قالت له وهي تضع في يده الأخرى منشفةً وبشكيراً . بدت البيجامة الكحلية المقلمة بالأزرق الفاتح غير ملبوسة ، أو كأنها مطوية في مكانها منذ سنوات . شعر بالخجل كونه لم يسألها من قبل عن أي شيء في حياتها . ومن جديد أقرّ بينه وبين نفسه بأنها أصغر وأجمل من أن تكون أرملة ؛ كانت أصغر وأجمل من أن تكون هي ما هي عليه ؛ وحيدة ، صغيرة ، جميلة ، بل هي أكثر من جميلة «حاف» ؛ تعيش في بيت

كبير ، فظّ ، موحِش ، وإن كان أقل فظاظة ووحشَةً في النهار منه في الليل ، كل شيء فيه لا يشبهها .

رائحة الماء والصابون طفرت من مفاصل باب الحمام المغلق . شهيق الماء الساقط فوق لحم بشري مورف ، شديد الحياة ، غمرها . ضغطت قمر رِجلها على دوّاسة الماكينة ؛ طغى صوت الدرزات المتواتِرات ، المتوتِّرات ، على تهدّج الماء ، فتجمَّعت القماشة تحت الإبرة المتسارعة ، وتجعَّدت وسط كومة من الخيوط المتكتِّلة . رفعت رِجلها عن الدوّاسة ، قصَّت الخيط ، سحبت القماشة من تحت الإبرة ، ورمتها جانباً . حاولت أن تخمد الرعشة التي أُضرمت في جسدها ، فلم تستطع . نزل الماء الساخن فوقها ، ففاضت حواسها بالبخار المصوبَن وبقايا رائحة مخزَّنة للحم خرج عن طوْع العالم ، وها هو يحاصر عالمها .

وقف أمامها بالبيجامة الواسعة ، حافياً ، ببشرته الفائحة ، وعينيه مُندّاتي النظرات ، وشعره الحرّ المبلول يؤطر وجهه ، فاطمأنت إلى أنه لا يشبه أي شخص عرفته من قبل . بل كان ، رغم استعارته البيت والخبز والفراش وغيبوبة النوم والماء والبيجامة والزمن القليل فيما بينهما والمسافة المحسوبة التي جمعتهما معاً ، لا يشبه إلا نفسه ، بطريقة ما هي نفسها حارت في فهمها .

طلبت منه أن يعطيها ملابسه كي تغسلها له ، فطمأنها بأنه غسَل ملابسه الداخلية وجواربه ونشرها على ماسورة برداية

الحمام . ليس من الحكمة ، كما أوضح لها ، أن يغسل البنطلون الفوتيك والبلوزة ؛ فمع الهواء والشمس القليلين الداخلين من نافذة الحمام الصغيرة ، لن يلحقا أن يجفا حتى المساء . وأكيد بلكونة المطبخ لم تكن مطروحةً كخيار لنشر غسيله . أيّدته .

فتحت ستارة الصالة جزئياً ، بناء على اقتراحه . لاحت لها من بعيد عند أول الطريق الرئيسي آلية للجيش مكشوفة ، جلس فيها أربعة أفراد بالزي العسكري . قرأ القلق المرتسم على وجهها ، فحاول أن يخفف عنها بالقول :

- اطَّمّني . . رَحْ أمشي بالليل! ما رَحْ أسبِّبْلِكْ أي مشكلة!

- ما بظن الطريق حَـيْكونْ آمِن في الليل . . على الأقل مش الليلة .

قد تكون قمر قرأت رغبةً من جانبه كي يبقى . لكن الحقيقة الثابتة أنها هي نفسها كانت تريده أن يبقى . أغلقت الستارة بالكامل ، متجاهلةً اقتراحه ، فأضاءت روحاهما في ضوء النهار ، الذي تفلتر ما يكفي منه من الستارة السميكة .

- بتحبّ البامية؟

سألته بحماسة . شعّت عيناه بالترقُّب ، وقد تحرّرت حركته أكثر بين المطبخ والصالة وغرفته ، فأجابها :

- بموت فيها!

لأول مرة منذ أن اقتحم وجودها رأته ليس مقحَماً في حياتها بأي صورة محتملة ؛ ربما لأنه كان بالبيجامة ، وربما لأنه كان حافي القدمين ، وربما لأن أثر الماء والصابون لم يطغَ على

رائحة لحمه تماماً . على نحو ما لم تستطع أن تفهمه أو تفسّره ، أضفى على البيت اكتمالاً ، أو جعله أكثر منطقية . والأثاث الكثير ، الضخم ، الفارغ ، تراجع منه الشعور بالخواء ، والصمت ، ورائحة الخشب السافرة ، وقلة الحياة ؛ مع أنه في ليلة ونصف يوم لم يحتلّ سوى السرير المفرد ، في غيبوبته الطويلة ، وكرسي المطبخ في يقظته النهمة .

عندما حلّ أول الليل ، كان قد حكى لها أشياء كثيرة ؛ حكى لها صفحات من فصل طفولته غير الاستثنائية ؛ حكى لها عن أول سيجارة دخنها تسببت في ضرب أبيه المبرح له ؛ حكى لها عن ابنة الجيران الأولى والأخيرة التي أحبها ، فشجّ شقيقُها رأسَه ؛ تولّع بها ، لكنها فضّلت ابن عمها الذي يعمل في السعودية عليه ؛ ضحك حين روى لها كيف أنه حين شاهدها آخر مرة قبل ثلاثة أعوام ، كانت تحمل طفلاً وتجر آخر ، بدت سعيدة ، سعيدة جداً ، الأمر الذي أرعبه . ضحك أكثر حين قال لها إن عزاءه أن شقيقها غدا من أعزّ رفاقه . حكى لها عن رفيق الدراسة الذي صار رفيق السلاح لاحقاً ، فقاتلا جنباً إلى جنب في معركة الكرامة . بكى وهو يحكي لها كيف افتداه رفيقه ، ملقياً جسده عليه حين ركضا هاربين من الرصاص الذي انهمر فوقهما . ظل جسمه ، الذي كان يُثقب دون هوادة ، يرتجّ فوقه . حتى إذا توقف الرصاص ، كان هو قد اغتسل بدم رفيقه .

ثم من وسط دموعه تذكر أمه ؛ أمه تحب أغاني شادية في

الأفــلام ؛ تظلّ تغنّي طول الوقت ؛ تغنّي لوحــدها ، تغنّي لنفسـهـا ، لكن كـثـيـراً ما تـسنّى له أن يتـسـمّع إليـهـا ، من وراء ظهرهـا ، بينما تغنّي وهي تطهو أو وهي تنشر الغسيل .

- بتحبّي شادية؟

ابتسمت قمر . لم ينتظر إقراراً منها بالحب . ضحك بصفاء مستذكراً ليـالي السـهـر مع الرفاق في العراء ، يغنون وينشـدون أغاني الثورة الحماسية بأصوات غليظة . كان يشاركـهـم ظاهرياً ، لكنه كان يردد في قلبه أغنية بعينها أحبتـهـا أمه أكثر من أي أغنيـة أخرى . لم يكن ليعترف بذلك لهم . وفي الليـالي التي كـانت تخطر الأغنيـة في باله ، يردِّد عـقله مـقـاطع منهـا . كـان يخـشى أن يتـحـوّل إلى أضـحـوكـة وسط المقـاتلين الأشـداء الخشنين إذا سـمـعوه . قال «الأشـداء الخشنين» بأداء تمثيلي ، خشَّنَ مـعـه صـوته ونفخ صـدره . عـاينتـه قـمـر بنظرة فـضـوليـة مستفسرة ، حد الإلحاح . ميّل رأسه ناحيتها ، مسنداً ذقنه على يده ، ثم صار يدندن بصوت خافت ، غير منتظم لحنياً ، قبل أن يرتفع صوته تدريجياً ، ويأخذ اللحن مجراه دون بتر أو انحـراف أو نشـاز واضح : «إنْ راحْ مِنَّكْ يا عين ، حَيْروحْ من قَلْبي فين ، دَه القلبِ يحِبّ مرّة مَيْحِبِّشْ مرّتين ، مَيْحِبِّشْ مرّتين» ، ثم رسم غمزة على صفحة وجهه في إشارة لوعيد أو تهديد ، فيـمـا نحا صوته إلى أن يكون أكـثـر أنثويّة : «وحياةِ اللي جَرالي ، ويّاهْ من غير مَعـاذْ ، لسَّهَروا الليالي وحَرَّموا البعاذْ . .» ، ثم حين بلغ «إيّاهْ يِقْسى عليَّ ، إيّاهْ يِنْسى اللي كـان . .» ، اشـتبك صـوته بصـوت

أمه ، فيما سالت دمعة يتيمة أعلى خدّه .

«أبوي ما بِحِبّ شاديه» ، قال لها ، وقد خلع صوته أنوثته . حين كان أبوه يدخل البيت تتوقف أمه عن الغناء ؛ بل كأنها تهجر الحياة . التفت إلى قمر فجأة ، مرتدياً وجهاً فضولياً :

- وإنتِ؟ ما حكتيلي أي شي عنِّك!

قالت له إن حياتها ليست مثيرة بقدر حياته . ثم أضافت كأنها تجيب عن سؤال سابق :

- بحب شادية ، لكن بحب فيروز أكتر .

ضحك قائلاً :

- وأنا كمان . . بَحِب شادية زيّ أمّي . . وبَحِب فيروز زيّ حبيبتي .

ودّت لو أنه يعبطها ؛ عندها لن تفلته ، وسوف يظل رأسها مستريحاً فوق صدره ، مظلَّلةً بأنفاسه ، مُهَدهَدةً بصوته حيناً ، وبصوت أمّه أحياناً ، بصوت شادية ، إذ يكون حنوناً ، وبصوت فيروز ، فيروزها هي ، إذ يكون عاشقاً ، مترفِّعاً ، سماوياً ، عصياً على الأخذ تارةً ؛ سهلاً ، أرضياً ، مقبلاً تارةً أخرى . أرادت أن تقول له إن صوت أمّه جميل ، لكن صوته أجمل . تمنّت جداً لو كانت تستطيع أن تقول له إنها تحب صوت أمّه ، لكنها تحبّ صوته أكثر .

في الليل ، بكت قمر . أغلقت على نفسها غرفتها وبكت كثيراً ، بكت طويلاً . عيناها نزفتا ماء كثيراً . اختلط بكاؤها المبحوح بنباح الكلاب في الخارج . ثم اخترقت رصاصات

متتابعات قلبها ، فسقطت على الفراش ميتة .

كانت قمر تصعد درجات البناية ، تحمل أكياساً ، حين رأت جارتها شهلا تقف أعلى الدرجات في الطابق الثاني . توقّف نفَسُ قمر بغتةِ ، ثم أطلقت زفرةً ، مرتدية وجهاً متفاجئاً . قالت لها شهلا إنها دقّت بابها عدّة مرات ، إذ لم تتوقّع أن تكون خارج البيت ، وأضافت :

- كأني شمّيت ريحة قهوة جُوّا!

دارت قمر اضطرابها وسألتها :

- إيمتي رجعتِ من الكرك؟

- اليوم الصبح .

عبد الله ، زوج شهلا ، ارتأى أن ترك بيتهم في هذه الأوقات قد لا يكون قراراً صائباً . كانت قمر تحاول أن توازن ثقل الأكياس بيديها ، حين لاحظت شهلا أن حملها أثقل مما هو مألوف . وقعت عينها على كيس ضخم على وجه الخصوص ، شفّ عن أرغفة خبز متراصة . «كل هذا خبز؟!» سألت قمر مندهشة . شرحت لها قمر باستفاضة أن هذا أول يوم تغادر فيه البيت منذ أيام ، وكان عليها أن تتموّن من الدكان والمخبز القريبين .

وقع أحد الأكياس أرضاً فيما كانت قمر تحاول أن تفتح باب البيت بالمفتاح ، فسقطت منه أربعة باكيتات سجائر كمال . ساعدتها شهلا في جمع ما وقع ، دون أن تمنع نفسها من سؤالها :

- شو؟! غيّرتِ سجايركِ؟!

- هاد الموجود في الدكان!

ابتسمت قمر كأن الأمر عادي أو لا يفرق معها كثيراً . ومع ذلك ، لم تهرب من حصار شهلا تماماً ، التي عرضت عليها أن تساعدها في حمل أغراضها إلى الداخل . لملمت قمر الأكياس إليها لتبدو أقل حجماً وأخف وزناً مما هي عليه ، نافضةً رأسها :

- ما في داعي تْغَلْبي حالك!

عرضت عليها الجارة أن تشرب معها القهوة . لكن قمر اعتذرت ، متحجّجة بصداع شديد تعاني منه منذ مساء أمس ، إذ لم تغمض لها عين . فلا الرصاص كان ينام ، ولا الكلاب كذلك! قالت لها . أظهرت شهلا تفهُّماً ، ثم قرَّبت وجهها من وجه قمر ، وحذّرتها :

- سَكْري الباب عليكِ مْنيح! هذول «الكلاب» صاروا يدخلوا البيوت!

قرع قلب قمر بعنف وهي تقفل الباب . ساعة الحائط المعلَّقة في المدخل كانت تقترب من منتصف الظهيرة . كان غسان يجلس على سريره يقرأ صحيفة قديمة ، حين لاحظ اغتمام وجهها . ناولته كيس السجائر ، واستدارت خارجة حين أمسك بيدها . كانت تلك أول مرة يمسكها فيها ، حتى وإن كان مَسْكه لا شعورياً . أجلسها على طرف السرير إلى جواره . كانت قد مضت سبعة أيام على وجوده في بيتها وحياتها . خلالها ، غسلت له قمر بنطلونه وبلوزته . وخلالها ، أكلا ،

وشربا القهوة ، ودخنا معاً ، وتحاكيا في كل الأشياء التي لا تصيب معنى مهماً ، وغصّا بالضحك مرات ، وترنّما ببعض الفيروزيات الندية ؛ كانت تحب «علّموني هِنّي علّموني ، على حُبّكْ فَتّحُولي عيوني ، والتقينا وانْحَكى علينا ، علّموني حُبّكْ ولامُوني» ؛ وكان يحب «قَمَره يا قَمَره لاتطْلعي عالشّجَرَة ، والشّجَرَة عالية ، وإنتي بَعدكْ زْغَيّرَة ، ياقَمَرَه» . اعترفت له بأنها أحبت الحاج فيصل حباً عظيماً رغم أن ذلك بدا ضد المنطق وضد الحياة ، وأنه حين كان يحتويها بين يديه تشعر أنها وجدت أباها وأمها اللذين فقدتهما ، ولم يكن هذا الشعور لينفّرها منه كزوج ، أو يُبعدها عنه ، بل على العكس . واعترفت أنه رغم كل شيء فإن الرجل الذي لا وجه له مازال يطلع لها في ليالٍ كثيرة . كما اعترفت له ، ببعض حياء ، أنها لا تحبّ شادية ، وهو أمر أقرّت بأنه ضد المنطق وضد الحياة ، لكنها أحبتها في صوت أمه ، الذي استحضره صوته . خلال أيامهما معاً أيضاً ، بكيا حد نهنهة الروح ، كلٌّ لوحده في ليله وفي غرفته . وخلالها كذلك ، استقبل بابها دقّات عابرات ، وزيارات خاطفات لزبونات متململات تُختصَر من عند عتبة الباب ، وكلّما سُمعت أصوات أقدام على بابها ، كان الدم يكاد يشخب من عروقه ، فينزوي في غرفته ، مقلّصاً نبضه وأنفاسه إلى الحد الأدنى ، على نحو كادت تتلاشى معه رائحة وجوده المبعثرة .

اقترب منها قائلاً شبه لاهث :

- لازم أمشي!

كانا شديدي القرب، حد أن يكون تقاربهما عفوياً عابراً، وحدّ أن يكون أيضاً مُراداً ومبتغىً. كان من الممكن جداً أن تلمس شفاهه وجهها أو تحتك بخصلات شعرها النازلة على جانب خدّها. أنفاسه سفعتها. رائحة لحمه المخزّنة استشرت فيها كصعْق كهربائي بدا في ظاهره خفيفاً، سريعاً، لكن تأثيره الوخزي، التنميلي مضى بعيداً؛ غار عميقاً. قال لها إن بابها لن يظل موصداً في وجه الناس إلى الأبد؛ وأنه لا يستطيع أن يظل مختبئاً إلى الأبد. كذلك، كان متيقناً أن جارتها لن تتركها في حالها طويلاً. رفضت احتمال ألا يكون معها بكرة، وبعد بكرة، وبعد بعده. حاولت أن تثنيه:

- بس الطريق مش آمن!

الطريق لن يكون آمناً أبداً؛ قال لها باستسلام نابع من حكمة مُكتسَبة مبكِّراً. صحيح أنه لم يعرف أين يقوده حين اختار أن يمشيه، لكن حتماً كان يعرف أين لن يقوده. لم يكن يستطيع أن يبقى في حياتها؛ وهي كانت تعرف ذلك. المؤلم أنها كانت تعرف ذلك جيداً. في شريعة حياته، كان قد خاصم العادة، فلم يعتد المكان ذاته ولا الزمن نفسه ولا الأرض والحرش والكهف ذاتها؛ فالعادة، كما اكتشف - لرعبه الشديد - هي الحب.

- رَحْ أمشي قبل الفجر.

لم تنفع كل حججها لإقناعه بأن يبقى. طلبت منه أن يمهلها بعض الوقت كي تتخلص من ملابسه، وتشتري له

ملابس بعيدة عن الشبهات . سوف تشتري له حذاء جديداً أيضاً ، بدل بسطاره . أكد لها أن الملابس الجديدة لن تساعده كثيراً . جلبت له عباءة الحاج فيصل البنية وحطّته الحمراء المرقَّطة :

- على الأقل إلبس هدول!

قالت له بعصبيّة ، وأضافت بأنه ليس من المعقول أن يسير في الشارع بالبنطلون الفوتيك ، شبه مكشوف . رمت العباءة والحطّة على سريره وأغلقت الباب على نفسها في غرفتها غاضبة .

تآكل نباح الكلاب في تلك الليلة ، وذابت الرصاصات الليلية في صمت متَّصِل ، فبدا كما لو أن كلّ شيء مخيف وحزين وجالب للنهايات التعيسة ولّى . فتحت قمر خزانتها ، ومدّت يدها إلى زاوية قصية في الخزانة . أخرجت فستاناً قصيراً من المخمل الأسود ، فردته فوق السرير . تدحرجت كفّها فوق صدره ، فخصره ، منزلقةً حتى ذيله . توقّدت عيناها وهي تعبّ حُلكته . سقطت عليه إنارة الغرفة النيونية ، فتلألأ بشعاع قمري مراوغ . وضعت يدها على فمها . كبتت ابتسامةً مشوبةً بإثارة خفية .

حدث ذلك قبل شهور . كانت يداها وعيناها تتنقل بين أقمشة ساتانية عدة في محل القماش حين غافلها بصرها ليستقر على ثوب وحيد على أحد الرفوف من المخمل الأسود . حين فضّ البائع ثنيات الثوب أمامها ، ملك النسيج ، ذو القوام

الحريري، حواسها. خوّض البائع في قلب العُباب الأسود أمامها. أكد لها أنه من الحرير الطبيعي، وأنه لا يوجد في السوق كله نظير له. وأضاف وهو يمرّر أصابعه فوق القماشة المتعالية، المترفِّعة، المتأنِّفة، أنها تخلو من أي أثر للنايلون أو البوليستر أو حتى الحرير الصناعي. ثم قال بتكبّر:

- مش مين ما كان بشتري مخمل.. مخمل!

هي نفسها لم تفهم لِمَ اشترت كل هذا البحر الأسود الشاسع الثمين. لكنها طول الطريق من السوق إلى البيت كانت تفيض فرحاً. ولو أن حياتها كانت غير الحياة التي تعرفها هي، لاعتقدت قمر أن هيئتها المتخيَّلة التي رسمتها ليست مهداةً لنفسها فقط، وإنما لرجل محتمَل، رجل بعينه، رجل هو الرجل. رسمت نفسها بفستان يحدُّ تضاريسَ جسدها، التضاريس التي تحفظها جيداً، وتعاينها في وحدتها سرّاً كلما اشتهت الحبّ. حين فضّت القماشة على طاولة القصّ في البيت، هالها كلُّ ذاك السواد الجزِل، العَبّي؛ كان سواده كالكُحْل المترَف الذي يحدّ العينين النجلاوين، كعينيها. وحين درجت يدها فوق النسيج، تكشّف الأسود عن أسود حِبْري فأسود فحْمي، فأسود ليلي تأْتلِق فيه النجمات والأقمار. وحين سبحت أصابعها فيه، انتشت برهافته. كان كل ما يمكن أن تحلم به، وكان كل ما يمكن أن تطلبه.

لم تنم قمر تلك الليلة. عملت عليه أوّل الليل وفي منتصفه ثم في آخره، رسمته وقصّته وخاطته وبطّنته وكوته،

حتى إذا جاء الصباح ، ارتدته مولّهة . ابتلعت حُلكته نور النهار ، فظلّ - في الضياء - أسود كأشدّ ما يمكن أن يكون عليه السواد ؛ حِبرياً ، فحمياً ، ليلياً ، آسراً . عاينت قمر طلّتها في المرآة ، فرأت نفسها جميلة ؛ شبعانة وممتلئة . كان يكفيها أن تشعر بذلك الامتلاء الداخلي كي تكون امرأةً سعيدةً بحق .

ها هي بعد شهور عادت إليه . انزلقت في مُخملها بيُسر . رفعت سحاب الفستان من الخلف بسلاسة ، محدثاً صوتاً هو صوت التوق والفُرص المؤجلة . أرسلت شعرها الأسود الناعم خلف ظهرها ، فصار امتداداً طبيعياً لليل الساكن الذي يلفّها . حدّدت عينيها الكاكاويّتين بالكُحْل الأسود السائل ، فأشرق وجهها . حين حوّطت عنقها بسحابة خفيفة من رذاذ عطر شاليمار ، بشذا الفانيلا ذي القوام البودري الطاغي في قاعدته ، تسلّل طرق خفيف على باب غرفتها إلى قلبها .

جلس إلى جوارها على طرف السرير . لامست ركبتُه ركبتَها . دنا أكثر ، فاحتكّ فخذه من تحت قماشة الفوتيك بفخذها المخمَّلَة . اختلطت أنفاسه الساخنة بذرور الفانيلا المجنَّحة . وضع يده على كتف الفستان ثم سحل جانبياً ببطء ، حتى إذا استقرّ عند خصرها ، جابت أصابعه غابة المخمل التي اكتست بهشاشة الحرير ، ثم زحفت عند بطنها المخملي المسطَّح ثم ارتفعت إلى صدرها المتكشِّف جزئياً ، تحت ليل المخمل المُضاء بالشوق . وسط صمْتٍ كوني ، فإن المسافة المتقلِّصة ، حدّ الانعدام ، بين مخملها وبينه حالت بينه وبين طرق ليلية وعرة ،

ورصاص ليس طائشاً ونباح مستذئب . كان الليل قد سكن تماماً ، وضبابه حجب أسرارهما ، والنجوم كتمت أخبارهما .

دفن رأسه في بطنها ، فعبَّ رحيقَ المخمل ، وأُترع بروائح الذكريات المرحَّلة لياسمين الطرقات الرخيّة ، وزنبق الفجر الندي ، وقهوة الصباح غير المتعجِّلة المكلَّلة بالزبد ، وجوري العصريات الكسولة ، وعرائش الكروم الفائرة في مساءات أواخر الصيفية ، ونعناع الليالي طرية النسائم ، وميرمية الليالي الباردة ، المتقشِّفة . قطع بلادَ مُخملها ؛ شرقها وغربها ، شمالها وجنوبها ؛ طاف سهولها وأدغالها ؛ خوّض في وديانها وأنهارها واعتلى هضابها ، قبل أن يستقر على صدرها ، دائخاً مدوَّخاً ، يريد ألا يفيق . ظلّ يشمُّها ، وظلّ يتنسَّمُها ، وظلّ يتنشَّقُها ، فيما كانت أنفاسها تعلو وتهبط . طفا كيانها ، الذي خفّ وتخفّف من تحفّظه ، محوِّماً حول كيانه شجيّ الرائحة . لثمت شفتاه الراجفتان صدرها الراعف ، فعنقها النابض ، ثم صعدتا إلى صدغيها فجبينها ، نزولاً إلى أرنبة أنفها ، قبل أن تلتحما بشفتيها اللتين عضتاه من الحرمان . شقّ صوتُ انزلاق السحاب صمتَ الكون ، فانثال ليلُ المخمل على الأرض ، وسال حبرُه وسط ضجيج جسديهما ، وانصهار أنفاسهما ، مرتقيين معاً غمامةً من الوله المستمكِن والرغبة المستبِدَّة . ظل يعوم في لحمها البدريّ ، يشرب ماءه ، يغرف من شذاه ، يخزِّن منه زاده لأيام كثيرة مقبلات . وهي كانت عطشى لا تريد أن ترتوي دفعة واحدة ؛ جائعة لا تروم شبعاً يثقل معه جسدها

الذي ابتلعته صحراء أيامها . كانت تريد أن تمتلئ به ؛ أن تأخذه فيها ، فلا تلفظه . حتى إذا غادرها جسده أخيراً ، كان نبضه قد انغرس في قلبها .

- خليّك!

ركعت عند قدميه ، فيما كان يسوّي رباط بسطاره . رفعها من الأرض وحضنها ، ووشوشها :

- رَحْ أرجعْلِكْ .

وقف عند الباب الخارجي ، دافناً وجهه في خشبه ، قبل أن يستدير نحوها مودعاً . رأته قمر خائفاً . كان متردداً . تمنت أن يركض إليها ويرتمي بين ذراعيها ، ويقول لها : «خبّيني!» .

- لا تتأخْر عليّ!

أحكم لفّ الشماغ الأحمر فوق رأسه ، جمع أطراف العباءة البنية الداكنة إليه ، ثم فتح الباب . كان قد غاب في عتم الليل ، حين قالت له من فيض دموعها :

- بحبَّك .

هل تعرفين أنك أجمل وأصغر من أن تكوني خياطة؟ لم يزح الرجل الأصلع ذو الرأس المستطيل بصره عنها . «بيقولوا عنك خياطة شاطرة!» ادّعى الدهشة ، فيما جلس وراء مكتبه يقلّب مجموعة أوراق . قصيراً كان ؛ مالت قامته إلى الغِلظة . عيناه شديدتا الزرقة كانتا أبرز ما في وجهه الإسفنجي ذي البياض غير المتجانس والمبرقش باحمرار قريب من ذاك الناجم عن الحكّة . كانت زرقتهما مسرفة ، مصنَّعة ، على نحو يحسب

المرء معه أنهما مستلفتان من دمية بلاستيكية . جلست قمر على كرسي قبالته . دخل عليه أحدهم يحمل إضبارة في يده :

ـ علي بيك! الجماعة بيستنوك .

سدّد علي بيك نظرة حازمة في وجهه قائلاً :

ـ خَلّيهم يسْتنّو!

انسحب الرجل ذو الإضبارة ، مغلقاً الباب وراءه . خلف المكتب ، مال على بيك قريباً من وجه قمر . كشّت قمر مبتعدة ، متفلِّتةً من أنفاسه المعجونة بالسوس الذي لم ينجح في إخفاء آثار تبغ ورائحة فم صباحية مزعجة . سعى إلى أن يجعل الأمر يبدو عادياً بقوله :

– حبّينا نتأكد بس إنو ما في حد من هَذول الكلاب تعرَّضْ لِكْ أو اعتدى عليكِ في بيتك!

ثم أضاف ، مُشفعاً كلامه بغمزة دالة :

– جارتك الست شهلا كانت قلقانة عليكِ!

أخرج من جيبه باكيت سجائر كمال ، قدم لها سيجارة ، ثم أشعل الولاعة أمام وجهها ، وسألها بلهجة ادعى فيها الاستفسار لمجرد العلم بالشيء :

– صحيح شو سجايرك؟!

***

تخال حوّا أنها تسمع دويّاً في السماء . لعلّه الرعد ، تمنّي نفسها . تزيح طرف الستارة ؛ تجوب عيناها سقف الفضاء المتّشِح بغلالة الليل . لكن السماء منحبِسة ؛ لا بوادر مخاض فيها . تجزع . تتمنّى لو أن السماء تمطر ؛ تظلّ تمطر الليلة وليلة غد وما بعد الغد ، وكل الليالي الآتيات ؛ تظلّ تمطر وتمطر حتى تهرق كل الماء في التاريخ .

بضع حبّات مطر ضربت النافذة ، كطلقات سريعات نقز معها قلب حوّا ، قبل أن تتوقف . كان ذلك في ليلة ما قبل حقبة المطر المديدة . لم يلتفت عايد وقيس إلى رصاص الماء ؛ فقد علا صوت شهيّتهما ، التي لا تُسدّ ، على كل ما عداه . حرصت حوّا على أن يتعشيا عندها ذاك المساء ، في دعوة رتّبت لها بعناية . حضّرت لهما صينية دجاج مشوي ، كما طهت داود باشا فائضة بالكفتة المكبّبة العائمة في مرقة البندورة الطازجة وريش البصل ، ورزاً بالشعيرية . مدّت السفرة ، التي شملت أطباقاً جانبية من مخلل الخيار والفلفل والسلطة ، على الطرابيزة الطويلة في غرفة الضيوف الصغيرة ، التي تستقبل فيها زبوناتها النوعيات . حمّمت رابعة وألبستها وأجلستها على الكرسي المتحرّك في الأوضة التي نفضتها ورتبتها من العصر . كانت حوّا ترصد عايد يملأ طبقاً ثانية من الرزّ ، يسكب فوقه نصف دزّينة من كرات الكفتة ، فيما أتى قيس على دجاجة كاملة ، حين قالت لهما إن أحدهم تقدّم لطلب يدها . تباطأ الطعام في فم عايد ، فيما تناثر هيكل ما تبقى من الدجاجة

في طبق قيس. رفعا بصرهما ناحيتها. تابعت حوا دون أن تنظر إليهما، تُفتِّت كرة كفتة وتمعسها في الرز المغمور بمرقة البندورة وتلقم رابعة، التي كانت عينها ترجف زيادة فيما تطالع ابنها وحفيدها.

منير، اسمه، قالت لهما حوّا، ثم استدركت: «أبو ليلى». عمره أربعة وخمسون عاماً، أرمل. مسحت فم رابعة من آثار مرقة البندورة، ونفضت بضع حبات أرز معلَّقة على ذقنها. بدت متشجِّعة أكثر إذ نظرت إلى عايد تخبره أن أبو ليلى يبني بيتاً على قطعة أرض في عين الباشا؛ وأنه سوف يُسكنها فيه، مع رابعة، و«رَحْ يحطْ رابعة في عيونه»، كما أكّد لها. لوقت قليل، لم تنزح عينا عايد شبه المتجمدتين غير القابلتين للقراءة عنها، فيما كانت عينا قيس قد غادرتاها، مسلَّطتين على وعاء داود باشا الدائري الكبير، الذي تناقصت كرات اللحم فيه كما كادت مرقته تنضب. غافل عيني خاله، وغرف ما تبقى من كرات الكفتة فوق تلّة من الرز بالشعيرية في صحنه. عاد عايد إلى السفرة. ازدرد كرة الكفتة الوحيدة المتبقية في الوعاء، ونهش نصف دجاجة، دون أن ينطق بكلمة. صبّت لهما حوّا كأسي بيبسي من قنينة كبيرة الحجم، أتبعتهما بكأسين أخريين. ثم جلبت لهما جاط فواكه، فيه برتقال وتفاح وموز، فقشرت لكل منهما موزتين وبرتقالة فصفصتها حزوزاً وتفاحة قطّعتها أهلّة. ثم حلَّتهما بكنافة الجبنة بالقطر، ألحقتها بإبريق شاي بالميرمية، ففنجاني

قهوة . لم يتحدثا ، ولم يحاولا الالتقاء بعينيها ثانية . حين وقفا ليغادرا ، لم تخفِ حوّا حيرتها . لم يسألاها عن منير . لم يستفسرا عن أشياء كثيرة كان من المفترض أن يستفسرا عنها . لم يبدُ عليهما أنهما يرفضان الأمر ، لكنهما في الوقت عينه لم يبديا موافقةً أو قابليةً لمناقشة الموضوع . بل كأن الموضوع لم يُطرح عليهما من أساسه . استوقفت حوّا عايد ، فيما كان يهمّ مغادراً :

- وموضوع منير؟

علا الاستفهام وعدم الفهم وجهها . أمعن عايد النظر فيها ثم قال لها :

- بعدين بنحكي فيه .

بدت حوّا مُصرَّة :

- بدّو يحدِّد موعد عشان يطلب إيدي منك ومن قيس!

تبادل قيس نظرات مبهمة مع خاله دون أن يتكلّم ، فبدا عايد أكثر إصراراً منها حين ردّ عليها :

- قلت بعدين بنحكي في الموضوع .

ثم أضاف بأنه سمع بأن «مطرة» شديدة ستضرب البلاد والعباد صباح غد ، ويُتوقّع أن تستمر أياماً . «انشالله بصير خير بعدها» ، ثم التفت إليها يسألها : «معك عشرين ليرة لآخر الشهر؟» اعتادت حوّا حين يطلب منها عايد فلوساً أن تناقشه وتحاسبه على ما يبدّده من مالها ومال غيره . هذه المرة لم تناقشه في طلبه . أخرجت من جزدانها ورقة من فئة العشرين ديناراً ،

وأعطتها له . كانت تعيد طيّ بقية الفلوس ، حين قاطعها : «ولا أقولّكْ . . شو رأيك تخلّيها خمسين ليرة؟!» تردّدت حوّا قليلاً ، وهي تَعدّ ما تبقّى معها من فلوس ، ثم ناولته ورقةً أخرى بعشرين ديناراً وورقةً ثالثةً بعشرة دنانير .

«كيفك يمّه؟!» نظر عايد إلى رابعة ، فطالعته مرتابة . انحنى عليها يقبّل رأسها ، فانكمشت في مقعدها . غادر البيت ، يتبعه قيس الذي ظلّ يتحاشى النظر في عيني أمّه .

تعود حوّا إلى العينين الداكنتين ذات اللمعة المختزَنة في الصورة خبيئة عتمة الدرج وغفلة الأيام . تمسح أصابعها الوجه السرّي ، المأخوذ بالحنين ، فتبرق العينان . تُقرِّب الصورة من عينيها ، فتعتقد أنها ترى دمعةً معلَّقةً على ضفة عينه اليسرى .

يعلو رنين الموبايل . يضيء اسم منير الشاشة . لكن حوّا التي تفترش عينيها سحابة كثيفة من الدموع لا ترد . يتواصل الرنين أكثر إلحاحاً .

لم ينقطع رنين التلفون من داخل بيت ست قمر ، فيما كانت حوا تدير المفتاح في الباب . كانت الساعة تسير نحو التاسعة والنصف صباحاً . غسل مطر أيلولي خاطف البيوت والطرقات ، فتصاعدت رائحة الأرض مع السقي الأول والبلل الأول ؛ لقد كانت رائحة شوق طاغٍ وحرمان وطين أضناه عطش التراب . توقف الرنين ما إن فتحتْ حوّا الباب . مع دخولها شهرها الثامن في قيس ، فثقلت كثيراً وأُنهكت ، صارت تترك آية في عهدة رابعة حين تذهب في النهار إلى بيت ست قمر .

صمت ثقيل أطبق على البيت . كانت حوّا تعرف أن ست قمر لا تزال نائمة في هذا الوقت من الصباح ، بل إنها في الآونة الأخيرة ، كانت تظل نائمة معظم اليوم . لكن الصمت كان أكبر من صمت النوم . على الأرض ، لمحت حوّا قطعاً خزفية متناثرة . انحنت فوق قطعة ، حملتها ، وقلبتها بين يديها ، لكنها لم تتبيّن شكلها . مسحت البلاطات بعينيها . قادها قلبها إلى الصالون المفتوح بابه على الصالة . فزعت . امتلأت أرضية الصالون بقطع الخزف المتناثرة . نظرت إلى خزانة البوفية مشرَعة الأبواب . وضعت حوِّا يدها على فمها تكتم صرخة . كان طقم روميو وجولييت قد تهشّم ؛ تطاير الخزف الصدفي في كل مكان . داست حوّا على جزء محدَّب من فنجان شاي . رفعت قدمها بحذر ، فلمحت وجه جولييت النازف تبحث بِوله عن روميو الذي ضاع وجهه في النصف الآخر المهشَّم . ركضت إلى غرفة نوم ست قمر . خلا سريرها المرتب منها . كان الصمت غليظاً في الغرفة . أيعقل أن تكون ست قمر خرجت؟ وأين؟ تساءلت حوّا بينها وبين نفسها . كانت غرفة الخياطة على حالها ، بأجزاء فستان على طاولة القص ، حضرته حوّا في اليوم الفائت . كان باب غرفة النوم المفردة شبه مغلق . تحرّك قلب حوّا من مكانه . شقّت الباب ببطء ، فلاحت لها ست قمر ممدَّدة جانبياً على السرير المفرد . تفاجأت حوّا حين رأتها مستلقيةً بالفستان المخمل الأسود ، كاشفاً سحّابه غير المغلق ظهرهَا العاري . على الكومودينو الملاصق للسرير ، ارتمت علبة

دواء فارغة . كانت ست قمر تحضن شيئاً بين ذراعيها المتصالبتين فوق صدرها . دنت حوّا منها ، فرأت بين يديها إطار صورة الطفلة ، ذهبية الشَّعر ؛ تكسّر زجاجه ، وتناثرت أجزاء منه على الأرض . تجعّد وجه الطفلة الربيعي وتمزّقت ضحكتها . سحبت حوّا البرواز الخشبي من يدي ست قمر ، فوقعت من ظهره المكشوف صورة بالأبيض والأسود لرجل بعينين داكنتين طويتا لمعة مخزّنة . مال رأسه إلى أحد الجانبين ، متكئاً على يده المضمومة .

«ست قمر! يا ست قمر! اصحْي! ست قمر! اصحْي يا ست قمر! الله يخلّيك يا ست قمر اصحي! من شان الله يا ست قمر اصحي!» . هزّتها حوّا . ارتفع رنين التلفون في الصالة بإلحاح . «اصحي يا ست قمر! من شان الله اصحي! أبوس إيديكي اصحي!» هزّتها بقوة أكبر . لكن الصمت ابتلعها . تواصل رنين الهاتف بإلحاح ، متداخلاً مع صراخ حوّا «اصحي يا ست قمر! اصحي ، الله يخلّيك اصحي! عشاني اصحي!» .

كانت قمر قد انطفأت تماماً .

رنين الموبايل لا يتوقّف . تتجمّع على شاشة الموبايل المغبَّشة أربع مكالمات من منير لم يتم الردّ عليها . تنظر حوّا من شقّ ستارة النافذة إلى السماء التي ليَّلَت بسرعة ، وتبكي ؛ تبكي كثيراً . عيناها تغرقان في مطر عينيها السيّال .

(٨)

طنجرة البامية المطهوّة منذ الصباح، والمبرّدة، تجلس فوق نار هادئة، غير متعجّلة، لتسخينها. تتصاعد رائحة أصابع البامية الصغيرة المسبّكة بمرقة البندورة المُدسَّمة باللحم. تحمّص حوّا في طنجرة ثانية كمشتي شعيرية في ملعقتي سمن، ثم تضيف الماء والأرز والملح، فتتعشّق سماء المطبخ الواطئة بالبخار النشوي الممزوج بنكهة السمن. تحكم إغلاق الطنجرة تاركةً الرزّ كي يستوي على مهله تحت نار ضامرة.

تتفقّد حوّا رابعة. تراها غافية؛ رأسها مدلّى إلى الأمام، شبه مقطوف، يكاد ينقصم من غصن رقبتها الهزيلة ليسقط فوق صدرها، فيما تقع صور الشاشة الهادرة وأصواتها الخافتة على آذان وحيطان صماء. تحرّك حوّا ذراع السرير فتنفرج زاويته تدرجياً حتى يغدو مستقيماً. ترفع جسد رابعة الساحِل أعلى السرير وتعدّل رأسها على الوسادة. تفتح رابعة عينيها شبه وجِلة، قبل أن تطمئن إلى وجه حوّا وجسدها يسوِّرانها. تغمض عينيها ثانيةً وتغفو منفردةَ الوجه. تدثّرها حوّا ببطانية من الصوف فوقها لحاف ثقيل. ثم تغلق التلفزيون، فتنثال العتمة في الغرفة، إلا من عيني صوبة الغاز الحمراوين، تبحلقان في قلب الظلمة، ونور ليلي باهت يتسرّب إلى الغرفة

من قماشة الستارة الرقيقة . تغادر حوّا الغرفة ، تاركةً الباب موارباً . تعاين ساعتها للمرة المئة . لا تزال تقف عند ما بعد الثامنة بدقائق . الليل المنهمر في الشارع يعمّ مشاعرها ، ويستشري فيها . رغم النيونات البيضاء التي تضيء مدخل البيت والمطبخ وغرفة المعيشة ، تشعر حوّا بأنها تقع في الليل ، وأنها تتدحرج في قعر الليل إلى ما لانهاية . تمضي إلى المطبخ . تطفئ عيني الغاز المشتعلتين تحت طنجرتي الرزّ بالشعيرية والبامية . تظلّ مرقة البندورة تبقبق لثوانٍ قبل أن تهدأ . رائحتها ، التي نخّت فيها الدسامة ، يغمُق بها الهواء المكتوم في المطبخ .

تتضاءل الأصوات في الخارج تدريجياً . الخطوات تتناقص ، ومعها تسكن الحشرجات ونوبات السعال المتواترة وتدافش الأكتاف الصغيرة في اللهو وفي الشجارات في الأزقة . هدوء مريب ينتاب الطريق ، والبيت يسقط في صمت سحيق .

لا تحبّ حوّا بيتها . لكنها تكرهه أقل من البيت الأول مع نظمي ، ومن بيت أهلها . في بيت أهلها ، لم تحبّ حوّا نفسها . في بيتها الأول مع نظمي ، كرهت حوّا البيت وكرهت نفسها . في بيتها الثاني مع نظمي ، في الفصل الأخير من حياتها معه ، لم تعد حوّا تفكر بالحب والكراهية ، خاصة حين كانت نايفة تمتطيها فتجرش لحمها وعظمها ، أو تعتصر عنقها بيديها فيما تراقب طلوع الروح من عينيها . كانت حوّا في تلك اللحظات التي تفصلها عن موت أكيد تفكّر في أنها لا تزال

تريد الحياة ، وهو أمر هي نفسها كانت تستغرب منه ؛ إذ كيف لها أن تحبّ الحياة في الوقت الذي لم تحبّها الحياة فيه؟ لكن حوّا كانت تريد الحياة غصباً عن الحياة نفسها .

كانت حوّا منكبّة فوق الماكينة بالرتابة اليومية ، التي تجعلها تنجز الأشياء دون تفكير ، حين دخل عليها نظمي آخر النهار ، مكتفياً بالوقوف قبالتها ، محدّقاً . واصلت حوّا الدوس على رجل الماكينة حتى انتهت من حياكة جهة جانبية لفستان . حين أقفلت الدرزة المتّصلة ، رفعت قدمها ، فتوقفت الماكينة عن الدوران . سألت نظمي دونما اهتمام :

- خير انشالله؟

بادلته النظرات ، دون أن تقرأ - كما نجحت في مرات عديدة - ما في باطنه أو تفك مغاليقه سهلة الفكّ . لم يكن يريد فلوساً ، كتفسير مطلق ، ولم يكن غاضباً عليها ، أو مدّعياً الغضب ، لكلّ الأسباب الموجبة وغير الموجبة ، ولم يبدُ ناقماً عليها أو مستضئلاً لها ، ولم يبدُ أنه يفكر فيما يريد أن يقول ، كما لم يبدُ أنه يريد أن يبدو ذكياً أو متذاكياً ، محاولاً أن يتجاوز مسحة الغباوة المنطبعة على وجهه كمعلَم أصيل أو تقسيمة أساسية فيه . بعد صمت طويل ، قال لها أخيراً :

- رَحْ أطَلّقِك .

ثبتّت حوّا الجهة الثانية من الفستان تحت إبرة الماكينة . عند بداية خط الدرزة ، حركت طارة الإدارة وأنزلت الإبرة عند نقطة البدء ، ثم أنزلت دوّاس الإبرة على القماشة لتمكينها ،

وانطلقت رِجلها على دواسة الموتور السفلية في حركة سريعة ، متواصلة ، واثقة ؛ يدها تسحب القماشة فيما يتشكّل خط الدرزة باستقامة . سقطت نقطة ماء على القماشة الحريرية الليمونية ، فاغمقَّ مكان البلل الشفيف ، تبعتها نقطتان . كانت عينا حوّا تدلفان ماء .

لم تبكِ حوّا لأن نظمي طلّقها بعد عشرين عاماً من اقتياته على روحها ، التي صمدت بأعجوبة . لم تبكِ حوّا لأنه أخيراً كان سيتركها أو سيترك بواقيها . بكت حوّا لأنّ الأشياء الجميلة تأتي متأخِّراً ؛ بكت لأنّ نظمي كان يمكن أن يسطو على حياتها عُمراً أقل ؛ بكت لأنه كان يمكن أن يمتطي لحمها قَدْراً أقل ، وقَدَراً أقل ؛ بكت لأنّ المرارات التي أثخنت قلبها كان يمكن أن تكون أقل بكثير .

لا تذكر حوّا أنها عاشت يوماً حلواً مع نظمي ، أو يوماً ليس مُرّاً تماماً ، وحين تعصر أيامها القاهرات معه ، لا تستطيع أن تستدعي لحظة دفء . لا تذكر أنهما تحدّثا معاً في أي شيء مهما كان تافهاً ولا قيمة له لكن محصِّلته النهائية إنسانية ؛ لا تذكر أنهما تضاحكا معاً أو فرحا معاً أو تشاطرا رغيف الخبز بدافع الحب أو أي شيء قريب من الحب ، كالعطف ربما أو الإشفاق .

عصفت بها معه رياحٌ هائجةٌ وأتربةٌ ناشفةٌ وأمطارٌ ضاريةٌ ومجاري طافحةٌ على الدوام وعفونةٌ مُرنَّخةٌ وعرقٌ مُتزنِّخ . معه كانت حوّا تَمحُل . وحين كان يهبط فوقها ، كانت تستحِثّ

جسدها كي يتخدَّر فيما تُدخِل روحها - عنوةً - في غيبوبة ، فتقارب الموات شبه التام ؛ حتى إذا بصق ماءه فيها ، ركضت إلى الحمام كي تلفظه خارجاً ؛ تشخُّه ، معتصرة رَحِمَها حتى آخر قطرة .

لم يشترِ نظمي سريراً آخر بعد ذاك الذي حطّمته حوّا وأحرقته . في البداية ، استعاض عن سرير الزوجية بفرشتين مخسَّفتين ، كان يلصقهما بجوار بعضهما مؤقتاً ، فإذا ما نهض عنها ، أزاحت فرشتها بعيداً ، فيما بدا ترتيباً مريحاً لكليهما . ثم حين دخلت آية حياتها ، وتبعها قيس ، صارت حوّا تنام وسط صغيريها ، وصار نظمي ينام على الطرّاحة في الغرفة الثانية أمام التلفزيون . لكنه كان يهبّ على حوّا النائمة ، ينتعها من فراشها ويحشرها تحته على طراحته الضيقة ، فتنزف روحها في كل مرة ، كأنها أول مرة وأقسى . وحين انتقلا إلى البيت الثاني ذي الغرف الثلاث ، خصَّصت حوّا غرفةً لآية وقيس ، بعدما قسّمتها إلى نصفين بساتر خشبي . وصارت هي تنام مع جدّتها نايفة في الغرفة المخصَّصة لها . وفي الليالي التي لم تكن تنزل فيها نايفة من سريرها لتدعس حوّا بقدمها الغليظة ، فإن نظمي كان يركلها بقدمه مجرَّحة الحواف ، مُقسّاة الأظفار ، ويدفشها دفشاً إلى الغرفة الثالثة ، المفتوحة على المدخل المؤدّي للباب الخارجي ، والمصنَّفة كغرفة معيشة وغرفة طعام وغرفة ضيوف ، فيرتمي فوقها على الطرّاحة ، بينما ترقب حوّا كيانها يُراق .

صُعقت حوّا حين حملت بعد شهور من ولادتها قيس . كانت لا تزال ترضعه . عبَّت طوال أسبوع عشرات الليترات من شراب البقدونس المغلي ، كما اقترحت عليها أم سعيد ، وانتظرت انقباضات المغص ، فالتسقيط المُبتغى ، فلم يحدث شيء . ثم قيل لها إن الأقراص المسهِلة قد تجهضها ، فابتلعت دزينةً منها على مدى يومين ، شعرت خلالها أن أعضاءها الداخلية كلها ذابت في سيل برازها ، حتى لم يتبق شيء في جوفها المهروق ، بل إن وجهها جفّ وهزُل ، وساقيها ارتختا وعينيها كادتا تنشقّان من محجريهما . لكنها لم تشخّ قطرة دم واحدة ، مأمولة . إحدى زبوناتها دلّتها على عيادة خاصة في جبل عمّان تُجرى فيها عمليات الإجهاض دون تسجيل اسم الحامل أو أي بيانات عنها ، ودون أن يسأل أحد «إيش وليش» . فركت الزبونة رأسي إصبعيها معاً ، فتخيلت حوّا أن العملية ستكلِّفها الكثير . لم يكن أمامها سوى أم عمر ، الداية التي تقاعدت عن التوليد منذ زمن ، واكتفت باستقبال النسوة ، ومعظمهن غريبات عن المخيم ، لتجهضهن ، إذ يأتينها مُغطّاة الرؤوس ، مطئطات الوجوه ، مؤثرات الليالي الساترة على النهارات الفاضحة . على ضآلة بنيتها ، التي ضمُرت أكثر بفعل سنوات عمرها السبعين ، كانت أم عمر قوية . يداها ، اللتان تجعَّد لحمهما ، أمعنتا ضغطاً وتدليكاً في بطن حوّا . اختارت نقاطاً استراتيجية غرزت فيها أصابعها ، قبل أن تحشد ضغطاً تصاعدياً بدأ من الخواصر لينتهي عند سفح العانة . بين

عملية تدليك وأخرى ، كانت تسقيها شراباً أصفر كدِراً ، ذا مرارة ، تشعر حوّا برغبة ماسة كي تتقيأه ، لكن أم عمر شدّدت عليها كي تتحامل على نفسها ، واعدةً إياها بأن خلاصها قريب . بعد ساعة أو يزيد من التدليك الموضعي ، العنيف ، المتقطِّع ، دخلت حوّا في شبه إغماءة . مسحت أم عمر سيل العرق على جبينها ووجهها ورقبتها ، ثم دنت منها وبشّرتها : «الحمد لله ع سلامتك» .

كان نظمي ينام في غرفة المعيشة . وحين لم يكن يستقبل رفاق السجائر وأكواب الشاي المتناسلة في المساءات الخاملة ، يظل منطرحاً على طراحته أمام التلفزيون حتى ينقبر . وضعت حوّا ماكينتها في غرفة آية وقيس ، تحديداً في الشقّ الخاص بآية من الغرفة ، لتعمل عليها . لم يتوقف قيس وآية عن الشكوى من غرغرة موتور الماكينة ؛ ولم تتوقف نايفة عن الطرق العنيف على باب غرفتها الموصد والصراخ على «الشرموطة» ، أي حوّا ، كي تفتح لها ؛ كما لم يتوقف نظمي عن مناداة «بنت الحرام» ، أي حوّا ، كي تطهو له قلاية بندورة بالبيض ، إذا عنّت على باله آخر الليل .

لم تسأل حوّا نظمي : لماذا الآن؟ كان يمكن أن يطلِّقها من زمان ، من زمان جداً . وكانت ستبكي أقل ، وربما ستفرح أكثر ، ولم تكن المرارة حينها قد استحالت دُمَّلاً صديدياً متعاظماً في القلب . على الأرجح أن نظمي شرح لها دوافعه في تلك اللحظة . ولعله قال كلاماً كثيراً ، ومن المحتمل أنه كان مباشراً

في تبيان أسباب قراره ، لكن حوّا لم تسمع سوى طشاش كلام ، إذ إنّ صفيراً عظيماً طنّ في رأسها ، اختلط بصوت نحيب احتبس في صدرها ، كما تقاطع معه زعيق نايفة في غرفتها ، ترفس الباب بنقمة ، وتنادي عليها : «افتحي الباب يا شرموطة!» .

حاول لطفي أن يتدخل في الموضوع ضد رغبة حوّا . اعتقد أنه يعرف دواء نظمي ، فعرض عليه أن يزيد قيمة المساعدة الشهرية التي يمنحها له لرعاية نايفة . لكن نظمي ظل ثابتاً على موقفه ، وهو أمر أدخل بعض الارتياح في نفس حوّا . ولولا أن حوّا أدرى بطينته الخسيسة ونفسه الدنيّة ، لخالت أنه مغرم . تزوّج نظمي فريحة ؛ أرملة تكبره بخمس سنوات تسكن في شقة تملكها في أبو نصير . كانت امرأةً جميلة في صباها . وظلت تحمل ظلال فتنة حتى حين قطعت أربعيناتها وطرقت خمسيناتها . كانت في عشريناتها حين ترملّت ، زوجةً ثانيةً للمرحوم ، لم يعطها ولداً يشفع لها ، لكنه ترك لها مالاً معقولاً نفعها كثيراً ؛ فتزوّجت وطلّقت ثلاث مرات بعدها ، وفي كل زيجة كان يخرج زوجها الطامع في قرشها كما دخل ، بهِدْمته الأصلية وربما أقل قرشاً مما كان لديه أصلاً . بل يقال إنها استوقفت زوجها الثالث ، الذي بالكاد صمد معها ستة شهور ، عند باب شقتها ، وطلبت منه أن يخلع حذاءه الذي اشترته له وناولته حذاءه القديم الذي دخل به .

توقّفت فريحة في الملحمة التي يعمل فيها نظمي ذات

صباح ، وأشارت إليه ، خصّاً نصّاً ، كي يقطع لها نصف خروف بلدي . أُخذ نظمي بعيني فريحة ، كثيفتي الكحل ، الغامزتين من تحت نقابها . كانت فريحة تراقب ذراع نظمي تنزل على الذبيحة ، التي فاحت منها رائحة دم حديث بإعجاب لم يغب عن إدراك نظمي . تلاحقت أنفاسها أسفل نقابها فالتصقت قماشة النقاب الحريرية السوداء بفمها ، محدداً معالمه ، فارتفعت درجة السخونة في جسد نظمي ، ليغالي أمامها في استعراض مهاراته في الجزارة . بعد زيارات عدّة للملحمة ، رفعت فريحة النقاب عن وجهها ، فلم يخيّب وجهها الدافق بوفرة الحياة والذي تغلّب على الزمن ظن نظمي . عضّت شفتها السفلية ، شديدة الانتفاخ ، فأيقظ شرهها للرجال خيالات نظمي التي فضحتها نظراته . عرضت فريحة عليه أن يدير ملحمة اشترتها في صويلح مؤخراً . عرضت عليه كذلك أن يتزوجها ، كي يحافظ على مالها ، لكنها اشترطت ألا تشاركها فيه امرأة أخرى . اعتقد نظمي أن الحياة أخيراً صارت كريمةً معه ، بل أكرم بكثير مما كان يأمل . ظل يعمل في ملحمة فريحة تحت عينها اليقظة ، التي عزّزتها عيون صبية المحل ممن كانوا يتجسّسون عليه لصالحها . بل إنه لم تكن تدخل الملحمة ذبيحة أو تخرج منها من دون علمها . وحين كان يأتيها آخر اليوم بالغلة ، تسائله بشأن رطل اللحم الذي باعه لأحد معارفه ، بالدين ، والفشّة التي أعطاها لابنه قيس . وبينما سمحت له بأن يركب سيارتها الكيا ، التي اشترتها جديدة من

الوكالة ، فإنها كانت تقيس مؤشر بنزين السيارة يومياً ، حتى إذا نقص عن معدل الاستهلاك المتوقَّع للمسافة بين البيت والملحمة ، حاسبته بشدة . فصار أقاربه يتندّرون عليه بأن فريحة «تركبه» و«تنيكه» ببلاش .

برحيل نظمي ، صار البيت بالنسبة لحوّا أكثر قابليةً لأن يُعاش فيه . صباحاته خفّ تجهُّمها ، وكذلك لياليه التي صارت أقل كدراً وانقباضاً ، حتى مع تزايد عنف نايفة . كانت حوّا سعيدة وهي تنظف البيت مع آية ؛ غسلتا الستائر ؛ وفركتا الحوائط من آثار دخان السجائر والأنفاس البلغمية ، الداكنة ، المترسِّبة ؛ وليّفتا طقم كنب الموريس . نقلت حوّا ماكينة الخياطة إلى غرفة المعيشة ، واشترت طاولةً للقص وخزانة لأقمشة الزبونات وأشغال الخياطة . لكن اللحظة التي اغتبط لها قلب حوّا أكثر من أي وقت آخر عندما طوت طرّاحة نظمي الثقيلة مع وسادتيه وبطانيته ولحافه ، وحملتها جميعها في لفافة ضخمة على ظهرها ، أسندتها على كتفها بيد فيما حملت في اليد الأخرى إبريقاً بلاستيكياً صغيراً ، وخرجت في صباح ، شمسه حانية وهواؤه صاف ، تمشي في الزقاق برشاقة وخفة ، كما لو كانت تحمل عصفوراً على كتفها . لم تشعر حوّا بطول الطريق ومشقّته المعتادة من البيت إلى ساحة تجميع القمامة ؛ ولو أن الزمان غير الزمان ، والمكان غير مكانها القاهر لرقصت . «على فين يا أم قيس؟» نادت عليها جارتها أم سعيد ، التي كانت تنشر الغسيل على سطح بيتها . لكن حوّا تابعت سيرها مستسلمةً بانشراح لشقشقة

إيقاع وثّاب عزف في روحها : «هَيْك مَشْق الزعرورة يا يُمّه هَيْك ، هَيْك بْتِمشي الأمّورة يا يُمّه هيْك ، هَيْك مَشْق الزعرورة يا يُمّه هَيْك ، وهَيْك بِتْغَنّي العَصْفورة يا يُمّه هَيْك» . ببعض الخيال الذي لا يضرّ ، رأت حوّا نفسها تحجل على الإيقاع الخفي . تجمّع بعض الصِّبية حولها ؛ عرضوا عليها أن يساعدوها في حمل متاعها ؛ «عنِّك يا خالتي!» لكنها رفضت ، مُظهرةً قوّة وتحكُّماً وثباتاً . بين بيتها ومكبّ القمامة ، قطعت حوّا مسافة عشر دقائق ، أو أكثر قليلاً ، لم تخُر خلالها عزيمتها ، بل كأنها غدت أطول وأعلى ؛ باسقة ومنيفة ، حتى إن الصِّبية هابوها فأفسحوا لها الطريق الضيقة . حين بلغت غايتها أخيراً ، ألقت الجبل الهائل فوق كتفها على الأرض بالقرب من إحدى حاويات القمامة المعدنية ، مسودة الجدران . تفزّرت اللفافة ، فتناثرت محتوياتها . جمعتها حوّا إلى بعضها وكوّمتها بقدمها ، ثم سكبت فوقها كازاً ، وأشعلت عود ثقاب . هبّت النار مسعورة ؛ وارتفع اللهب كعمود ، ما لبث أن تقزّم وتضاءل مع انكماش الكومة ، التي غلب على نسجيها البوليستر . في مساء ذاك اليوم ، طبخت حوّا صينية كفتة مشوية بالبندورة ، شاركها فيها آية وقيس . حتى نايفة جلست معهم على العشاء ، وكانت أقل عنفاً - على غير العادة . كانوا جائعين ، كأن الطعام لم يدخل بطونهم منذ زمن طويل ، فأكلوا بنهم ، حتى إذا شبعوا ، تنزّلت عليهم سكينةٌ غريبة ، كأنها نوع من الكشف ، وللحظة ما خالوا أنهم وقعوا أخيراً على معنى الفرح .

حاولت حوّا أن تحبّ البيت ، وأن تكون سعيدة ، هانئة وآمنة ، بعدما اقتلعت كل أثر لنظمي فيه . دهنت الحيطان ، وغيّرت الستائر . نجّدت طقم الموريس . أعادت ترتيب غرفه مرة ومرّات ، ووضبّته حسب متطلّبات نايفة ثم رابعة . وحين غادرت آية ، فقيس ، حولت غرفتهما إلى صالون وضعت فيه طقم كنب مستعملاً تستقبل فيه زبوناتها الأكثر رفاهيةً اللاتي يأتينها من خارج المخيم .

في ليلة ، جاءها نظمي . كان ذلك بعد ثلاثة أعوام من تطليقه لها . وقف أمامها مستذلاً قال لها إنه اشتاق للبيت . وضعت حوّا قدمها على عتبة الباب نصف المغلق . «هاظْ مَعَدِشْ بيتك» ، قالت له . لكن حوّا كانت تعرف أن البيت ليس بيتها أيضاً ، وأنها مهما فعلت وسَوَّت ، لم تكن تستطيع أن تشعر بأنه بيتها ، كما أنها مهما سعت واجتهدت فإنها لم تكن تستطيع أن تمحو فصول الآلام العِظام المسطَّرة على بلاطاته الباردة وحيطانه الرطبة ، الدبقة . على طول زمنها الممتدّ فيه ، لم تحسّه سكناً . حين كانت تتركه في الصباح ، لا تشتاق للعودة إليه آخر النهار ، تماماً كما لم تكن تتوق للعودة إلى بيت أهلها في صباها المنتهَك وبيت الزوجية الأول الذي سُفحت فيه سنواتُها الفتية . كان أحسن من بيوت كثيرة في المخيم ، وكان أشرح بكل تأكيد ، وأكبر ، وأنظف ، فيه وفرةٌ معقولةٌ في الخبز والماء والنوافذ المفتوحة على سماء أقل اختناقاً . دخله البرتقال والتفاح والعنب والموز والرمان ، وكذلك الخوخ والبرقوق

والمشـمش والدرّاق وحـتى الفـراولة في فـورات الاشـتـهـاء ؛ طقطقت فيه حبّات الكستناء وهسهست البطاطا الحلوة على نار الشيّ غـيـر اللحوحـة ؛ فـاحت فـيـه رائحـة المسـتكة والزنجـبـيل والقرفة وماء الورد وماء الزهر ، وطافت في جنباته نشنشة الحرير والشيفون والساتان ؛ نعم والمخمل أيضاً . استيقظت فيه فيروز مبكراً ونامت متأخراً ، وظل صوتها في الصباحات كما في الليالي نديّاً ، نقيّاً ، فجعلت صباحاته محتملة ولياليه أقل ضنكاً . لكنه في النهاية ، كان بيت مخيم . وفي الخلاصة ، كان بيتاً حزيناً .

وعـدها منيـر بأن يجـعلهـا تحبّ البـيت الجـديد في عين البـاشـا . أكـدت لـه أنهـا تريده مـثل بيت درّة العين الذي بناه فارس لها ؛ شيّده من حلمها .

سوف يكون بيتها ، وسوف يبنيه منير لها كما رسمته في خيالها . وسوف تكون له حاكورة صغيرة ، مسوَّرة ، وسوف تزرع فيها أشجار ليمون وتفاح وتين وعناب ومشمش وخوخ . وطبعاً ستكون فـيـه معرشـة عنب ، مفـرودة كـسمـاء خضـراء تعتلي أحـواض الورد والقـرنفل والبنفسج والنعناع والريحـان ، فإذا ما جلسا تحت المعرشة في الصيف انتشيا بمزاج النسيم العابث . لن تحمل معها أثاثها القديم في بيت المخيم . حسناً ، سوف تأخذ ماكينتها معها . لكنها لن تنحني فوقها ساعات طويلة . سوف تخيط أقل ، وقد لا تخيط إلا لنفسها . سوف تسدّ شهوتها الدائمة للمخمل ، ومزيد من المخمل بعدها ، يليها مخمل ،

فمخمل ، ومخمل ، ومخمل .

في هدأة المساء ، تبدو حوّا أقل قلقاً . تريد أن تقتنع أن الحياة تخبّئ لها ليالي ساكنة ، دون أن تكون متحفّزة بالضرورة ، ودون أن تستكثر عليها فرحاً مُرحّلاً . تعاين شاشة الموبايل ؛ خمس مكالمات من منير لم يتم الردّ عليها . عيناها تطوّقان الشاشة الصغيرة ، فيما ينفرج وجهها وهي تضغط على اسم منير ؛ فيضيء الاسم في قلب الشاشة . تنتظره يردّ عليها . سوف تقول له :

- بَحبّك .

***

كان ذلك قبل عامين حين وقع ما وقع فجأة . كانت حوّا تقف عند نزلة صافوط عندما هبّت عاصفة هوجاء اختضّت معها أبدان البشر في الطرقات ، واهتاجت رؤوس الأشجار ، وبعضها كادت تتمزّع وتنفصل عن أجسامها الجذعية ، فيما لاح وكأن الأرض تُثقب بضراوة . ظنّت حوّا أن السماء تمطر حجارةً من زجاج فغطّت وجهها بيديها كي لا يتجرّح . لكن الحجارة تكاثرت بسرعة جنونية ، فرجمتها من كل الجهات ؛ معظمها كان أقرب إلى حصيات صغيرة ، مدبّبة الرؤوس ، بقوى جلمودية مخيفة . حين فتحت عينيها أخيراً ، شاهدت السماء في الأعلى مغتمّة ، فيما تجمع البَرَد ، الذي تواصل

هطوله ، كحبّات نفتالين مشكلةً بطانيات رقيقة من البياض الهش افترشت الأرض . اقتربت منها سيارة كحلية ، تباطأت سرعتها ، غمزت لها أضواؤها الأمامية مرتين ، قبل أن تتوقّف . مال السائق ناحية المقعد المجاور له ، ثم فتح الباب وقال لها : «اركبي يا أم قيس» .

كانت حوّا لا تزال تنفض آثار هلعها من هجمة صخور البَرَد التي دهمتها في منتصف نهار كانوني ، ملتقطةً أنفاسها تدريجياً ، حين انتبهت إلى أنها داخل سيارة خصوصي ، تركب مع رجل لا تعرفه ، وتجلس في المقعد المجاور لمقعده ، وتبدو قريبةً منه ، قريبة جداً حدّ أنها تشمّ رائحة الصابون النابلسي الفائحة من وجهه وتميِّز بجلاء شامةً كبيرةً في جانب رقبته ، كما تكاد تحصي النمش البنّي الفاهي الذي يغشى ظهر كفّه السمراء المثبتة فوق المقود . لم تحسّ مع ذلك بالقلق أو الاضطراب ، ولم تنكمش على ذاتها توجّساً من نظرة مريبة تمتد إليها ، ولم تقل لنفسها إنها ربّما ارتكبت غلطةً فظيعة ، ولم تفكر بأن تترجّل من السيارة ما إن تكفّ السماء عن قذف حممها الباردة . لم تشعر حوّا للحظة بالتهديد برفقة الغريب ، الذي احتاجت إلى وقت قبل أن تدرك أنها لم تسأله السؤال الأهم الذي يجب أن تطرحه عليه : كيف عرف كنيتها؟ سيارته الهونداي التي يعود موديلها إلى أكثر من عشر سنوات كانت بحالة جيدة ؛ عكست انسجاماً وتفاهماً بين الروح المعدنية للمركبة التي تقطع الإسفلت ، تجابه حجارة البَرَد والهواء الشرس والمطر المصلْصِل

بثبات ، وروح صاحبها البشرية . مقاعدها كانت نظيفة وفرشها متماسكاً . وحتى الأرضيّات لم تحمل أي أثر لأتربة أو قاذورات ؛ ما جعل حوّا ، لا شعورياً ، ترفع قدميها ، متفقدةً أسفلهما ، ليُطمئنها الرجل ، الذي لاحظ حرجها ، بنظرةٍ عابرةٍ غير متلصّصة بألا تلقي بالاً للأرضية . تدلّت من المرآة مسبحة خشبية ، أضفت على جوّ السيارة الدافئ إحساساً يشبه السكينة المنزلية ، عزّزه جوّ السيارة الداخلي العابق برائحة الورد حبيس زجاجة معطّرٍ جو مثبّتة على التابلو الأمامي .

بصوته الخميل ، توجّه إليها :

- يعني ما سألتيني كيف عْرِفْتِكْ!

كان في بحر النصف الأول من خمسينياته ؛ طويلاً ، دون أن يكون ضخماً ؛ ممتلئاً دون فجاجة ، باكتناز ، وبعض الترهُّل المرتبط بالعمر . ارتدى بنطلوناً فحمياً وقميصاً زهرياً فاتحاً مقلّماً بالسكُّري وفوقه جاكيت أسود . وقعت عين حوّا على حذائه ، فلم تفتها ملاحظة جلده الأسود ، الململَّع بالبوية ، ورباطه الرفيع المعقود بعناية . كان نظيفاً ومرتباً ؛ هذا مؤكد . وبخلاف الصابونة النابلسية ، فحّت ملابسه آثار الغسيل والكيّ مختلطةً برائحة عطر بصدى عنبري خافت . شعره الرمادي الخفيف الممشّط إلى الخلف أضفى على وجهه اتساعاً عزّزه جبينه العريض . شاربه المهذّب الذي كان يماثل شعره لوناً وقع موقعاً وسطاً بين الكثيف والرفيع . «أبو ليلى» ، قال لها كنيته بابتسامة عريضة طبعت وجهه . ثم كأنه تراجع قائلاً : «أو أبو نجاتي» ،

ليمتشق وجهه بعض الجديّة قبل أن يستعيد بشاشته .

امتلأت نفْسُ حوّا باطمئنان غير متوقَّع . شعرت بألفةٍ داخل السيارة ، التي صدّت نوافذها المغلقة سعارَ الطبيعة في الخارج . ترقرق صوت فيروز بـ«قدّيْش كان في ناسْ ، عالمَفْرَقْ تُنْطُر ناسْ ، وتِشَتّي الدِّني ويَحِمْلو شَمسيِّة ، وأنا بإيّام الصَّحُو ما حَدا نَطَرْني» . شعرت حوّا بأنها في مكانها الحقيقي الذي تعرفه منذ مئة عام دون أن تضجر منه أو يضجر منها . كانت السيارة هي يوم صحوها وهي شمسيّتها ، ولم تعد تحتاج أن تنتظر أحداً . رفع أبو ليلى الصوت في مسجّلة السيارة درجة ، فبانت الصورة المتحرِّكة في الخارج ، فيما كان الهواء والماء يعصفان بكل شيء ، خلفيةً مناقضةً مثاليةً للفيروزية المسكِّنة . استكنت حوّا في مقعدها ، مسلِّمةً نفسها للرفقة والطريق واحتمالاتهما . تمنّت لو أنها تظل أسيرة مكان السيارة وزمان السيارة .

حين أوقف منير السيارة عند باب بيتها ، استغربت حوّا سرعة الوصول ، بعد ثلاث فيروزيات وكلام كثير . اصطبغ وجهها بحُمرة شيفونية فاهية ، من دفء السيارة وبعض الحياء . طوى الهواء عصفه وكظمت السماء المطر ، على الأقل في تلك اللحظة . تردّدت قليلاً قبل أن تنزل من السيارة . استدارت ناحيته قائلة :

– شكراً يا أبو ليلى .

رفعت وجهها إلى السماء المتحفِّزة لشحذ مزيدٍ من

عواصف الماء ، ثم غمرته بعينيها المترقرقتين ، مضيفةً :

- أنا انبسطت كتير .

ابتسم قائلاً :

- وأنا انبسطت أكتر .

في الطريق ، حكى لها منير ، الذي يسكن في مخيم البقعة أن ابنته ليلى ، التي تسكن في السلط ، تخيط عندها . ثم التفت ناحيتها مازحاً : «على ذمّتها ، بتقول عنِّك خياطة شاطرة!» غطّت حوّا فمها بيدها تلجم ضحكتها . عصرت عينيها ، محاولةً أن تتذكّر زبونة اسمها ليلى ، فأنشط منير ذاكرتها باستحضار كنية ابنته ؛ «أم رامي ، عرفتيها؟!» اتقدّت عينا حوّا علامة التذكُّر . ثم لاحت صورتها في ذهنها بوضوح أكبر : «حلوة ما شالله عليها! عندها شامة بْخَدْها ، شبه سميرة توفيق!» هزّ منير رأسه مؤيِّداً ، متّخذاً صوته إيقاعاً واهناً حمل أثراً لحسرة محتشرة في قلبه : «بتشبه المرحومة أمها!» في كثير من المرّات التي كانت تزوره فيها ، تحرص ليلى على أن تتوقّف عند حوّا ، إما لتعطيها قطعة قماش كي تفصِّلها لها أو لتجري بروفة أو لتستلم فستاناً جاهزاً أو شراشف أو أغطية فرش أو أطقم صلاة أوصت عليها . في إحدى المرات ، أوصل منير ابنته ليلى بنفسه إلى بيت حوّا . صدف يومها أن لمح حوّا تقف على باب بيتها . استغربت حوّا كيف يمكن أن يكون ميَّزها من لمحة عابرة على الباب . استغربت أكثر أنه عرفها في الطريق ، وسط هجْمة البَرَد .

نزلت حوّا من السيارة متثاقلة ، متباطئةً ، وقد لطشتها هبّةُ هواء صقيعية ما إن فتحت باب السيارة . رغم الكلام الكثير الذي جمعهما ، في فضاء مضوّع ببخّات عبير الورد ونفحات صابونية وشذا عنبري خفيف لعطر رجالي ودفء وفير ، فإن حوّا شعرت أن هناك حكياً مازال يجب أن يُحكى ، وكلاماً أكثر يتعيّن أن يُقال . غفت في الليل وهي تفكّر بأشياء كثيرة كان يمكنها أن تقولها له . وحين استيقظت في الصباح ، استعادت طريق السيارة الدافئ ، تحت البَرَد العاصف ثم تحت الماء الأكثر عصفاً ، وكانت متيقّنة أن الطريق كانت تحتمل كلاماً أكثر . في المساء ، وبينما كانت تخيط ، استغرقت في أفكارها عميقاً ، فرفعت رجلها عن الدوّاسة كي تسمع أفكارها التي ابتلعها موتور الماكينة ، ولامت نفسها لأنها كانت ساكتة معظم الطريق ، وربما كل الطريق . لماذا لم تتكلم معه إلا قليلاً؟ سألت نفسها . في اليوم الثالث تاقت له . في اليوم الرابع تاقت له كثيراً . بعد خمسة أيام ، ذهبت لزيارة درّة العين في بيتها بصافوط . اندهشت درّة العين ؛ فهي لم تعتد على حوّا أن تمرّ عليها مرتين في أقل من أسبوع . لكنها فرحت بها مع ذلك . ادّعت حوّا أنها كانت في مكان قريب . شربت عندها الشاي مع قرص كعك بالتمر . كانت تستمع إلى قصص درّة العين وفيرة المتعة ، بعينين متّسعتين وقلب شرِح ، تراقب الوقت في ساعتها يتحرك ببطء أكثر من المعتاد ، مستعيدةً في ذاكرتها - الحاضرة لم تزل - مفاصل الطريق ، قليل الكلام ، فلم تَعلَق في

رأسها أشياء كثيرة جوهرية من حكايات درّة العين. حادت عينا حوّا عن الطريق في رأسها فجأة، متوجِّهة إلى درَّة العين بالسؤال:

- إيمتى عْرِفتِ إنك بتحبّي فارس؟

توقفت درّة العين عن الكلام. خرجت من مزاج القصّ اللاهي بغتة. سافرت عيناها إلى ماضيها. قطعت سنوات وسنوات. استعادت تفاصيل الأسطورة، أسطورتها، ثم رجعت مزغْلَلة البصر والأحاسيس. كانت مندهشة؛ ومندهشة أكثر ما يكون من نفسها:

- تْصَدقي؟! بَعْرَفِش!

كانت درّة العين تجمع خجلها وتضحك وهي تحاول أن ترصد اللحظة بالضبط التي عرفت فيها أنها أُغرمت بفارس، دون أن تفلح في تحديدها.

لكن حوّا ألحّت عليها:

- طيِّب كيف بْييجي الحبّ؟

كانت الساعة تقارب الثالثة بعد الظهر، حين غادرت حوّا بيت درة العين، قاطعةً الطريق إلى الشارع الرئيسي بإثارةٍ كبيرة وشوق حثيث؛ خفيفةً تشعر، رغم البرتقالات التي حمّلتها إياها درَّة العين، ورغم المعطف الصوفي الذي كان يكبّل جسدها. حين بلغت رصيف الشارع الرئيسي، وقفت تنتظر. توقفت بالقرب منها حافلة، ترجّل منها رجلان وامرأة تجرجر طفلاً. أدارت حوّا وجهها بعيداً لا إرادياً، كأنها خالت أن

أحدهم قد يتعرّف عليها . ثم مرت حافلة أخرى تباطأت سرعتها ، أخرج «الكونترول» نصف جسمه من الباب المفتوح ينظر إليها مستفسراً ما إذا كانت تريد الركوب ، لكن حوّا لم تلتفت له . انتظرت نحو نصف ساعة ، ثم شعرت بأن الانتظار في موقعها سوف يجرّ عليها مزيداً من الحافلات . مشت باتجاه أسفل الطريق ، عينها تستدير من وقت لآخر إلى الخلف ، في كل مرة تسمع فيها هدير عجلات سيارة تنحدر من أعلى الشارع وتدنو منها . لكن الإسفلت البارد كان يبتلع الهدير ، واحتمالات الطريق كانت تنسحق تحت العجلات المسرعة ، المبتعدة . بعد ساعة أو نحوها ، كانت الريح الباردة قد خلخلت مفاصل حوّا ، التي لم يفلح معطفها في صدّها تماماً ، وما زاد شعورها بالبرد تلك الصحراء المقفرة التي تمدّدت في روحها ، فكانت مشرعةً لأقسى أنواع الرياح وأعنفها . كانت تمشي باختلال ، وبدت منهكة ، محبطة ؛ حتى إنها لم تهتم لجمع بعض البرتقالات التي تفزّرت من قاع كيس النايلون فتدحرجت على الأرض شموساً مهزومة . «مُشْ مُهِمْ كيف بْييجي الحب ، المُهِمْ إنّو ييجي» ، استعادت كلمات درّة العين . لكنه لم يأت كي ينتشلها من خبْط الريح المتجمّدة ومن أفكارها المضطربة . في الحافلة التي استسلمت لندائها أخيراً ، جمعت حوّا في حضنها ما تبقى من برتقالات وغضب هائل . كانت غاضبة من نفسها ، ولامت نفسها كثيراً لأنها قرأت في رحلة الطريق الأولى أشياء متخيَّلة لم تحدث ، وحمّلتها كلاماً

لـم يُقل ، وكلاماً آخر كان يجب أن يُقال .

بعد أسبوعين ، كـانت حوّا تقف عند دوّار صويلح حين نزل المطر رذاذاً أشـعـث . رفـعـت الشـال الصـوفي مظلةً مـرتجلةً فـوق رأسـهـا . أشـارت لـسـيارة أجرة ، فتجـاهلتـهـا وتجاوزتهـا مسـرعـة . أشـارت لأخـرى ، فتـوقّف سائقـهـا لصـبيـتين ، لعلّهـمـا طالبـتان جـامعيتـان ، توارتا من ماء السـمـاء تحت حقيبتيهمـا . ثم لـم تدرِ به إلا وهو يقـتـرب بسيارته منـهـا بخفـوت ، كـمـا لو أن عـجـلات السـيـارة كـانت تسـيـر بخـفـّة فـوق الماء الخـفـيف الذي أحـال الإسفلت إلى بشرة سوداء لامعة . بدا كأن وجهه وصوته تفتّحا أمام حواسـهـا فـجأة . سـمعت الـكلام الذي اشـتـاقت له أكثر من أيّ كلام آخر : «تفضّلي يا أم قيس» .

جـمـعـت حوّا جنـاحـيـهـا المبلّلين وقـفـزت داخل السـيـارة كطائر يلتمس الدفء والجفاف . عبقت السيارة ، مغلقة النوافذ ، برائحة الورد . نفـحـات الصـابون النابلسـي توارت ، مـفـسـحـةً المجـال أمـام الشـذى العنبري الذي باح جسـمـه به ، والذي ظل عـالـقـاً بأنفـهـا منذ لقـائـهـمـا الأول . اعـتـقـدت بأنهـا نسـيـتـه في الأسـبـوعين الماضيين ، وأن ظهوره في حياتها كـان مباغتـاً ، كهجمة البَرَد ، وإنْ كان أقلّ عنفاً . فبعد الغضب من نفسها لأنها توقّعت ما لا يجب أن تتـوقّعه ، والمرارة التي تفجـرت في روحـهـا المحـرومة ، الموسـومة بالقحط ، أدركـت حوّا أن الأشياء في حيـاتهـا ، كل الأشـيـاء ، لا تُنتظر . لكن ما إن جلست في السيارة بجواره ، حتى تيقّنت أنها كانت تنتظره ، هو الشيء الوحيد ربما والكائن الأوحد ، وبيأس .

كانت الطريق صامتةً إلا من أنين فاه لمسّاحات الماء ، غمره صوت مغسول برشَاش مطر طالع من المسجِّلة : «موعدْنا بُكْرا ، وشُـو تْأَخَّـر بُكْرا ، قَوْلَكْ مُشْ جـايِي حَـبـيـبي ، عَمْ شُـوفَكْ بالساعة ، بِتكّات الساعة ، من المَدى جايِي حَبيبي» .

لم تفكِّر حوّا ببُكرا . تستطيع الدنيـا أن تمطر بُكرا ، وبعـد بُكرا ، وسـوف تنتظر على الرصـيف . وللدنيـا أن تقـذف بَرَداً وحجارة ، ولها أن تَثلج بضـراوة ؛ لا يهمّ ، فـدنياها ، هي حـوّا ، تشتّي ياسمين .

لـم تبـدُ السـيـارة مـتـعـجِّلةً لـبلوغ نهـاية الطريق . تمرغّت أحـاسـيس حـوّا بلحـاف دافئٍ من الورد والعـنبـر وأنفـاس منيـر السـاخنة التي ضبّبت النافـذة . طوال الرحلة ، لم يتـحـدّثا . لم تقل له الكلام الكثـيـر الذي كـان يجب أن يُقـال ، هي التي قطعت طرقات شاقة ، وصبرت على مواسم الشمس الحارقة في حياتها وجابهت الريح والمطر وحجارة السماء وحجارة البشر ، من أجل ذلك . هل يفـقـد المقـهـور – مع الوقت – القـدرة على الحكي؟ تسـاءلت بينها وبين نفـسهـا . ربما لم تعـد حـوّا تعـرف كـيف يسـير مجرى الكلام بين غريبين . ثم الغـريب في الأمـر أنهـا لـم تشـعـر بأنهمـا غـريبـان . ولو أمكنهـا النفـاذ إلى الرجل الغـريب إلى جوارها ، الذي يقود سيـارته المتـماسكة والنظيـفة تحت مطر هفـهـاف ، لرأت ربما أنه هو الآخـر لم يشـعـر بأنهـمـا غـريبـان تمامـاً . والشيء ، الذي ظل سـراً عظيـمـاً في نفـسـهـا ومخـجـلاً ، دفنته في بئـر التمنيات السحيقة ، أنها وهي إلى

جواره ، شعرت بأن لحمها يشتاق للحمه . لكن الصمت بينهما طوى حكياً كثيراً ؛ حكياً عميقاً ، صعد تلال المشاعر ونزل ، سار في طرقات فرعية ، متشعِّبة ، دون أن يتيه . كذلك ، لم يبدُ حكيهما ، في الصمت البليغ ، غامضاً أو مبهماً .

حين وصلت السيارة أخيراً ، نزلت حوّا أقل تثاقلاً ، تحمل معها لحاف الورد والعنبر وأنفاس منير ، تدثّر به روحها . كان صوت فيروز المُصفّى قد بلغ صبوته ومنتهاه في «يا ورَق الأصفر ، عَمْ نِكْبرْ عَمْ نِكْبرْ ، الطُّرْقات البْيوتْ عَمْ تِكْبرْ عَمْ تِكْبرْ ، تخْلَصْ الدِّنيي ، وما في غَيْرَكْ يا وطني ، يا وطني ، يا وطني ، آاااه بِتْضَلّكْ طِفْلِ صْغيّرْ» . أرادت أن تشكره ، فبادرها بالسؤال :

- تِشْربي معي قهوة؟ في يوم؟ في أي يوم؟

جمعت حوّا نفسها وجلبابها ، وجلست على الكرسي . جاب بصرها الحذِر المكان ، معاينةً الطاولات ، ذات القوائم المعدنية والأسطح الزجاجية ، والمحاطة بكراسٍ من الخيزران بوسائد إسفنجية تغطّي مقاعدها . رقّت الوسائد من الاستعمال ، دون أن تبدو مستهلكة تماماً . غلب اللونان البني البندقي والأحمر الصلصالي على الديكور والأثاث القليل ، غير المتكلّف . رشحت في الجوّ رائحة مألوفة ؛ كانت رائحة احتراق القهوة المغلية ، إذ فارت في غفلة عين على عين الغاز . استقرّت حوّا في الكرسي البيضاوي ، ذي المدى الوسيع ، وهجعت - إلى حين - أفكارها الكثيرة المتلاطمة في رأسها . جلس منير

على الكرسي إلى جوارها ، فبدا قريباً جداً ، كأنه يهم بأن يهمس في أذنها ، وهو أمر لم يزعجها على الإطلاق . بل إن حوّا ذُهلت من نفسها الجديدة ، التي تتعرّف عليها لأول مرة ؛ هذه النفس التي لم تعرف أنها موجودة ، لربّما كانت غافية ثم استيقظت ، أو مطفيّة فاشتعلت ، أو ميِّتة فبُعثت ، أو من يدريها لعلّها لم تكن موجودة في الأساس وإنما خُلقت من ضلوعها التي طُحِنت مراراً .

بدت حوّا مرتاحةً لقربه الشديد منها ؛ كل ما في الأمر أنها كانت أكثر وعياً بشكل وجهها المرهق ، وإن دهنته بكريم مرطّب للبشرة ، ذي قوام حليبي ، كانت درّة العين أهدتها إياه قبل أن تلتقي منير في واقعة البَرَد السحرية . استثار نسيج الكريم حوّا لاحتمالات الشبه المتمنّاة بين بشرتها البيضاء التي تحمل بصمات نهارات جافّات وليالي ناشفات ، وبشرة درّة العين السمراء المرفّهة ، المدلّلة ، المطليّة بطبقة شفّافة من البرونز الذهبي ، والتي ظلت على ملمسها المخملي الحريري إذ احتمت من عواصف الشتاء والبَرَد والثلج وتوارت عن الرمال وصهير الشمس ، كما ظلّت ترتوي بحبّ فارس ومزيد من حبّه . رسمت حوّا عينيها الواسعتين بقلم الكحل ، ووضعت على شفاهها مسحةً من أحمر شفاه زهري فاتح ، ضارب إلى الليلكي ، اشترته خصّيصاً من أجل مشوارها الذي ارتقبته . كل شيء فيها كان يُلبَس لأوّل مرّة ، بما في ذلك الجلباب القرميدي ، الذي كانت قماشته تحمل آثار عدم دعك ،

والإيشارب الكشميري الخمري بخيالات الأسود الدخاني ، والحذاء الأسود بجلده اللمّاع وكعبه العريض متوسط العلوّ ، والحقيبة السوداء ذات الإبزيم الذهبي .

حين جابت حوّا السوق في وسط البلد ، تبحث عن الجلباب المناسب للقاء القهوة ، أحسّت أن الكون كلّه يرقص على إيقاع غبطتها . لم تفهم لماذا كان قلبها يخفق بقوّة ، كما لم تفهم لماذا كانت روحها تشتعل بالفرح . لم تفهم أشياء كثيرة ، لها علاقة بالآلية المعقّدة التي تعمل فيها المشاعر ، فجعلتها تحسّ بما تحسّ به ، وترنو إلى من ترنو إليـــه ، وتودُّ من تودُّه ، وبشدّة ، دون أن تضع يدها على السبب أو الأسباب .

كيف لها مثلاً أن تنتظر الغريب الذي اقتنصها من وسط حجارة البَرَد المنهمرة فوقها ، دون أن تتكلّم معه ؛ كيف لها أن ترغب في أن تكون مع من لا تعرفه حقاً ، منضويةً في كيانه ، محتويةً فيه ؛ ما الذي يجعلها تشتاق إلى الرجل الصامت طوال الطريق ، الفوّاح بالصابون والورد المعصور في زجاجة ، ومزيل العرق الذي لم يمتصّ رائحة عرقه البشرية تماماً . كيف يمكنها أن تشتاق إلى الغريب ، وتشتاق حدّ التياع القلب وتفطُّر الروح على عدم ظهوره ، هو الذي يفترض أنه غير موجود أصلاً . أيمكن أن يحبّ المرء من لا يعرف؟ أتكون تهوى الغريب؟

لم تفكر كثيراً عندما انتقت الجلباب دون غيره . كان الأقل تجلبباً ، والأقل تجهُّماً من بين جلابيب عدة ، وما ميّزه أنه كان مخصَّراً . ثم إن المانيكان التي ارتدته مستعرضةً به قوامها

النحيل في الواجهة الزجاجية نادتها كي تأخذه . لكنها تأخّرت قبل أن تعثر على الحذاء المناسب ، الذي يلمّ قدميها ويعزز طولها لا يضخّمه . جرّبت أحذيةً كثيرة قبل أن تقع أخيراً على الحذاء الذي فاتت فيه قدماها بسلاسة ، كأنه صُمِّم لها وحدها ، لتغبط السندريلا ، التي في داخلها ، نفسها على الكشف الباهر الجميل . كل ما تبقّى الآن هو أن يراها أميرها الغريب ، الذي ليس بغريب ، كي يتأكد بنفسه من أنها هي التي يبحث عنها .

وضع النادل فنجاني قهوة أمامهما ؛ القهوة بدون سكر لها وتلك التي على الريحة لمنير . لم يكن في المقهى سوى ستة أشخاص أو سبعة على الأكثر ، من بينهم شاب ، بان طالباً جامعياً ، جلس على طاولة لوحده أمامه جهاز كمبيوتر محمول ، بالسمّاعة في أذنيه فيما توزع على طاولتين أخريين روّاده المنصرفون عنها وعن منير .

لم تكن حوّا قلقة من احتمال أن يتعرف عليها أحد . فهي لا تعرف أحداً في المخيم ، ولا حتى من زبوناتها من خارج المخيم ، يمكن أن يأتي إلى هذا المقهى الكائن في حي نظيف وناء وجديد جداً في عمان ؛ فلا المكان ولا الناس يشبهون المخيم وناسه . ثم إنها اليوم ، بالكحل الأسود ، الذي يكرّس اتساع عينيها ، والشفاه المزهرة في عزّ الشتاء ، والجلباب القرميدي وحذاء السندريلا ، برائحة الجلد النفّاذ ، وإن كان رخيصاً ، وبنعله الذي لم تعلق به أشلاء الطرقات بعد ، لا

تشبه نفسها أمس وفي الأيام السابقات ، بل لا تشبه من كانتها في العقود الماضيات .

من وراء جدران المقهى الزجاجية ، راقبت حوّا الهواء في الخارج يصفع رؤوس الأشجار المزروعة على الأرصفة الجانبية ؛ فيما كان الناس في الشارع ، على تناقص عددهم ، تتقاذفهم أمواج الهواء متمايلين على إيقاعها العنيف يميناً ويساراً . لم تكن الساعة بلغت الثالثة والنصف حين غامت سماء ما بعد الظهيرة فجأة ، كأن بقايا رماد أو سُخام صبغتها جرّاء حريق هائل في الكون التهم معظم جسد الشمس . سقطت عتمة النهار الثقيلة على أكتاف البشر القليلين في الشارع ، فأسرعوا في سيرهم ، مقاومين شدّة الرياح بضراوة . حمل الهواء قصاصات أوراق وصحف ملقاة على الشارع أو مكوّمة عند حواف الأرصفة ، طوطحها وقلّبها ، قبل أن يرمي بعضها فوق رؤوس الأشجار بشعورها المنكوشة . لاحق بصر حوّا امرأة ثلاثينية تركض في الشارع المحاذي للمقهى ؛ محجَّبة ترتدي معطفاً كريمياً طويلاً بتنورة عريضة . رفع الهواء المتخابِط التنورة إلى أعلى ، فكشفت عن ساقين تحدّدت معالمهما بوضوح في بنطلون جينز ضيق . تلفتت المرأة حولها كأنها تخشى أن يكون أحد شاهد ساقيها الجينزيّتين ، تحاول أن تطوي مظلّة المعطف المشرعة في الريح بيد وتسوّي شالها الذي كاد يسحل عن رأسها باليد الأخرى . التصقت ورقة جريدة على النافذة ، قبالة حوّا ، فحجبت عن بصرها وجه المرأة التي كانت تعارك الهواء .

كانت نصف صفحة لنعي بارز تصدّرته عبارة : «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» ، بحروف كبيرة مجفلة .

استدارت عينا حوّا المصدومتان ، فوقعتا في عيني منير اللتين كانتا تتابعانها . تلقّف منير نظراتها الفزعة برفق . لا تقلقي ، قال لها . ثم دنا منها فكادت ذقنه البارزة تحتك بطرف إيشاربها ، مؤكداً أن أحداً لن يتعرّف عليها هنا . «وبعدين إحنا شو عم نسوّي يعني! عم نشرب قهوة . وين الجريمة؟!» قال بصوت أكثر ثقة ووضوحاً ، فابتسمت ، طاويةً قلقها في مجاهل نفسها . تستطيع أن تكون سعيدة اليوم ، وهذه اللحظة بالذات ؛ أقنعت نفسها . وكانت سعيدة ، ولعلّ من أسباب سعادتها الشخصية لحظتها أنها كانت شديدة الوعي بالنغمات التحتيّة لشذا المسك وخشب الصندل من العطر الذي انبعث من تحت ملابسها الثقيلة ، متعشّقاً برائحة لحمها التي أشادت بها ست قمر ذات مرة : رائحة لحمك طازجة ، قالت لها . اقتربت منه حوّا بالقدر الذي كان يسمح به لقاؤهما معاً على فنجان قهوة في مقهى ساد فيه ظل الشتاء والألوان الكستنائية والبندقية والخشبية والصلصالية ، فشملته بمسكها ودفئها .

تناوبا رشفات القهوة الخافتة . قلباهما انشرحا ، وروحاهما انفردتا . لم يقولا أشياء كثيرة كان يفترض أن يقولاها . لكنهما كانا مبسوطيْن ، غافليْن تماماً عن الليل المزمجر في الخارج ، الذي هبط عصراً .

لمنير ثلاث بنات ؛ ليلى وعليا وناريمان ، وخمسة أحفاد .

كانت ناريمان، صغرى بناته، قد أنهت الثانوية العامة حين حبلت زوجته مريم أخيراً بالولد الذي كانت تنتظره. قال لها إنه لا ينتظر الولد. قالت له إنها تريد الولد، سنداً له. أكد لها أنه يريدها هي سنداً له، رفقةً وكتفاً وعكازاً في غروب عمريهما، لا الولد. قالت له إنها تمنّت الولد كي يحبّها هو أكثر. حلف لها أنه يحبّها هي دون أن تعطيه البنت أو الولد. أصرّ، فأصرّت أكثر. أبدى الطبيب بعض توجّس، فأشار على مريم بأن تنهي بدايات الحياة، غير المخلَّقة تماماً، في رحمها. لكنها رفضت. قال لها إن قلبها قد لا يحتمل الحمل والولادة، فطمأنته بأن قلبها سوف يتحمّل تمطّي اللحم والدم واستحقاق المخاض حتى وإن تمزّعت روحها معه؛ وللولد العزيز، الغالي ابن الغالي، أن يسرح ويمرح في داخلها، وله أن يضرب ويركل، وله أن ينتزع بعضاً من حياتها بما يكفي حياته ويزيد، بل له أن يُسقِمها حتى نهاية الزمن. احتفظت مريم بالولد إحساساً يكبر في داخلها، يأخذ من نبض قلبها الذي كان ينوص. وفي الوقت الذي كان الكيان المُشتهى يتضخّم في أحشائها الضعيفة، كانت هي تغيب، محاولة - مع بعض نجاح - أن تخفي آثار تسرّب وجودها منها بعيداً عن مشاعر منير القلقة.

وولدت مريم. فرحت بالولد ذي الوجه الكبير الصبوح والعينين البرّاقتين والشعر الغزير، كأنه عاش وتربّى في داخلها عاماً، والحنجرة العريضة التي أطلقت صرخة الحياة الجهورية. فرحت مريم كثيراً وماتت. بكى منير ليالي طويلة. اهترأت

روحه من الحزن ؛ فعاف الدنيا ، وظلّ طريح الفراش ، مُسْقَم البدن ، متداعي القلب ، يريد أن يلحق بمَرْيَمته . رجته بناته كي يعيش لأجل ناجي ؛ الولد والسند . كانت مريم قد انتقت له اسمه منذ أن تشكّل ماؤه ودماؤه داخلها ، فناجته طيلة الوقت . حملت ليلى شقيقها الرضيع ومددته إلى جوار منير ، لكن منير أغمض عينيه ، واستدار بعيداً عنه .

مر شهر وأكثر دون أن يقرب منير الولد . كانت ليلى وعليا المتزوِّجتان تتناوبان على رعاية أبيهما وشقيقهما ، فيما تولت ناريمان شؤون البيت من طهي وغسيل وتنظيف . في يوم طلب من بناته أن يحضرن له ناجي . فرحن بالتحول العاطفي المفاجئ لديه . حملت ليلى ناجي ووضعته بين ذراعيه . عاين بطرف بصره وجه الرضيع الذي كان يتثاءب بوداعة . دعته ليلى كي يضمّه ، فقرَّبه إليه أكثر . فتح الصغير عينيه . أدنى منير الوجه الطري من وجهه المكلوم غير الحليق . شمّه . اتسعت عينا صغيره الذاهلتان ، ثم جفلتا ، فأغمضتا فجأة ، متحاشيتين بغريزتيهما الوليدة قطرات الدمع التي هطلت عليهما . مدّ منير ذراعيه نحو ليلي لتتلقّف الصغير ، قائلاً :

- خذيه! ربّيه!

أوقف السيارة جانب الطريق . استنهض كل الغضب الماثل في نفسه ، وضرب المقود بكفّيه مرّة ، ومرّات . رفع رأسه إلى أعلى ، يريد أن يستبقي الدموع حبيسة سحابتي عينيه المثقلتين ، فارتطم بصره بسقف السيارة . أطرق وجهه ، يداه

تقبضان على المقود الثابت بقوة في محاولة لامتصاص الرجّة التي سرت فيه . كان الماء أثقل من قدرته على كظْمه ، فألقى رأسه على المقود ، لتنشقّ سحابتا عينيه عن مطرٍ عرمْرم ، انجرف معه بدنه ، فيما تحرّر نحيبه المحتَجَز في روحه . كان قلب حوّا يئنّ على المقعد إلى جواره . تمنّت لو أنها تستطيع أن تأخذ رأسه الباكي في حضنها . مدّت يدها ووضعتها على كتفه . نشج وهو يقول لها بحرقة إنه حاول أن يحبّه ، «والله حاولت» . وفي مرات كثيرة ، كان يذهب إلى بيت ليلى في الليل ، فيوقظه ، ويأخذه بين يديه ، يحضنه ويرشّه بالقبلات ، لكنه - مهما فعل - لا يستطيع أن يحبّه الحبَّ الذي يجب أن يكون عليه الحبّ . «رَحْ ييجي الحب ، رَحْ ييجي ، ورَحْ تْحِبُّه ، رَحْ تْحِبُّه أكثر من أي شي ، ورَحْ تعوضه» ، طمأنته حوّا ، ثم طبطبت على كتفه قائلة : «شوف!» وأشارت له كي ينظر من نافذة السيارة خارجاً .

كانت الدنيا تَبْيَضّ . انهمر الثلج ندفاً قطنية ، ما لبثت أن تماسكت على الأرض فصنعت لحافاً ناصعاً . ابتلع البياض الريّان الضجيج الكوني ، فحلّت السكينة في الخارج على البشر والكائنات ، وغمر نور الثلج الفضاء . رفع منير بصره عبر النافذة إلى السماء التي كانت تذرف الثلوج . تجمّدت الدموع على خدّه . حاد بصره ناحية حوّا ، فأُخذ بالبياض الوضّاء في عينيها . كانت تتأمل لآلئ الثلج المنهمرة مبهورة . وضع يده المحرورة فوق يدها ، فطقطقت كستناءات قلبها .

كانت تلك أول مرة تلمسها فيها يد رجُل ؛ رجُل ليس مقحَماً عليها ، وليس مقتحِماً لها ؛ رجل لا يسلب جسدها فتضطر أن تغمض عينيها وأذنيها كي لا تراه ولا تسمعه ، حتى إذا انتهكها وانتهى أقنعت ذاتها بأن ما حدث إنما كان كابوساً مرعباً ليس إلا ؛ رجُل لا يخلِّف بصاقه فيها وزفارته فوقها فتحتاجٍ إلى دهرٍ ويزيد كي تغتسل من آثاره . لقد كانت يداً حقيقيةً لرجلٍ حقيقي ؛ رجل يبكي ؛ رجل ينشج ببهاء ؛ رجل ينحب بحرقةٍ أصيلة . كانت تلك أول مرة ترى فيها حوّا رجلاً يبكي ، فاعتقَدت أن أجمل الرجال هم الحزانى . كانت تلك أيضاً أول مرّة تستشعر فيها الإحساس بأنها ربّما أكثر من مجرد امرأة ؛ امرأة تُحَبّ ؛ امرأة تُرام ؛ امرأة تُطلَب ؛ امرأة تُرغَب ؛ امرأة تُشغَف لما هي عليه ؛ امرأة تُراد فقط للحياة التي تقتنصها اقتناصاً ؛ امرأة يُحنّ إليها للدفء الذي يعتمل في نفسها رغم أيام البرد وأيام الجفاء وأيام الخواء ؛ امرأة يُشفَق عليها لقلّة الحبّ في ماضيها ؛ امرأة تُغبَط لطول صبرها على ماضيها ؛ امرأة يُغفَر لها كلامها القليل جداً في الحبّ والأشواق واللوعة . كانت تلك أول مرة تشعر فيها حوّا أنها لعلها تحبّ ، من يدري ؛ ولعل هذا هو الحب المشابه لذاك المروي في قصص الحب ، أو الذي يتحدّث عنه الناس .

في الليل ، سرحت أفكار حوّا . أرخت كفّها قريباً من وجهها المستريح على الوسادة ، انثالت فوقها يد منير ، كالمطر الوَسْميّ ؛ فاحت منها رائحة طين الجسد العطِش ، وتربة الروح

المعفَّرة . تمنت يدَه طَلاً ، فديمةً سَكوباً ، حتى إذا سُقِيت يدها طلبت مزيداً من الماء ، فهطل مطر غَدِق ، دفق من كل السحب . وحين أغمضت حوّا عينيها أخيراً ، سُقيت روحها ، غير المتصحِّرة ، من عطر السماء ، حتى إذا أفاقت في الصباح ، تفتّحت أزرار الزنبق في قلبها خضلاء ، حيية ، فيما تكدّس الليلك المؤجّل في دروبها .

كانا قد قطعا نصف شتائهما الأول ، ونصف طرقات الحكي ، رافقتهما فيها فيروز دون أن يملاّ رفقتها ، فظلّ روضهما مبتسماً وطال البوحُ والخجل . ذاب ضحكهما وبكاؤهما في قهوتهما وشايهما في مقاهي المفارق الكثيرة ؛ شربا من فنجانيْهما ، كما شربا من عيونهما ؛ وكان في عُيونهما حنين وفي سُكوتهما حنين ؛ وإذا كانت دنياهما الماضية ضاقت عليهما ، فها هي تتّسع أخيراً ، ليؤمنا بأن القلبَ المُلقى في الأحزان يَلقى الحنان أخيراً .

نما شعورهما الجميل بحاجة كل منهما كي يكون الآخر جزءاً من وجوده في الشتاء ، تحت المطر الطشاش والرذاذ ، وتحت المطر الجارف ، الدفّاق . صمد توقهما في وجه الرياح المستشيطة المنذرة والهواء الغدّار . نما في مكامن الإحساس ما قد يكون حباً مع الغروب المستقر على حواف الظهيرات الباردات ؛ مع العتمات المبكِّرات التي تستّرت على طرقاتهما وعلى حكيهما ؛ مع الجاكيتات والمعاطف ذات الأعناق والشالات الثقيلة تدثِّر وجهيهما في اللقاءات المسترقَة ؛ مع سندويشات الشاورما

والفلافل برائحتها العالقة لبعض الوقت في السيارة النظيفة دون أن تكون مزعجة ؛ مع أواقي الكنافة النابلسية التي كانا يأكلانها على الواقف عند «حبيبة» وسط البلد ؛ مع عشاءات الحمّص والفول والمسبَّحة في مطعم منسي ؛ مع الطريق الطويلة التي كانت تقصر مع حكيهما ، والتي كانا يقطعانها كل أسبوع إلى البحر الميت حتى إذا بلغا المدى الأزرق غطّسا بصريهما فيه .

«بيقولوا الحبْ بيقْتُلِ الوقتْ ، وبيقولوا الوقتْ ، بيِقْتُلِ الحبْ ، يا حبيبي تَعا تَنْروحْ ، قَبْلِ الوقْتْ ، وقبْلِ الحبْ» . عند البحر ، يكمِّم منير فم فيروز . لكن صوتها الملتاع يظلّ ، رغم البحر الكبير والسماء البعيدة والمشاوير الشتوية الكثيرة ، يصدح في رأس حوّا : «بِدْيِتْ القصَّة تحت الشِّتي ، بأوَّلْ شِتي حَبّوا بَعْضُنْ ، وخِلَصِتَ القِصَّة بِتاني شِتي ، تحتِ الشِّتي تَرَكوا بَعْضُنْ» . فإذا ما اشتبك صوت فيروز في آخر الأغنية مع المطر الذي ينقر سطح البحر بعنف كخناجر متساقطة تبقر بطنه ، لم تملك حوّا نفسها من البكاء فيما تحاول أن تصمّ قلبَها عن النغمة المكسوّة بالمطر لـ« حَبّوا بَعْضُنْ ، تَرَكوا بَعْضُنْ ؛ حَبّوا . . . تَرَكوا . . . .» ، ناظرةً إلى منير ، تستدعي عطفاً وطمأنينة ، فيبسط كفّه العريضة فوق كفّها المزرقّة ويفركها . «اطّمني» ، يقول لها : «أنا معك ، رَحْ أضل معك» .

ما إن بلغا آخر الشتاء ، حتى جاء الحبّ ؛ هطل من سماء اللهفة ، مطراً خافقاً ، ملتاعاً بعد شوق ؛ محتطِباً الأرض بعد

طول جفاف ؛ جاء الحبُّ قوياً ، جارفاً ، أصيلاً ، خالصاً ، بالغاً المنتهى ، مُنتهى المنتهى . رجع ناجي إلى البيت ؛ عشقاً مؤجَّلاً ، أملاً وسنداً ، ابناً جميلاً في الخامسة من العمر ، له وجه أبيه الذي عشقته مريم حدّ أنها نحتته ، نسخة طبق الأصل ، في رحمها .

في سني عُقمها العاطفي ، كانت حوّا تستعجل رحيل الشتاء ، طاويةً البطانيات الثقيلة في قلبها المتجلِّد ما إن يدقّ نيسان الباب . كان الشتاء يضيف جدباً فوق جدْبِ نفسها ، فينخر بردُه في مفاصل روحها . وكانت حوّا تفزع من البرق وتهتزّ من الرعد وتجفل من المطر الراعب النازل من السماوات المرهبة . كانت تشتاق للصحو الدائم وللشمس والشبابيك التي لا تُغلَق إلا ليلاً . وأحبّ الأشياء إلى ذاتها السير أول الربيع في الطرقات المضمَّخة ببقايا ماء الشتاء ، تعاين الزهرات اليتيمات اللاتي يتفتّحن في الأرض الصخرية ، يمددن أعناقهن الهزيلة من وسط الشقوق ، تائقات للسماء المشمسة ، متمايلات على إيقاع الهواء العليل ، لطيف النغمات ؛ فتحاذر حوّا أثناء مشيها الدوسَ على خدود الورْد الطريّة أو قصْم أعناقها أو سحْقها . في شتائها الأول مع منير ، لم تشتق حوّا للربيع . لم تترقّبه ، ولم تستعجله ، ولم تستقدمه ، وتمنت على زهراتها أن يبقين نائمات وأن يستطيل بياتهن الشتوي . ظلّت حوّا ترنو إلى الغيمات الداكنات ، المتورّمات ، تطلب مطراً ، مطراً ، ومزيداً من مطرٍ سبْطٍ مُرسلٍ إلى ما لانهاية . ولم تكن لتمانع لو أن البَرَدَ يظل يقصف الدنيا .

ويوم تُفردُ عباءة الثلج فوق النهارات والليالي ، فإن شوقها إلى منير يتأجج ؛ فلقاءاتهما المختلسة تكون ممكنةً في الطرقات المنزوية ، المرتجِفة من البرد ، المشرَعة لشلالات السماء ، وفي أحضان المقاهي البعيدة ، مع أقطان البياض المنهمرة في الخارج ، وضباب الأنفاس المتكثفة على النوافذ الباردة تواريهما عن عيون البشر الفضوليين . في لحظات بعينها ، كثيراً ما يبدوان - من بعيد - خياليّيْن ، مجسَّميْن صغيريْن لكائنين بشريّيْن ، يجلسان وحدهما في مقهى صغير ، جميل ، في مدينة سحرية ، كأنها مرسومة ، أو مصمَّمة لبطاقة معايدة ، مفصولة عن عذابات العالم الحقيقي ، في مشهدٍ متكاملٍ مغروس داخل كرة بلّورية لا يتوقّف الثلج عن الهطول فيها .

صحا الربيع واستيقظت الشموس في السماءات غير المبلولة والتمعت النجمات في الأمسيات الرائقات . وكان يمكن لكل شيء ، بحكم المنطقي ، أن يكون رومانسياً . لكن الربيع عنى أن حركة حوّا لن تكون هيِّنة ، سلسة ؛ وأن خروجها من البيت كلما اشتعل شوقها لمنير لن يكون مُتيَسَّراً بالضرورة ؛ وأن المقاهي والأماكن التي كانا يرتادانها ستخلع معاطفها الثقيلة ، وستفتح الأبواب للهواء الخارجي ، وسوف تمتلئ الطاولات ويكتظّ الجوّ بالحكي والنظرات ، حكي الآخرين ونظراتهم المتكاثرة ؛ وأن الطرقات التي كانا يقطعانها تحت الغيم والريح سوف تفتح عيونها على اتساع ، فلن يكون بإمكانهما أن يذوبا في الضباب وعتمات النهارات التي تهبط مبكراً ؛ وأن الشمس

المحتبِسة في السماء سوف تنبجس ، فلن يكون بإمكانهما أن يتداريا من الناس ؛ وأن قصتهما التي نسجاها في السيارة في أول شتوية حب ، المضفورة بحكيهما - وإن كان قليلاً - وبطعم سندويشات الفلافل والشاورما وصوت فيروز الثمل من قطوف ماء السماء ، هذه القصة سوف يسلبها الربيع ؛ سوف يحرمهما طرقات الماء والرياح ، ولن يزرعا حكاياتهما في الديمات وفي الثلجات . ثم ما إن يهبّ الصيف اللاهب حتى تكون لقاءات الشتاء المُزهرة قد ذَبُلت . جزعت حوّا .

- تتزوّجيني؟

كان الشتاءُ يطوي هواءه وماءه ، معتصِراً ما تبقّى من الغيْمات ، مُرسلاً آخر الغيث ، حين قال لها منير إنها أصبحت قطعةً من روحه . لم تعتقد حوّا يوماً أنها يمكن أن تُصاب بهذا الشيء ؛ هي التي لم تعرف هذا الشيء معرفةً حقيقيةً في حياتها التي تذكرها ، ولا حتى في الحياة التي نسيتها أو تلك التي دفنتها في بئر ظلمات النفس . أيمكن أن يأتيها هذا الشيء الآن؟ في ليْلِ العمر أو على حواشيه؟ أيدقّ قلبُها الواقف على عتبة النهايات؟ أيمكن أن يكون هذا الشيء هو الشيء؟ لم تكن حوّا لتستطيع أن تبوح به حتى لنفسها ؛ أن تعطيه وصفه ، أن تذكر اسمه : الحبّ . أتحبّ؟ أيمكن أن تحبّ؟ أمعقول أن تحبّ؟ هي؟ والآن؟

إذا كان الحبّ هو أن تتقلّص روحها في أثناء الانتظار على الأرصفة المثلجة ، قلقةً أن يأتي ، قلقةً أكثر ألا يأتي ، تعاين نهر

السيارات المتعجّلة في الشارع، حتى إذا لاحت سيارته الكُحلية تقترب منها متباطئة، تغمز لها بعينيها المُفَنجلتيْن، رقّت ساقاها، فمشت فوق الأرض، تشقّ قدماها عباب الفضاء، فلا تطيح بها رياح ولا يجرفها مطر، إذاً هي تحبّ. إذا كان الحبّ هو أن تتعشّق مساماتها برائحته البشرية، غير المبالغ بذكوريتها، ذات النفحة الحريرية المبطّنة، فلا تشبه أي رائحة أخرى عرفتها، ولا حتى رائحة مخاملها الأثيرة، العزيزة، فيفور الدم في جسمها ما إن تُزكَم بها، فهي بالتأكيد تحبّ. إذا كان الحبّ هو أن تراقب عضلة رقبته الراجفة وهو يقود السيارة، فتتمدّد في الكلام القليل وترتخي عند الإصغاء المتأني، فتودّ لو أنها تستطيع أن تمدّ أصابعها كي تلمس نبض العضلة أو تدلّكها، لكنها تخجل، فهي أكيد، وأكيد جداً، تحبّ. إذا كان الحبّ هو أن يهشّ قلبها لصوته في كل مرة، كأنها تسمعه لأول مرة، فيتغلغل فيها كنشنشة قطعة المخمل الغالية الجديدة إن لم يكن نشنشة صوته أوقع أثراً وأبلغ تأثيراً، فهي قطعاً تحبّ. إذا كان الحبّ هو أن تُسبل روحُها جفونَها في كلّ مرة تحتضنها فيها عيناه في لُقى المقاهي الثمينة، فتتمنّى لو أن لا فكاك من عناق نظراته، حتى وإن اعتصرتها اعتصاراً تتضعضع معه ضلوع قلبها، فهي لزاماً تحبّ. إذا كان الحبّ هو أن يهجس جسدها بالرغبة المندثرة فيفور فيه الدم ويمور وتجيش في أخبيته سوائل سرية وتوْق متلظٍّ، مضطرِم في كل مرة يضع فيها كفه المكسوّة بالنمش البني فوق كفّها، فهي يقيناً تحبّ. وإذا كان الحبّ هو أن تستدعي في خيالات

الليل الجسورة صوتَه وحكيَه ونفَسَه وملمسَ يده ، كما تُدني جسدَها من جسده فتجرِّدهما من تحفُّظهما وحذرهما وتوجسّهما وخوف السنين وملابسهما ، وتغمض عينيها على مخملٍ مشتهىً ينزلق عن لحمها الظمآن حتى إذا اعتلاها فانبجست سحابته وهطل فيها جرف فيضانه تاريخ القهر الطويل - إذا كان هذا هو الحبّ ، فهي إذاً يقيناً ، كما لأقصى ما قد تبلغه درجات اليقين ، تحبّ وتحبّ وتحب ؛ هي حتماً تحبُّه .

تتزوج؟ ماذا ستقول لآية؟ كيف ستشرح لابنتها التي تقسّى قلبها أنها ، هي أمها ، تحبّ وتريد أن تتزوج؟ ماذا عن قيس؟ لكن المشكلة الأكبر قد تكون مع عايد . هكذا فكّرت حوّا . ثم كانت لا تزال تتكيف مع وضع رابعة المستجد . قال لها منير إنه سوف يعتني بها وبرابعة ، كما سيعتني بناجي . تطلّعت حوّا في مرآة الخزانة . تفاجأت من وجهها ؛ كانت قد نسيته . منذ زمن لم تلتقِه ؛ لم تخاطبه ، هو الوجه الغريب عنها . اعتادت حوّا أن تقف أمام المرآة لتسوّي الإيشارب أو تضبط الشال فوق رأسها دون أن ترى وجهها حقيقة ؛ دون أن تقع عينها في عينها التي تشبهها ، والقريبة جداً منها . «بْتَعرفي إنك حِلْوة يا حوّا؟!» قالت لها ست قمر مرة . «إيّاكي تْخَلّي حَدا يِحْكيلِكْ غِير هِيك!» .

لأول مرة ، ترى حوّا نفسها جميلة ، جميلة . لأول مرة في عمرها تشعر بأنها سعيدة ، سعيدة بحق . لم تصدِّق أنها يمكن أن تكون سعيدة أخيراً .

يعمل منير منذ ثماني سنوات موظفاً أمنياً في جامعة خاصة في عمّان . قبل ذلك ، عمل في وظيفة إدارية في مقر وكالة الغوث لعشرين عاماً ، تقاعد بعدها ، واشترى بأكثر من نصف مكافأة نهاية الخدمة قطعة أرض صغيرة في عين الباشا ، مساحتها أقل من نصف دونم . وفي الوقت الذي كانت مريم تحلم فيه بالولد ، وتتشهّاه أكثر من أيّ شيء آخر ، كان منير يخطِّط لبناء بيت صغير حوله حاكورة ، هندَس في رأسه حتى زرْعها وشجرها وحجارة سورها . قال لحوّا إنه شعر أنه كان يكبر بسرعة . فلم يشأ أن يموت في المخيم كما عاش فيه . بالنسبة له المخيم مقبرة ؛ بيوته أضرحة منتهَكة ، وبشره محسوبون على الحياة زوراً . لكن وفاة مريم جعلته يعدل عن الرحيل عن المقبرة ، فظلّ مدفوناً فيها ، سقيم القلب . بل جاءت أوقات كان يتعجّل فيها الموت .

لكنه الآن ، سوف يُخرج مخطّطاته من درج الخزانة ؛ لن يبقى في المخيم طويلاً ؛ سوف يبني البيت ، وسوف يعيش فيه مع حوّا ومع ناجي ، وسوف تعيش رابعة معهم . سوف يحبّهم جميعاً حتى آخر الحياة ، وسوف يعتني بهم جميعاً . وسوف يحمل رابعة - إن استلزم الأمر - على كتفيه .

ضرب منير أرضه بقدميه . «هاظ رَحْ يكون بيتنا» ، قال لحوّا فيما بدا إعلاناً احتفالياً . كان ذلك في صبيحة سبت رائقة ، وباردة جداً . كان سعيداً ، ومتحمِّساً . لم تكن حوّا أقل سعادة ، لكنها شعرت بخوف مُمِضّ . فهي لم تختبر كلَّ هذا

القدر من السعادة من قبل . ولا تعتقد أنها كانت تتخيّلها ، كما لم تكن لتدرك أن فرحاً عظيماً كهذا يمكن أن يكون موجوداً في العالم الضنّين عليها . اقتعدا الأرض على بساط من الصوف أحضره منير من صندوق السيارة . تأمّلت حوّا البقعة المرتفعة ، المكسوّة بالحصى والحجارة الطينية والنباتات الشوكيّة القزمة . كانت حوّا حضّرت سندويشات لبنة وزعتر وحمّص ، كما جلبت معها ترموس شاي . فيما جلب معه منير تفاحاً وكُمثرى ومندلينا . لعب الهواء البارد بوجهيهما . ارتديا معطفين ثقيلين ؛ لفّت حوّا شالاً من الصوف الأخضر حول رأسها وجانب من وجهها ، فيما أحكم منير تثبيت حطته البيضاء المرقّطة بالأسود حول رأسه وعنقه . أشار منير بيده إلى زاوية في الأرض ، «هون مدخل البيت» ، قال لحوّا ، ثم تابع رسم المخطط : «وهون الصالون ، وهون الصالة ، وهون أوضة ناجي ، وهاي أوضة رابعة ، وهذاك المطبخ ، وهون أوضتنا أنا وأنت» ، تعمّد أن يشير إلى غرفتهما بصوت واطئ ، كما لو كان يؤكد على خصوصيتها لها وله ، فخفضت حوّا رأسها ، حياءً ، كأن الغرفة أُشرعت في وجه العالم فجأة ، فضُبطِت فيها معه . ومع ذلك ، رغم الخجل المستحَق ، كانت حوّا لا تستطيع أن تحتوي نفسها من البهجة . «وأوضة الخياطة؟!» مالت نظراتها نحوه برجاء . فأشار منير إلى غرفة الخياطة المتخيَّلة ، فهللت عيناها لاكتمال البيت أخيراً .

اشتدّ صفير الهواء ، فمدّ منير ذراعه حول كتفي حوّا ، ضاماً إياها إليه ، كي يمنع الرياح من أن تأخذها منه . رحّبت

حوّا بذراعه . في تلك اللحظة المنتزعة من حلم جميل ، تغلّب إحساسها بأنها مضمومة فيه على البرد ، وعلى كل مخاوفها . أكلا ، وشربا الشاي ؛ فسرت الحرارة في جسديها المتقاربين . وخالت حوّا أنها تستطيع أن تجس حرارة جسمه الموشك على الالتصاق بجسمها . وإذ اغمقّ لون الصباح ، فغبشت السماء ، ربّت المطرُ الخفيفُ على جسديهما المتكوِّمَيْن ، شبه الملتصقيْن ، فاستسلما لدغدغة الماء .

في الجامعة ، وحتى وقت قريب ، كان منير يعمل ضمن نظام ورديّات . وظيفته في الغالب كانت تقتضي تفقّد مرافق الحرم الجامعي ، التي تشمل قاعات المحاضرات ، خاصة بعد انتهاء الدوام ، والباحات والساحات والحديقة الخلفية التي يطلّ سورها على حُرْش ، وجمع مقتنيات الطلبة المنسية أو المغفلة ، من كتب وكراسات وأقلام وساعات يد ، وفلوس قليلة ، ومجوهرات رخيصة ، وفيما ندر موبايلات . وكان يتم التحرُّز عليها في قسم المفقودات . بخلاف «الحمحمة» «والخنخنة» والسعال المفتعل الذي كان يفك به التحام طالبين خلف أكمة ، اعترف لحوّا أن عمله لا قيمة له ؛ فنادراً ما ضبط شيئاً مهماً . يذكر فقط تلك المرّة اليتيمة التي ضبط فيها باكيت سجائر ملغومة ، «حشيش يعني!» في أحد الحمامات ؛ كان مثبَّتاً بشريط لاصق خلف غطاء السيفون . كان ذلك في وردية الليل . اعتقد أنه وقع على كشف خطير ، فسلّم الباكيت في صباح اليوم التالي لمديره . توقّع منير أن تتابع إدارة الجامعة الأمر

مع الجهات الأمنية المختصّة . لكن منير تلقّى تعليمات مُشدَّدة بعدم التعاطي في موضوع السجائر الملغومة مع أحد ، كي لا يضر ذلك ، كما زعموا ، بعملية التحقيق . لم يحتَج منير إلى كبير ذكاء كي يكتشف لاحقاً أنهم «لفلفوا» الموضوع . ليس هذا فقط ، بل عرف منير أنهم أرجعوا الباكيت لصاحبه ، الذي تبين أنه طالب في الجامعة ، ابن مسؤول عراقي سابق استقر في عمّان عقب سقوط عراق صدام ، لديه وديعة مصرفية في أحد البنوك بثلاثين مليون دولار أميركي . ويُقال إن منظمة دولية معنية بحقوق الإنسان كانت قد أرسلت إلى الحكومة طلباً رسمياً بالتحقيق مع المسؤول على خلفية تُهم بارتكابه جرائم حرب في العراق ، وأرفقت الطلب بشهادات تؤكد أنه متورط في أعمال تعذيب ؛ لكن الحكومة أكدت في تقرير مطوّل أرسلته للمنظمة الحقوقية أنها أجرت تحقيقاً شفافاً ومتكاملاً حول الموضوع ، خلص إلى أن المعني بريء تماماً من كل التهم المنسوبة إليه ، وأن كل ما جاء في الشهادات محض مزاعم لا تستند إلى أدلة حقيقية .

نال منير ترقية مفاجئة في عمله ، فلم يعد يعمل في وردية الليل ، واقتصرت وظيفته التي حملت اسم «مشرف أمن» بالاسم على العمل الإداري ، يشرب الشاي والقهوة ويوقع على أوراق وقرارات لا تقدم ولا تؤخر .

أخذ صوته منحىً قاتماً ، بينما كانت قطرات ماء السماء البطيئة ، الرهيفة ، تُجبَل في روحيهما . مالت حوّا نحوه فيما

مسح بصرها المكان الذي شيَّدت فيه من طوب قلبها حوائط وسقفاً . فتحت في الحوائط نوافذ ، ستائرها من الدانتيل العاجي ، فارتشحت الشمس عبر الخروم ، لتُرشَم خرزاتٍ ذهبيةً على وجهيهما وعنقيهما . قال لها منير ، وهو يعانق وجهَها المُندّى ببصره ، إنه حين يبني البيت ، بيتهما ، سوف يترك العمل . سوف يفتش عن عمل آخر . اقترحت عليه حوّا بحماسة أوقدها المطر أن يفتح دكاناً ، ملحقة بالبيت . وأشارت إلى بضعة بيوت ، معظمها على العظم أو من الطوب العاري ، تناثرت في المنطقة . الدكان سوف تخدم سكان المنطقة ، سوف تكثر البيوت ، وسوف يكثر الناس . أكدت له . ابتهج وجه منير للفكرة . هزّ رأسه مرات ، كأنه يدرس احتمالاتها موافقاً . وهي أيضاً ستخيط ، قالت حوّا بإثارة متعاظمة ، ارتفع معها أمام ناظرها البيت والدكان والبيوت من حوله وأصوات النساء والأطفال الصائحين في الطرقات . سوف يكون الناس كثراً ، لكنهم لن يكونوا شقيانين ، نزقين ، يتركون بيوتهم غاضبين أول الصباح ، ليعودوا آخر الليل مقهورين ، ناقمين . سوف يكون الناس سعداء ، مثلهما ، في الطرقات الفضفاضة والبيوت الواسعة ، المنشرحة ، ذات الجدران غير المتقشرة ، والحواكير الصغيرة .

حين أقفل الشتاء أيامه ، جامعاً ماءه ورياحينه ، امتقع قلب حوّا ، وغيَّمت نفسها . عيون الربيع تفتَّحت ؛ حتى إذا ما أزهر الصيف فتمطَّت الشموس وأينعت السماوات ، بحْلَقت العيون ؛ فغدا من الصعب على حوّا أن تنتظر الحلو ، حلوها هي ، الذي

على بالها ، حبقها ومنثورها ، في الطرقات . حتى المقاهي البعيدة ، امتلأت بالعشّاق المتهوّرين الصغار ، الذين جلسوا على كل المقاعد ، فسطوا على مشوارهما وحكاياتهما . آخر لقاء جمعهما كان قبل شهر . كان ذلك على بقعتهما المحفورة ، التي يُشيَّد فيها بيتهما ، بحوائطه التي كانت ترتفع ؛ فقد أخذها منير إلى هناك لتعاين أساسات البيت ، بيتهما ، المصبوبة والعضادات المنتصبة ، المُلبَّسة لم تزل في قوالب الخشب .

من لحظة مُقتَنَصة لأخرى ، كانا يلتقيان في مطعم في مول أو في مقهى غير مطروق تماماً في أحد الضواحي العمّانية الجديدة أو المستجدّة . لم يعد منير قادراً ، في غالب الوقت ، على أن ينتشلها بسيارته من طرقات الصيف غير المنسية ، بالوجوه البشرية الكثيرة فيها ، وكثير منها مرشّح لأن تتعرّف عليهما ؛ أو ينزلها قريباً من بيتها في المخيم ، حتى وإنْ في الليل ؛ فبذْرُ الصيف له عيون ، وليل الصيف لا يحجب الأسرار . صارت حوّا تأخذ الحافلة من المخيم إلى دوّار صويلح ، أو حتى الجامعة الأردنية ، أو عند دوّار المدينة الرياضية . ومن هناك تأخذ سيارة أجرة إلى المَلْقى . أثناءها ، كانت تشعر بأن خطوات العالم كلّها تتبعها ، فتدفن عينيها في حقيبتها ، بعيداً عن وجوه الحافلة . وإذا ما تعرفت عليها إحداهن على مقعد مجاور هاج نحل الشكوك في خلية رأسها المضطرمة ، وخشيت على قلبها أن يُفضَح من عينيها الفزعتين . وحين كانت تركب سيارة الأجرة ، ويسألها السائق الشاب من تحت نظاراته

الشمسية الرخيصة متفحِّصاً: «على وين يا خالتي؟» كان صوتها يشحب، وروحها تغور في بئر الوساوس، وتوشك على التراجع.

كادت إحدى لقاءات الصيف تنتهي بصورة كارثية. اتّفقت حوّا مع منير أن تلتقيه في عصرية حزيرانية في مقهى ومطعم صغير في «مكة مول» بعمّان، استقبلهما مرّات عديدة في لقاءات الشتاء الأكثر يُسْراً. سبقها منير إلى هناك. جلس إلى الطاولة في الزاوية الجانبية إيّاها، قبالة مدخل المقهى، في موقع كان يتيح لكليهما أن يلمحا بعضهما عن بعد. طفر قلبُها من مكانه فيما كانت تقترب منه، مسرِّعةً في خطوها إذ التقت عيونهما قبل أن تتوقّف في مكانها متجمِّدة فجأة، كأنّ أفعى اشرأب عنقها أمامها واتّخذ رأسها وضعية الانقضاض. «أم قيس؟!» وقفت أم سعيد في منتصف الأمتار القليلة الفاصلة بينهما. «من إيمتى بتيجي عالمول؟!» فغر وجه أم سعيد من الدهشة، فيما ذهب جزء من بصر حوّا ناحية منير، الذي تكوّم في مكانه متناقصاً، دافناً وجهه في فنجان القهوة.

كانت أم سعيد تحمل أكياساً عدة، وكانت معها كنّتها، التي كانت تتلفّت حولها تعاين المحال الكثيرة المتجاورة، عيناها تتوقان للحصول على كل شيء. قدّرت أم سعيد أن حوّا أتت إلى المول للأسباب ذاتها التي جلبتها هي؛ فهناك تنزيلات في معظم المحال. أيدتها حوّا على الفور. لن تصدقي أن أسعار بعض المحلات أرخص من سوق المخيّم! قالت أم سعيد لحوّا،

لتدلّل الكنّة المتحمّسة على كلام حماتها بأن أخرجت بلوزة من أحد الأكياس تحمل بطاقتها سعر أربعة دنانير، أرتها لحوّا. ثم ضحكت الكنّة وهي تقرب القطعة من أنف حوّا: «حتى ريحتها غير. ريحة مول، مش سوق البقعة». ذُعرت حوّا حين قالت لها أم سعيد التي سحبتها معها كي تتسوّق معهما أن معظم نسوة المخيم يأتين إلى المول. حاولت حوّا أن تستحضر لقاءاتها السابقة مع منير. مرّت في ذهنها - من وسط العجقة - صور كثيرة، مشوَّشة المعالم، لكنها لم تلمح في أيٍّ منها واحدة من نساء المخيم ممن تعرفهن. أيمكن أن يكنّ هن عرفنها؟ كيف كانت ستراهن في مغامراتها العاطفية التي لم تكن ترى فيها سواه، مغامراتها التي كانت تأتي بعد طول انتظار وطول اشتهاء وطول يأس أحياناً؟ «زي مين؟» سألت حوّا أم سعيد عن نسوة المخيم من مرتادات المول. ذكرت لها أم سعيد، فيما كانت تعاين واجهة أحد المحال التي تعرض عباءات وجلابيات وفساتين طويلة، بلا مبالاة عشرات النسوة، ممن لم يعنين لحوّا سوى أنهن وجوهٌ وعيونٌ قابلة جداً لأن تكون قد فضحت سرّها الذي حوّطته بعناية تامة، أو هكذا خالت. «حلو هاظ؟» سألت أم سعيد حوّا وهي تشير إلى فستان طويل، فغرست حوّا عينيها في الواجهة الزجاجية. لمحت خيالاً منكفئاً يمُرق على السطح المنعكِس، كان شديد الشبه بخيال منير.

اكتفت حوّا ومنير باللقاء في الليل عبر الموبايل؛ يكون ناجي قد نام في حضن أبيه، فيما تتجشأ رابعة الماء، قبل أن

يرتاح رأسها فوق يد ابنتها ؛ فإذا ما غفت ، سحبت حوّا يدها وتفرغت لمنير . لأجل منير ، صارت حوّا تحب الليل ، كل الليالي ، حتى ليالي الشمال الحزينة ، وصارت تريد لليل أنْ يرجع «لِيْليِّه» ، وألا يغيب الليل ، ليْلُهما ، «شِي ليْلِه» ، رغم كل شيء . ألحّ عليها منير ألا ينتظرا أكثر . العمر لا ينتظر ، قال لها . تستطيع أن تعيش في بيته في المخيم ، ومن ثم ينتقلون جميعاً إلى بيتهم الجديد في عين الباشا ، حاول أن يقنعها . لكن حوّا رجته أن يمنحها وقتاً أطول ؛ إذ لم تكن مرتاحة لفكرة البقاء في المخيم بعد الزواج . لم تشاركه مخاوفها الحقيقية . كانت تخاف من آية ، وكانت تخاف من قيس ، وكانت تخاف - حدّ الرعب - من عايد .

كيف ستقول لهم إنها ستتزوج؟ قطعاً لن تجرؤ على أن تقول إنها تحبّ . فحتى وهي تفكر بالحبّ ، تبذل جهداً خارقاً كي لا يُرى حبُّها ، وكي لا يُسمَع ، حتى بينها وبين نفسها . ثم هناك أم سعيد ، وكنّة أم سعيد ، وجاراتها ، ونساء المخيم ، والناس ، كل الناس . وهناك أيضاً ليلى ؛ ابنة منير التي قاطعتها .

لم يقُل لها منير إن ليلى رفضت أن يتزوج خيّاطتها ، لكن حوّا اكتشفت ذلك بنفسها . فليلى توقفت عن زيارتها . لم تعد تخيط عندها مرايل ابنتيها ، أو تشتري منها شراشف الأسرة وأغطية الوسائد وأطقم الصلاة . اتصلت بها حوّا أكثر من مرة ، لكنها لم ترد عليها . سألت حوّا منير ، فاكتفى بأن أكد لها أن الزواج من عدمه قراره هو .

تصبّرت حوّا بالفيروزيات . وكلّما أرادت أن تسترجع طرقات الشتوية مع منير تحت المطر ترافقهما أغنيات فيروز ، شغّلت المسجلة على الصوت نفسه ، والأغنيات نفسها . حكت لمنير أنها تعرّفت على فيروز من ست قمر . تركت لها ست قمر قبل رحيلها حقيبة جلدية فيها عشرات الشرائط لفيروز . سمعتها حوّا كلها ، مرات ومرات . ثم لم تعد تسمعها . في البداية تعطّلت مسجلتها ، ثم تعطّلت حياتها على نحو شبه تام . أصبحت فيروز ، دون أن تقصد ، دخيلةً على أيامها الكثيرات المضنِيات . ثم حين كسبت بعض حياة ، صارت حوّا تفتح الحقيبة ، تقلب الشرائط ؛ تمسح بيدها صورة فيروز على الغلاف ، فتصدح الأغنيات في رأسها ، بحسب ترتيبها في الشريط . كانت تنتشي في فضاء وحدتها لوحدها حين يبلغ الصوت مدَياته المَشُوقَة ، فتذيب النغمات قلبها . اقترحت عليها آية قبل سنوات أن تشتري لها سيديهات لفيروز ، وجهاز تشغيل خاص . لكن حوّا رفضت . لم تخش حوّا أن تفقد فيروز التي عرفتها في الشرائط فقط ، وإنما خشيت أن تفقد ست قمر ، فالشرائط هي ما تبقّى لها منها ؛ وهو أمر لم تفهمه آية ، ولم يعنها كثيراً أن تفهمه . فاجأها منير حين جلب لها مسجِّلة بدت جديدة تماماً . كان قد لفّ كل محال سقف السيل قبل أن يقع عليها ؛ مسجلة «باناسونيك» ، نظام ستيريو ، ومع راديو . كان ذلك بالنسبة لحوّا هو الحبّ ، هو كلّ الحبّ . وحين صار صوت فيروز يعبّئ فضاء البيت ، في الصباحات العذبة أو في

المساءات المؤنِسة ، متقاطعاً مع صوت ماكينتها ، كان يلوح لحوّا وجه ست قمر ، مهلّلاً ، إذ تنظر من النافذة إلى طرقات المخيم ، تقول لها ببهجة عظيمة : حُبّي وصل .

ثم انقطع حبُّها عنها . مرت أول ليلة وثاني ليلة ثم الثالثة دون أن يتصل منير . حاولت حوّا أن تتصل به ، لكن موبايله كان مغلقاً . اتصلت به في الليل ، ثم في آخر الليل . ثم اتصلت به في أول النهار وفي منتصفه ، وفي آخره . ظل الصوت البارد إياه يقول لها إن الرقم المطلوب مغلق . أرسلت له رسائل عدة . «وينك؟» ، «خير انشالله» ، «لعله خير» ، «طمني عنك» ، «طمني» ، «خايفة طمني» ، «طمني خايفة» ، «ليش بتردش؟» ، «طمني» ، «منشان الله طمني» . بعد تفكير ، ذهبت حوّا إلى بيته . كان يقع على بعد أربع حارات من بيتها . عاينت البيت من على مسافة مئة متر . كتف البيت كان يقابل زقاقاً تحول إلى شارع فيه بضع محال للنجارة وبيع الأثاث المستعمل ، تُحشر فيه سيارات تحميل وتنزيل الأخشاب والأثاث . ضجيج السيارات والباعة والشراة ملأ المكان . سيارة منير الكحلية كانت تقف عند باب بيته . خالت حوّا أنه في إجازة ربما . اتصلت به ، لكن موبايله مغلقاً مازال . ذهبت إلى بيته في العصر ؛ كانت سيارته في مكانها . راقبت الوضع من بعيد . كل شيء كان ساكناً . تراجعت حركة الباعة والشراة عند محال بيع الأثاث المستعمل . عدد من صبية الحي كانوا يلعبون كرة القدم أمام بيته . ارتطمت الكرة في الباب ، فنطّ

قلب حوّا ، وتوقّعت أن يفتح منير الباب ، لكن الباب ارتجّ تحت ضربات الكرة ثلاث مرات على الأقل دون أن يُفتح .

عادت حوّا إلى بيته في الليل ، فرأته على حاله ، خالياً من مظاهر الحياة . كانت محال النجارة والأثاث قد أُغلقت ، واختفت أقدام الناس ، تقريباً ، من الشارع . اقتربت حوّا تحت ظلال العتمة من السيارة ، فلاحظت الغبار يغطيها ، فتيقّنت أن السيارة لم تبرحِ مكانها منذ أيام . نوافذ البيت كانت مغلقة والستائر مُرسَلَة . ولم يكن ثمة ضوء منبعث من الداخل . أيكون ترك البيت؟ تساءلت . لكن أيترك السيارة؟ هل يمكن أن يكون سافر؟ أين؟ ولماذا لم يخبرها؟ فكّرت أن تدقّ جرس الباب . ماذا لو لم يفتح؟ ماذا لو فتح لها؟ أيقول لها إنه تركها؟ لم تحتمل مجرد الفكرة . بينما كانت تتقلّب بين أسئلة وإجابات مروِّعة كثيرة ، مرّ رجلان ، انشغل أحدهما في الحديث عبر الموبايل بصوت مرتفع ، فيما تباطأ الثاني الذي كان يطالعها في سيره متفحِّصاً . انحنى على أذن رفيقه ، الذي أنهى مكالمته ، وهمس له بشيء حرف بصره معه ناحية حوّا . تمنّت حوّا لو أن السيارة مفتوحة ، لتختبئ فيها . فتحت حقيبة يدها ، مدَّعيةً أنها تنبش محتوياتها ، ثم مشت مبتعدةً .

وضعت حوّا رأسها على الوسادة تستحثُّ نوماً جافاها منذ أيام ، مودِعةً الموبايل الأصمّ حضنها . سكن ليلُها ، إلا من شخير رابعة الخافت . نظرت عبر شقّ ستارة النافذة إلى السماء ، فلمحت نجمات مشعّات . تمنّت لو أن النجمات

ينطفئن ، ولو أن السماء تغصّ بالسحب المتورمة حتى إذا بُقِرت اندلق ماء غزير . فقط لو أن مطراً تمّوزياً يمكن أن ينزل ، إنْ كان هناك مطر تمّوزي في الأساس . لو كان ليأسها أن يحلب السماء لأنزلت الآن كل الماء المرتجى على أرض المخيم الناشفة . عندها كانت ستغادر البيت ، تقطع الطرقات متدثّرةً بأغطية الماء ، وتروح إليه ، إلى بيته ، تطرق بابه ، وتظل تطرقه حتى وإن اقتضى الأمر أن تكسره .

في الصباح ، وقفت ليلى على بابها ، بمطر وفير ينزل من عينيها . «أبوي مريض!» قالت لها . ضرب السكّري ساقه . كان ذلك منذ فترة ، لكنه تجاهل كل المؤشرات ؛ من ضعف الإحساس برِجله وبرودتها وازرقاق أصابع قدمه ثم اسودادها والتقرُّحات في باطن قدمه . الأطبّاء قالوا إنه لا مناص من بتر رِجله ، فالغنغرينا استشرت فيها . لكنه رفض . منذ أيام وهو حبيس سريره في البيت ، لا يغادره ؛ لا يتكلّم مع أحد ولا يستقبل أحداً ، حتى بناته . اضطرّت ليلى لأن تأخذ ناجي عندها . «سامحيني!» قالت ليلى لحوّا . وطلبت منها أن تتكلم معه ، أن تقنعه ، فهي الوحيدة التي تملك أن تؤثّر فيه . لكن لماذا يرفض أن يقطع ساقه؟ سألت حوّا ليلى بينما كانت ترتدي جلبابها بسرعة ، وتلف الإيشارب حول رأسها . «لأنو بحبك!» أجابتها ليلى ، و«خايف إذا قطعوا رجله تتركيه» . قطعت حوّا مع ليلى متاهة الحواري ، التي بدت أن لا نهاية لها ، تسابقها دقات قلبها إلى بيته .

في غرفته التي غلّفتها الظلمة ، استلقى منير على السرير ، بوجه تبرقش ببدايات لحية بيضاء ، ونظرات زائغة ، هرمة . حين وقفت حوّا أمامه أخفى وجهه في المخدَّة . انسحبت ليلى من الغرفة ، فبقيت حوّا في الغرفة معه لوحدهما . جلست على طرف السرير ، تستجمع صوتها الذي غار في روحها ، قبل أن تعاتب منير :

- هِيك يا بوليلى! بْتِسْأَلِشْ عنّي؟!

تجمّعت في عينيها بضع دمعات ، ظللن عالقات على ضفاف جفنها .

- يعني ما سألتنيشْ ولا مرَّة عن حوّا!

أعطاها منير نصف وجهه ، ببعض فضول تخللت نظراته .

حوّا هي أم جدّتها نايفة . سمّتها نايفة على اسمها . حوّا كانت امرأة قوية ، وكانت امرأة محبّة . وكانت جميلة ، بل إن الروايات تؤكد أنها كانت أجمل بنات بيت محسير . حين جاء الدرك العثماني لاقتياد زوجها إبراهيم للجندية ، افتدته حوّا بمصاغها الذهبي ، فأعتقوه . ثم جاءوا ثانية بعد شهور ، فساومتهم عليه ، وأعطتهم ليرتين ذهبيتين عصمليتين . لم يكد ينقضي عام ، حتى بلغتها نذرُهم المشؤومة من جديد . فقد كانوا في طريقهم لجمع عدد من رجالات البلدة . كانت حوّا حبلى ببطنها الأول ، ولم تكن تملك مجيدية واحدة . كان إبراهيم نائماً على الأرض حين دخلت عليه . فردت رِجْله ، ثم بضربة واحدة ، مسدَّدة ، هوت بالبلطة على ساقه ، فقصّتها من

الركبة فما دون . عندما وصل الدرك القرية بعد أيام ، وكان إبراهيم لا يزال غاطساً في الحمّى ، قالت لهم حوّا إن حائطاً وقع على ساقه ، تسبب في بترها . بكى إبراهيم على ساقه التي ضاعت . قال لها إنه لم يعد يصلح لشيء ، لكن حوّا أقنعته بأنه يصلح لها ، وللحياة معها . قالت له إنه أهون عليها أن يظل نصف بني آدم ، من أن يأخذوه منها ، ووعدته بأن تحميه وتداريه العمر كله . وحين فقد إبراهيم أولاده تباعاً ، ظلت حوّا بجانبه ، وساعدته في بناء البيت مع نايفة . ثم حين استولى اليهود على القرية ، حملت حوّا إبراهيم ، الذي استحال في آخر أيامه عظماً ولحماً قليلين ، على كتفيها وقطعت به الطرقات الصخرية حتى نابلس .

- وإنت يا بوليلى رَحْ تظلّك جُوّاة قلبي وعيني وعلى راسي من فوق!

أشار لها منير ، وسط خرير نهر دموعه الفائض ، إلى ساقه التي كان سيخسرها قريباً . «مش مهم ، إيشْ يعني؟! فداك! فدى عمرك!» قالت له .

المهم أن يظل معها . المهم أن يعيش لها هي . المهم أن يبقى قلبه مشبوكاً بقلبها . فليأخذوا ساقيه الاثنتين ، وحتى يديه . تريده رَجُلَها حتى وإنْ كان نصفَ رجل . تريده شريكاً لبقية عمرها ، حتى وإنْ لم يتبقَّ من عمره سوى يوم . تريده الرأس الشائب والعينين المغرغرتين بالدموع العاطفية والقلب الطيب المحبّ ، ليجاورها على الوسادة ، فيكون آخر ما تغمض عيناها

على رؤيته . تحبُّه . تحبُّه ولو لم يتبقَّ منه سوى كمشة عظم ولحم ؛ تحبُّه الحبَّ الذي لم تعرفه في حياتها ؛ تحبُّه الحبَّ الذي يطوي بشاعات أيامها ؛ تحبُّه الحبّ الذي يجعلها تحبّ نفسها ، ولو قليلاً ؛ تحبّه هو إبراهيمها الذي ستودعه قلبها وروحها وعينيها وسوف تحميه من كل عوادي الزمن ؛ تحبُّه الحبَّ الذي لم تتخيَّل يوماً أنْ تحسَّه تجاه رجل وتتجرَّأ أن تقوله له .

- بحبَّكْ ، والله بحبَّكْ!

حتى إذا مَرَق الصيف ولملم عناقيده فيما ظل الشوْق متأجِّجاً ، عاد منير إلى عمله ، وركَّب ساقاً جديدة ، وطوّع سيارته لها ، واكتسى طوب بيتهما بالقصارة . وقفت حوّا عند مدخل البيت ، الفائح بالإسمنت غير الجاف تماماً ، يداعب هواء تشرين الذي تجري تياراته من فتحات النوافذ غير المركبة نهايات إيشاربها ، بينما تمسك أطراف فستانها بيديها . «خلال شهرين بِجْهَز البيت ، وبعدين بنتزوّج» ، قال لها منير وهو يمسح بكفّه القصارة الخشنة . كان مزهوّاً بالبيت الذي شارف على الاكتمال . من جهتها ، انشغلت حوّا بتوضيب أحلامها في غرف البيت ، قبل أنْ تلتفتَ ناحيته مؤيِّدة : «أكيد . . في الشتوية اللي جاي!» ثم خطر في بالها فجأة ذاك السؤال الذي لطالما حيّرها :

- إيمتى عرفت إنك بتحبْني؟

توقّف منير عند السؤال ملياً . قلَّبه في قلْبِه مرات . قال لها إنه لا يعرف تماماً كيف شعر بما شعر ، ولا متى شعر بما شعر . فهو لم يطرح السؤال على نفسه أبداً ، كما فاته ربّما أن يؤرِّخ

لأحاسيسه . ومع ذلك ، يستطيع أن يذكر اللحظة التي أحسَّ فيها بأنّ شيئاً ما في حياته اختلف .

كان قد أوصل ليلى بسيارته بعد الظهر إلى بيت حوّا . كانت الشمس محتدّة يومها . وقفت حوّا على باب بيتها . امتدّت مظلة الباب القصيرة ، كعتبة علوية ، فوق رأسها ، فسقط نصفُ اللهب الشمسي عليها ليشتعل نصفُها فعلياً ؛ نصف وجهها ونصف قامتها الشامخة ، فيما تغمَّد شقّها الآخر في الظل ؛ عندها ، تبدّت حوّا كائناً أثيرياً ، خَلْقاً هفهافاً ، فاتناً ، وآسراً .

هي لحظة هو نفسه لا يستطيع أن يصفها ، وهو نفسه لا يفهمها . لكن ما يعرفه أن كل شيء بعدها لن يكون كما قبلها .

بالنسبة لمنير ، من يومها ضحك اللوز .

***

كأن الليلَ كلّه نَزَل مرَّةً واحدة ، فلم يُبقِ أي فرصة أو احتمال كي تُليِّل أكثر .

رائحة الرز بالشعيرية المحمَّصة بالسمن تُسمِّك هواء المطبخ . ترفع حوّا جاط الفواكه من على الطرابيزة الطولية في غرفة المعيشة وتفرد فوق الطرابيزة صفحتي جريدة . كالعادة ، تتأكد من عدم استخدامها صفحات الوفيات في الجريدة ، أو تلك

التي فيها كلام الله . تسكب البامية كلها في وعاء أخدودي كبير . كانت ست قمر قد نبّهت عليها بألا تضع طناجر الطبخ على الطاولة «زي الفلاحين» . لماذا تتذكر ست قمر الآن؟ تسأل نفسها مستغربة ، وتجهد كي تنفض صورة ست قمر من رأسها . تغطّي الوعاء كي يظل الطعام محتفظاً بحرارته . توزّع على الطرابيزة ثلاثة صحون وثلاث ملاعق .

يشتاق بصرها إلى كيس المخمل . تمسح يديها من أثر بخار البامية بجنبيها . تفتح الكيس الموضوع على طاولة القص ، تدسّ حواسها فيه ، لكن الطرق البطيء على الباب ينتزعها من مخملها .

يدخل عايد يتبعه قيس ، يرتديان نظرات جامدة . تستقبلهما حوّا مهلّلة ؛ أو تحاول أن تبدو كذلك . تعاين وجه قيس الذي تعلوه صفرة . لا تبدو حوّا واثقةً من أي حركة يمكن أن تأتيها يمكن أن تبدو طبيعية ، ومع ذلك تأخذ قيس في حضنها . تحاول أن تشدّه إليها . تحاول أن تبدو ملهوفة . يميل جذع قيس عليها دون أن يقترب منها كثيراً ، بينما تظل ذراعاه مرخيَّتيْن على جانبيه . في الفراغ الواقع بين جسديهما ، يتهاوى قلب حوّا .

يخلع عايد جاكيته اللحافي ذا القبعة الواقية من المطر ويضعه على كوع كنبة الموريس ، بينما يظل قيس مرتدياً جاكيته الجلدي ، مكتفياً بخلع شال صوفي كاروهات ملفوف حول رقبته . يسألها عايد ، الذي يختار الجلوس على الكنبة في موقع

يســهِّل له الوصــول إلى كل مــا على الطرابيــزة ، عن والدته . «نايمة» ، تجيبه حوّا ثم تقترح أن توقظها وتضعها على الكرسي وتجلبها كي تجلس معهم على السفرة . لكن عايد يقول إنه من الأفضل أن تظل مرتاحة ، متبادلاً نظرة تأييد من ابن أخته الذي خلا وجهه من أي تعبير . تقول لهما إنها أطعمتها وغيّرت لها . تشرح لهما إن وجه رابعة غدا أفضل بفضل التدليك الذي تجريه لها . «شهيتها ماشالله ممتازة!» يتهدج صوت حوّا إذ تبذل جهداً مصطنعاً في إضفاء عنصر الحياة العادية إياها عليه . يعبث عايد بأزرار موبايله ، فيما تستقر عينا قيس عليها ، دون أن يبدو متفاعلاً معها أو معنياً بمتابعة حالة جدّته الصحية . «ستّك يمّه بتحِب التفاح ، بْتُوكل تفاحتين في اليوم» ، توجّه كلامها لابنها ، واعيةً تماماً أن كلمة «يمّه» هي له ، ميزته التي ميّزته بها . «جوعانين؟» تسألهما بعدما استفحل الصمت .

في طريقها إلى المطبخ ، تفكر حوّا بأنه كان يتعيّن عليها أن تضاعف كمية اللحم في البامية . كان يُفضّل ربما لو طهت مع البامية صينية دجاج أو كفتة . كان يجب أيضاً أن تقلي قوانص ؛ فعايد يحبها . قيس كذلك يطلبها منها . كان يجب أيضاً أن تحضِّر صينية هريسة .

تسكب تلّة رز بالشعيرية في طبق دائري عريض مسطّح . تفلت الكفْكيرة من يدها ، فينسكب بعض الرز على رخامة المجلى . تتركه مكانه دون أن تحاول أن تجمعه . تحمل الطبق الثقيل بحذر وتضعه على الطرابيزة . تسكب الرزّ والبامية في

صحن كل منهما . تتنقي لهما اللحم بعناية زائدة . «برد» تقول لهما ، وهي تجلس على كنبة بعيدة عن طرابيزة الأكل ، تتفرّج عليهما ، وتحاول أن تقرأ ملامحهما المنفصلة الصامتة ، التي لم تَحُل - مع ذلك - دون إقبالهما على الطعام . تعتقد حوّا أن نهمهما المفرط أمر جيد ، هذه الليلة خصوصاً .

يرفع عايد وجهه فيها ويسألها : «في بيبسي؟!» تركض إلى المطبخ ، مستبشرةً بما قد تؤول إليه الأمور ، طالما أنهما يتكلّمان ويطلبان . تجلب قنينة بيبسي كبيرة من الثلاجة وكأسين . تحاول أن تفتح القنينة ، فلا تستطيع . يأخذ عايد منها القنينة ، ثم يفتل الغطاء بسهولة ، فتتجشأ القنينة البلاستيكية بعض غازها .

«كيفك يختي؟» يسألها عايد راصداً ببصره يديها . تحاول حوّا أن تقمع رعشتها وهي تمسح رقبتها ، ثم وهي ترفع شعرها المبعثَر بعضه على وجهها إلى الخلف . «بخير من الله» ، تجيبه . «يعني ما تْعشتيش معنا؟!» يسألها وهو يكربع كأس بيبسي ثانية ثم يفزّ واقفاً ، ويرتدي جاكيته . لم يكن قيس قد أنهى كأس البيبسي الأولى بعد . يضع عايد يده على كتف ابن أخته ، ثم يضغط بقوة ، قائلاً : «تفاهم مع أمك!» . تحاول حوّا أن تتبع شقيقها ، لكنه يطمئنها بأنه سيخرج كي يدخن سيجارة ثم يرجع . يكتفي قيس بكأس بيبسي واحدة . تنظر حوا إلى صحنه ، فتسعد لأنه أتى عليه كله . تقترح عليه أن تسكب له صحناً آخر . لا تنتظر ردّه . تسكب كفكيرتي رز وفوقهما بامية .

تجمع قطع اللحم المتبقية كلها وتضعها في صحنه . يرجع قيس إلى الوراء ، متكئاً على ظهر الكنبة . تعرض عليه حوّا أن تصبّ له كأس بيبسي أخرى . فيهز رأسه علامة الرفض . بطرف فستانها ، تُلمّع صفحة صحنها الذي لم تستخدمه . تغطي وعاء البامية المتبقي فيه القليل من المرقة وبضع أصابع بامية مفغّصة . تقول لقيس ، فيما تنهض ، إنها ستذهب لتتفقد جدته ، لكن قيس يؤشّر لها كي تظل في مكانها :

- من إيمتى بتعرفي أبو ليلى؟

لم يفتها تلميحه . تشعر أنه يتعين أن تدافع عن نفسها :

- مش من زمان .

- من إيمتى؟

تحاول أن تستعين بحكمة الكذب :

- من شهرين أو تلات .

- كيف تقابلتو؟

- صدفة .

- كيف صدفة؟

- بالشارع .

- أي شارع؟

يتسلّل هواء كانون إليها من الممر المؤدي إلى الباب الخارجي ، الذي تركه عايد مشقوقاً . تفتح كل عيون الصوبة ، تستدعي ناراً تلفحها . يعود قيس فيحاصرها بالسؤال نفسه :

- أي شارع؟!

ترفع بصرها إلى سقف الغرفة . تنتبه إلى العفن الأسود في بعض الزوايا . تعود إلى الاستجواب :

- بعرفش . في المخيم .

- قعدتِ معه؟

- مرة أو مرتين .

- وين؟

تتفجّر البرودة من تحت البلاطات فالسجادة ، لتنخر ساقيها . تفتش حواليها عن شال أو أي شيء تلفه حول نفسها . يلفحها قيس بالسؤال :

- ركبتي معو في السيارة؟

لا تشعر حوًا بقدميها ؛ كأنهما تخوضان عاريتين في الثلج . بصرها يمسح الغرفة دون هدف .

- دخلتي بيته؟

ثم لا تعود تسمع أي سؤال . تنظر إلى قيس فترى فمه يُفتح ويُغلق ، ومعه عيناه اللتان تضيقان ثم تتّسعان ، تضيقان فتتّسعان :

- رحتي عنده؟ قعدت في بيته؟ حد شافك معه؟ جاوبيني! جاوبي! احكي! ليش ساكته؟!

جسدها بردان ، تعبان ؛ أتعبه العمر وناس العمر . تسحب قطعة المخمل في الكيس وتلفّها حول كتفيها ، متهدّلةً كموج منكفئ فوق صدرها وحضنها . لكن قصف الريح أعتى وأشرس مما يستطيع جسدها المتلحّف بالمخمل الليلكي ، ذي النشنشة

البِكر ورائحة المسرّات السِّريَّة ، أن يصدَّه .

يمزّق صراخ رابعة الليل :

- حوووووووووووو!

تقف حوّا . فيتدحرج الموج الليلكي المستَكِن على الأرض ، متكسِّراً عند قدميها . تحاول أن تتحرّك ، لكن ساقيها لا تريدان أن تمشيا . تحاول أن تشيلهما ، أن ترفعهما عن الأرض ، فلا تستطيع . تشم رائحة غريبة ، كأن شيئاً يحترق . تواصل رابعة صراخها الذي يخزق حوائط البيت :

- حوووو! حووووووووو! حووووووووووو!

«جايْ يمّه ، جايْ!» تردّ عليها . لكن صوتها يبدو ضامراً ، كأنها تتكلم مع نفسها .

- حوووو! حوووو!

«جايْ . . .» ؛ تحاول حوّا أن تستخرج الكلمات من فمها ، لكن الأحرف تلتصق في سقف حلقها . تنظر إلى قيس . تراه واقفاً ، وجهه كأنه ينضح ماء ، يده تقبض على مسدس أسود صغير .

تنزلق يدها فوق بطنها . تغوص في سائل ثخين . تفتح كفَّها ، فترى دماً أغزر كثيراً من الدم الذي ينفر من أصابعها التي تُشكّ بالإبر والدبابيس . صليل ماء يملأ أذنيها ، يتداخل مع صراخ رابعة ، الذي يأفل تدريجياً .

أذناها تُسَدّان تماماً ، وعيناها تسدران في بياضٍ غامقٍ سحيق .

في التماعةِ الروح الأخيرة ، تشدُّ حوّا قامتَها السامقةَ إلى أعلى ، فأعلى ، وأعلى ؛ تبلغُ السحابَ والسماء ؛ قلبُها يَبْرُقُ ؛ تَشْهق ؛ ثم تَتَداعى ؛ وتنطفئ .

ذاكِرْ قَدّيش قِلْتلِّي
هالعُمُر إنّو قَصيرْ
وإنّو أنا ما في مِتْلي
وحُبّي أَخيرْ
مِنْ يَوْمَا شو عادْ صارْ
عَمَدى كَذا نْهارْ
ما صارْ شِي كْتيرْ

تَعِبَ الشتاءُ وغفَتِ النارُ في المواقد .

العيون المْحمرَّة لصوبات الغاز أسدلت جفونَها . وفتائل صوبات الكاز نشفت وانكمشت . طوت السماءُ لحفَ الغيم وحبسَت الماءَ خلف أبوابها المقفلة .

ونيسان طلّ .

جلس منير على الصوفا الخشبيّة القديمة ذات الإسفنج الغائر . إحدى يديه استقرّت فوق فخذه اليسرى ، في حين اتّكأت الثانية على حافة النافذة المطلّة على زقاقيْن متقاطعيْن في المخيم . على الأرض ، ارتمت ساقه الصناعية ، دعامتها المعدنيّة تصبّ في فردة حذاء أسود مفكوك الرباط .

«وبعدين معك يابا! لإيمْتى رَحْ تظلّكْ على هالحال؟!» تساءلت ليلى بقنوط وهي تضع صينيّة الأكل على طرابيزة صغيرة أمامه . وجهه ، المغروس في النافذة ، تصلّبت قسماتُه . جلست على الصوفا إلى جواره . «ناريمان يابا جابت ولد . بِدْكاشْ تْروُحْ تْبارِكلْها؟» لم يفارق بصره الطريق . «اتصلت عليا من جدّة امْبارِح . بتسلّم عليك . جوزْها جدَّدوا عقده في الشغل أُخرى سنة» . حملت صحن الطعام ووضعته أمامه . «طبختلّكْ بامية ، من يلّي بحبْها قلبك!» ظلت عيناه مرتَحلتيْن

بعيداً . أرجعت ليلى الطبق إلى الصينية ، مكبِّلاً العجزُ لسانها .

فجأة ، مطّ رأسه من النافذة نصف المفتوحة ، عبر الشبك الحديدي ، فاتحاً عينيه اللتين ومضتا ، ساعيتيْن إلى تطويق زاوية الطريق ، كأنهما وقعتا هناك على شيء أو على الشيء . لم تتمالك ليلى نفسها : «حرام عليك يابا! حرام عليك!» . انقضت شهور على الحادثة ، وما جرى أمرٌ لم يكن بيده ولا بيد أحد ، قالت له .

«اطَّلَّع فيِّي يابا!» جذبت وجهه بيدها وأدارته ناحيتها ، ثم طبعت قبلةً مغمَّسةً بدموعها على جبينه . درجت كلماتُها على لسانها الذي كلبشه نحيبُها ببطء ، مُسبِغةً عليها حدّة وعلوّاً في الطبقة والنبرة ، كما لو كانت تشرح الأمر لشخص ذاهل ، أو في نصف غيبوبة ، أو في أفضل الأحوال أصمّ : «حوّا يابا راحت ؛ ماتت» . يجب أن ينسى ، رجته . عليه أن ينسى . ثم يجب أن يترك «هذه الخرابة» ، كما وصفت البيت ، وينتقل للعيش في بيته الجديد .

دخل عليهما ناجي يحمل ذراع تحكّم «البلاي ستيشن» التي أرسلتها له عليا من السعودية . شكا لها إن الذراع لا تعمل . نقّلت بصرها بين الأب وابنه . «وناجي يابا؟ ما فكّرت فيه؟!» بدا كما لو أن الأمل انحسر من صوتها . وقفت تتفحّص الغرفة تعيسة التهوية والإضاءة ، التي فحّت منها رائحة كآبة ، وعطن ، وعرق رجل عجوز لم يغتسل منذ فترة .

صدح موبايله على الطرابيزة بموسيقى «يا أنا يا أنا أنا وياك ، صِرْنا القصص الغريبة» . تواصلت الرنّة الموسيقية أربع مرات قبل أن تتوقف . لم يلتفت منير إلى الموبايل لمعرفة هوية المتّصل . أعلنت ليلى استسلامها . قالت له إنها لا تستطيع أن تترك بيتها وعيالها وتأتي عنده كل يوم ، وأنه قد يكون من الأفضل أن تأخذ ناجي عندها . حين سمع ناجي اسمه ، هرع ناحية أبيه ورمى رأسه على نصف رِجْله . فرد منير كفّه فوق رأس صغيره ، دون أن يبعد بصره عن الطريق ، فيما تخضّبت لحيته البيضاء الشعثاء بدموعه التي جرت حثيثاً .

كان الوقت عصراً حين دهمت السماءَ حمُرةٌ ، أُدمِي معها الفضاء . عزفت في الأرجاء رياحٌ محمَّلةٌ بالرمال والحجارة الصغيرة ، سرعان ما تحولت إلى زوبعة اتّسع قطرها لتشمل سماء المخيم ، فتمدّدت واستطالت وعَرُضت ؛ تشرَّت واستشرت ؛ وتدسَّمت بتراب الأزقّة ، كما تعزَّزت بأشلاء أوراق وأكياس .

أحكمت ليلى إغلاق النوافذ ، فتصاعد هسيس الرمال ، وضربت الرياح الهمجيّة أذرعها الهوجاء في كلّ الاتجاهات .

تراكض الناس في الطرقات ، يحاولون أن يغطّوا وجوههم من صفع الرمل . ارتفعت عيونهم إلى السماء المدماة ، يمنّون الأنفسَ المرمَّلَة بمطرٍ زاعق ، جارف ، داهم ؛ طوفان عظيم يُغرق الكون .

للمؤلفة

* «قبل أن تنام الملكة» ، (رواية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، (٢٠١١)
* «أصل الهوى» ، (رواية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، (طبعة أولى - ٢٠٠٧) ، (طبعة ثانية - ٢٠٠٩)
* «ليل أحلى» ، (مجموعة قصصية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت (٢٠٠١) .
* «شكل للغياب» ، (مجموعة قصصية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت (١٩٩٧) .
* «التفاحات البعيدة» ، (مجموعة قصصية) دار الكرمل للنشر والتوزيع ، عمّان (١٩٩٤) .
* «الرجل الذي يتكرر» ، (مجموعة قصصية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت (١٩٩٢) .
* «من وراء النوافذ» ، (مختارات قصصية) ، وزارة الثقافة الفلسطينية ، رام الله (٢٠١٠)
* «استجداء» ، (نصوص شعرية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت (٢٠٠٩)

V E L V E T

روية
NOVEL

مكتبة نوميديا 196
Telegram@Numidia_Library

مُخْمَل

كانت تلك أوّل مرّةٍ تلمسها فيها يدُ رجل؛ رجل ليس مقحماً عليها، وليس مقتحماً لها؛ رجل لا يسلب جسدَها فتضطرّ أن تغمضَ عينيها وأذنيها كي لا تراه ولا تسمعه، حتّى إذا انتهكها وانتهى أقنعت ذاتَها بأنّ ما حدث إنّما كان كابوساً مرعباً ليس إلّا؛ رجُل لا يخلّف بصاقَه فيها وزفارتَه فوقها فتحتاج إلى دهر ويزيد كي تغتسل من آثاره. لقد كانت يداً حقيقيّةً لرجلٍ حقيقيّ؛ رجل يبكي؛ رجل ينشج ببهاء؛ رجل ينحب بحرقة أصيلة.

كانت تلك أوّل مرّة ترى فيها حوّا رجلاً يبكي، فاعتقدت أنّ أجمل الرجال هم الحزانى. كانت تلك أيضاً أوّل مرّة تستشعر فيها الإحساس بأنّها ربّما أكثر من مجرّد امرأة؛ امرأة تُحَبّ؛ امرأة تُرام؛ امرأة تُطلَب؛ امرأة تُرغَب؛ امرأة تُشغَف لما هي عليه؛ امرأةٍ تُرادُ فقط للحياة الّتي تقتنصها اقتناصاً؛ امرأة يُحَنّ إليها للدفء الّذي يعتمل في نفسها رغم أيّام البرد وأيّام الجفاء وأيّام الخواء؛ امرأة يُشفَق عليها لقلّة الحبّ في ماضيها؛ امرأة تُغبَط لطول صبرها على ماضيها؛ امرأة يُغفَر لها كلامُها القليل جدّاً في الحبّ والأشواق واللوعة.

كانت تلك أوّل مرّة تشعر فيها حوّا أنّها لعلّها تحبّ، من يدري؛ ولعلّ هذا هو الحبّ المشابه لذاك المرويّ في قصص الحبّ، أو الّذي يتحدّث عنه الناس.

من الرواية

مكتبة كلّ شيء
info@kol-shee.com
www.kol-shee.com

ISBN 978-614-419-631-1
9 786144 196311